الرقي والاعتدال

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01116 8121

الكتاب الأول

في

الفتاة

تأليف

اسكندر قزمان

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

5210

259.1
297.4

The
D. M. Thornton

Memorial Library.

Quzmān, Iskandar
قزمان، اسكندر
al-Ruqiy wa al-i'tidāl
BJ
1658
A7
Q89
1912

الرقي والاعتدال

سلسلة ابحاث فيما يجب تناوله بيد الاعتدال
من الاجتماعيات ووسائل الرقي

الكتاب الاول

في

الفتاة

وهي الحلقة الاولى من سلسلة الرقي والاعتدال

تأليف

اسكندر قزمان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

١٩١٢

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

School of Oriental Studies
of
The American University at Cairo

03-B4262 Put

D.T.
376
Is3

٢٧٦
ق١. ف

5216

مقدمة

حمدُكَ يا ذا الجلال ، احسن ما يُفتتح بهِ المقال ، وعونك سرُّ الإقبال . واضمن ما تُستنجح به الاعمال ، وهُداك ميزان الاعتدال ، واحصن ما يُتدرَّع بهِ لاتقاء الخيبة والضلال ، ورضاك منتهى الآمال ، وأيمن ما يُتذرَّع بهِ لبلوغ الرقيّ والكمال

اما بعد — فقد نظمت منذ بضعة اعوام ارجوزةً اجتماعية ونشرتها في بعض المجلاّت تحت عنوان « فكّ التقييد في اتباع الاجتهاد وترك التقليد » وكان الباعث لي على نظمها ونشرها اني رأيت المقلّد اي المحافظ على العوائد القديمة شديد الحرص على قديمه لا يزايله مهما رأى من ضرره ويجتنب كل جديد حاسباً اياه بدعةً وعاراً . وامَّلت بذلك الفات هؤلاء المحافظين الى المنهج القويم وهو مراعاة الاعتدال باختيارهم النافع من كل عصريّ وقديم

ثم بدا لي بعد نشر هذه الارجوزة ما يبدو عادةً للكاتب بعد نشرهِ عُجالةً أملتها عليهِ حوادث مخصوصة فرأيت ان الذين قصدتهم فيها بالذات هم المحافظون على العوائد القديمة . وان حضّي فيها على مراعاة الاعتدال للفريقين الرجعيّ والعصريّ قاصر على ما ورد في

ختامها من النصح العام دون ان اذكر شأناً من الشؤون الاجتماعية التي يجب على هذين الفريقين مراعاة الاعتدال فيها

ولا يخفى ان التوسع في حضّ فريقٍ على الاعتدال والايجاز في حثّ الآخر عليهِ مع تساوي حاجتهما اليهِ قد يحتمل التأويل على غير الوجه المراد . سيما واني رأيت اكثر الناشئة في هذا العصر يتهافتون على كل جديد سارًا كان او ضارًا ويتّقون كل قديم ويذمونهُ مهما كان صالحاً ومفيداً . ومعلوم ايضاً ان الاجمال في ذكر الشؤون الاجتماعية دون تعيينها وبيان ما يقتضيه كل منهـا لا يشفي غلة صاد بل قد يذهب كصرخةٍ في واد او نفخةٍ في رماد . وان الصراحة من اول واجبات الباحثين في الاجتماعيات كما قال العلاَّمة جون ستيورت مل « ان العاهات الاجتماعيـة كالأمراض البدنية لا سبيل لمن اراد شفاءها او الوقاية منها الاَّ التكلُّم عنها بصراحة لا يشوبها كتمان »

فجعلت افكّر في وضع ما شرعت فيهِ على وجهٍ اوضح واكمل ونظام أوسع واشمل بحيث يتناول كل ما فيهِ تطرف من الاجتماعيات واحدةً فواحدةً وان اتولّى منها الأولَ فالأولَ ما عظمت اهميتهُ وثبتت اعمّيتهُ فهداني الله الى اختيار « الرقيّ والاعتدال » رأساً عاماً يشمل جميع ما لزم التنبيه اليهِ من المسائل الاجتماعية التي من هذا القبيل وجعلت « الفتـاة » في مقدّمتها لأنهُ لا أهمَّ من النظر في احوالها ، ولا أعمَّ من نتائج اصلاحها واهمالها

ومن ثمَّ عمدت الى نظم ارجوزة جديدة عن الفتاة العصرية في قالب رواية مختصرة صوَّرت فيها تناهي الفتاة الغربية في الحرية لتكون عبرةً للفتيات الشرقيات وتحذيراً لهنَّ ولأولياء امورهنَّ من الترجل الذي عمَّ البلاد الغربية ولا يزال ينبعث منها كل يوم الى الشرق حتى انبثَّ وفشا في بعضهِ

ولما كان المقصود من هذه الرواية تمثيل صورة الترجل الغربي كما هي وجب عليَّ أن اجعل حوادثها مطابقة لما هو جارٍ منهُ في تلك البلاد فاتخذت دليلي في هذا السبيل مجموع ما قرأتهُ من الروايات الغربية في الترجل وما ورد عنهُ في غيرها من الكتب والجرائد وما سمعتهُ من ثقات الغربيين أنفسهم ولزمت الاعتدال في كل ما يمسُّ كرامة الجنس اللطيف ثم ختمتها بنظم ما جاء في الكتاب عن المرأة الفاضلة . اما اختياري الشعر دون النثر في وضع هذه الرواية فهو اولاً لتسهيل حفظها على المتعلمات ولذا علَّقت عليها شرحاً وجيزاً لبيان ما يعسر عليهنَّ فهمهُ . وثانياً لأن في كل رواية من هذا النوع معاني شعرية اذا وُضعت في القالب الشعريّ الذي يلائم طبيعتها ادَّاها كما هي وأكسبها من حسن التأثير ما يقصر النثر عن تأديتهِ او قد يحيله الى غير غايتهِ

واذا لاقَ بالشاعر العظيم الالماني « كوت » ان يعترف بعدم ذكره شيئاً في روايته الشهيرة « فوست » الاَّ قرأه أو رآه أو سمعهُ

كان مثل هذا الاقرار لقاء روايتي الضئيلة أولى ، وعلى عجزي أصدق ولعذري أجلى

و بعد ان اقتصرت على نظم هذه الرواية وذكرت في ختامها على لسان من أسندتها اليه عدم ميلي الى ابداء رأيٍ من عندي في التناهي لكي أخلص من تبعة ما رويت لا عليَّ ولا ليَ تقاضاني النظام الذي اخترت الجري عليه وأشرت آنفاً اليه ان أزيد القارىء تمكناً من موضوع الارجوزة واطلاعاً على ما يُلمُّ بها لان الترجل وغيره من ضروب التناهي نتيجة أسبابٍ لا تتمُّ الفائدة الا بذكرها ومعرفة طرق توقّيها وتلافي تأثيرها . ولذا عقدت لهذه العلل قسماً خاصًّا يشتمل على ستة فصول من النثر عنوانها « بحث في تهذيب البنات الحاضر ونتائجه من الوجهتين الاجتماعية والاخلاقية » نبَّهت فيها الى ما خلته نقصاً شائعاً أو علاجاً ناجعاً أو غير ذلك مما دلني عليه اختباري في هذا الفن الذي

قضَّيتُ فيه شبيبةً لم تشتغل عن حبِّهِ بغنًى ولا بتصابي

وجعلت هذا البحث القسم الاول و « رواية الفتاة العصرية » القسم الثاني من كتاب « الفتاة » التي هي الحلقة الاولى من حلقات « الرقي والاعتدال »

ومن تأمل في اليقظة الفكرية الحاضرة المقترنة بتهذيب الفتاة وما يحوم حولها من الاقتراحات وتأمل من الجهة الاخرى في روح العصر

الحاضر وما يشعُّ عنهُ من قوة ونور باهرَين وما يلازمه للأسف من تناهٍ وفسادٍ ظاهرَين حكم لأول وهلة ان هذه النهضة الفكرية لا بدَّ أن تخرج الى حيّز العمل بفعل هذه العوامل العصرية . ومن ثمَّ كان ما يخشى منهُ ويجب ان يُستعدَّ لملاقاته في المستقبل هو الاندفاع الى الافراط لا البقاء على التقصير في تهذيب البنات ولذا لم أتعمَّد اظهار فضل تعليم الفتاة والحثّ على ترك التقصير في تهذيبها الاَّ ما جاء من ذلك تمهيداً لاظهار وجوب الاصلاح في الفصل السادس أو جاء لماماً لقرينةٍ ما ببقية الفصول . وانما توخَّيت الاسباب التي تخرج بنا عن الاعتدال في تهذيب البنات وذكر نتائج تلك الاسباب ثم حثَثت على مراعاة الاعتدال في هذا التهذيب وبيان الطرق التي تقوم بها هذه المراعاة

ولا يخفى ما يرتبط بسلسلة التناهي من الحلقات الثقيلة الاوزار، التي ترسف بها شؤوننا الاجتماعية والادبية في اعمال وأقوال وعادات وافكار، وما ينخرط في سلك الاعتدال الذي هو مناط التوفيق ورباط الرقيّ الوثيق من اللآلىء الكبار، فاذا اختار الله يراعي الضعيف لمواصلة السعي في هذا المضمار، واعانني على ما يعترضني فيه من عوائق الاستمرار . لا البث ان شاء الله تعالى ان أُتبع هذه اللؤلؤة بلآلىء كثار، مستمدًّا في جميعها من آيات الله البينات وعلم العلماء الثقات ما يؤمَن معهُ العثار

حديث عامر

او

نقد في منار

ينطوي على مطالب شتى صدارها الرقي والاعتدال

أيها القارىء العزيز

هذه المقدّمة التي قرأتها أنت بتجلدٍ وتصبر كتبتها أنا بارتياح وانشراح يوم أعددتُ هذا الكتاب للطبع . فقد طالما تطلعت قبل انجازهِ الى هذه النهاية تطلُّعَ أيوب في قوله « أطلقني لأفرح كالأجير بانتهاء يومهِ » وذلك لأسبابٍ منها ما لا يخفى على كل أديب لبيب يرى من سوق الأدب ما أراه ، ويخشى ما أخشاه ، ومنها عدم امكاني مباشرة هذا العمل بما يستدعيهِ من تأمل وروّية ، الاَّ في اثناء عطلتي القصيرة السنوية ، التي تمرُّ كحسو الطائر ، وصرفُها في الراحة أولى منهُ بين المحابر والدفاتر ، ولكني ما كدت أنتهي من هذه المقدمة حتى خطر ببالي أمر ذو بال ضاق له صدري بعد ان أثلجهُ الأمل بالنهاية وهو ان هذه الفاتحة لا تُغني عن توطئة عامة تكشف للقارىء النقاب عن

محيًا امّ الابواب وهي « الرقيّ والاعتدال » وتُمهّد له ما بُني عليهما من الحقائق فيما سوف يتلوه بهذا الكتاب وما يتلوه . وبينا أنا أتدبر ذلك وأقلّب وجوه الرأي لاتمامهِ أخذتني سِنة رأيت وسمعت فيها اموراً شتّى توسمت منها توطئةً لا بأس بها بالرغم مما اقتضاه النقد والرد من تنوّع واستطراد . فمنها ما هو خاص بالاجتماعيات وله صلة بالفتاة او بما يليها من الحلقات ومنها ما كان اتصاله بالأدبيات او غيرها اكثر منهُ بالاجتماعيات ولكنهُ على كل حال لا يخرج عن دائرة الرقيّ والاعتدال . ولذا لم يسعني الاّ المبادرة باثباتها فيما يأتي على علاّتها وأنا أستميح سماحك في هذا الاختيار وأستزيد تجلدك واصطبارك على ما تعدّى منهُ حدّ الاختصار فلعلّ بهِ ما تحمد معهُ صبرك ولا يخالف ذوقك وفكرك

وليسمح لي القارىء أن أضيف كلمة اخرى الى اعتذاري قبل شروعي في ذكر هذا المنام وهي : لعلّي أول من استعان بمثل المنام الآتي على انتقاد ما كتبهُ والرد على انتقاده ولكني أقدمت على ذلك لا لغرضٍ ذاتيّ بل طمعاً في تمحيص المبادئ وانجلاء صحيحها وفاسدها بالنقد والرد واعتقاداً بأن كل كاتب أدرى من غيرهِ بأغراض وأوضاع ما كتبهُ وما كنت لأعيب لغرضٍ ما مبدءا صحيحاً فائدته ظاهرة ، او أستحسن عملاً معيباً تتألم منهُ النفوس الطاهرة ، فاذا رأى القارىء بهذا الحديث ما يشفّ عن ميلٍ لغير الحق او ما يؤخذ منهُ تمدّح في

دفاعي عنهُ فهذا ما لا أقصده البتّة ولا سيما الاخير فأملي ان القارىء المنصف يربأ بي عنهُ لأن العاقل من لا يزدهيهِ قلمُه ، ومن « يمدحهُ الغريب لا فمُه » . أما ما أوردتهُ في هذا الحديث وغيرهِ من شعري القاصر مميزاً اياه بما يدل على انهُ لي ليقيني بأن المقام يقتضي ايراده وتمييزه فأرجو أن المدة الماضية التي داومت فيها على نشر ما كتبتهُ بدون مميّز تشفع لي فيما أقدمت هنا على ذكره وتمييزهِ من أشعاري وتبيّن ان غايتي في نشرها أولاً وأخيراً انما هي خدمة الوطن وحب القريب لا لأمدح بها نفسي ولا ليمدحني الغريب . أما المنام فهو ما يأتي :

رأيتُني في دارٍ رحيبة دلَّ ما فيها من فراش ورياش على ان صاحبها من اعلام الأمة ذو جاهٍ عريض وثروة جمّة . ورأيت هذا السريَّ جالساً في صدر بهو فسيح وعلى يمينه شيخ ذو هيبة ووقار وهو من الذين أنمّوا علومهم بفرنسا في احدى البعثات الأولى وجيء بهِ من عهدٍ قريب ليتولى تكميل تهذيب ابن السريّ . ورأيت على يسار السريّ جاراً له متوسط العمر يمتُّ له بقرابة ولذا يكثر التردد الى منزله وهو مولع بمطالعة الروايات الغرامية والجرائد اليومية ويرتاح السريّ لمحادثتهِ لما يوافيهِ بهِ من الاخبار وما يرويهِ له من النوادر والاشعار . ورأيت بمعزل عنهم شاباً يبلغ من العمر نيّفاً وعشرين عاماً ذا ذكاء مطبوع وحياء بلا خنوع عرفت انهُ ابن صاحب الدار، وتلميذ الشيخ ذي الوقار . ورأيت كأن هذا الكتاب قد طُبع وانتشر وكأن

نسخةً منهُ في يد ذلك الفتى وقد قرأ منها المقدمة على مسامع الحضور وما أتمَّ تلاوتها حتى دار بينهم الحديث الآتي : —

* * *

الانتقاد والاعتدال — بواعث النقد الصحيح واسلوبه —
الوسيلة والغرض والجوهر والعرض — « ورضى
البرية غاية لا تدرك » — « ارم خبزك
على وجه الماء »

جار السرى — قال لي صديق يُرحل اليهِ في علوم اللغة العربية وحلّ مُعضلاتها انهُ تصفح هذا الكتاب فاذا مؤلفه لا يستقرُّ في كتابتهِ على اسلوبٍ واحد فتراه تارةً يترسل وطوراً يسجع وآونةً يحوم حول الفِقَر الجزلة واخرى يأتي بالعبارة السهلة فكأنهُ حاول كل الاساليب ولم يفُز من السداد في احدها بنصيب

الاستاذ — لعل مؤلفه أراد بهذا التنويع أحد أمرين : إما لتفهمه العامة ولا تنكرهُ الخاصة فيرضيهما كليهما أو ان يقرن لقرّائه التفقهة بالتفكهة فيسلم من دواعي الملل ولعله أراد الامرين معاً . ولا اعتراض عندي على من توخى ذلك اذا راعى فيهِ الاعتدال وسلمت عبارته من التعقيد وتجافى (ولا سيما في نثره) عن الالفاظ العويصة التي تضطرّ القارىء الى البحث عن معانيها في متون اللغة . أما الخطأ فلا يسلم منهُ كاتب لكنهُ يتفاوَت ، وما كان يدعى الانسان

ضعيفاً لو تنزهت العقول وتساوَت

ومهما يكن مراد الكاتب بما أتاه من التنوّع في عبارته فلي في هذا المقام كلمتان يقتضيهما الاعتدال : أُولاهما عامّة في الانتقاد مطلقاً والثانية خاصة بصاحبك ومَن جرى مجراه من نقّاد اللغة

أما الكلمة العامة فهي ان اكثر طرق الانتقاد المتبعة في بلادنا ليست من الاعتدال في شيء . فالاعتدال في النقد لا يقوم الاّ بتوفر أمرين احدهما ان يكون الباعث له مجرد الرغبة في اصلاح فساد او تقويم مناآد عملاً بأمر الكتاب وتخلصاً من وعيده في قوله « من عرف ان يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطيئة له » فاذا صدر الانتقاد عن غير هذا المصدر الحلال والينبوع الزلال تحتم ان يتلطخ بأدران الغايات الذاتية والاهواء الدنيـة كتحري عيوب الغير حباً في الظهور والتفوق او ارادة التنديد بهم والانتقام منهم وصحَّ ان يسمى صاحبه متبجحاً لا ناصحاً وناقّاً لا ناقداً . ولعلَّ هـذا النوع الاخير اي الذي يتتبع العورات لانتهاك الحرمات هو الذي عناهُ احد أفاضل الغربيين بقوله « مِن الكتّاب من لا يصادف في تأليفهِ نجاحاً ونهوضاً فينقلب ناقداً ناقّاً عضوضاً »

الامر الثاني الذي يقوم بهِ الاعتدال في الانتقاد ويأمَن بهِ الناقد تائج التطرف والضلال هو حسن اختيـار القالب الذي يصوغ نقده فيه فقد يكون الناقد مخلصاً في النقد سليم النية والقصد ولكنهُ سيء

المنزع ثقيل الوطأة في نقدهِ ولذا أوصي المؤمن ان يُصلح خطأ غيرهِ « بروح الوداعة » وممن كانوا يحرصون على اتّباع هذه القاعدة العلامة ستيورت بلاكي الاسكوتلاندي فقد كان شعاره المرقوم نصب عينيه فوق مكتبه هو « قُلِ الحقَّ بروح المحبَّة » وعليهِ فالانتقاد الذي يكون باعثه النفع العام وحليفهُ اللطف والاحترام هو نبراس الهدى ومعلّم السداد والكمال بل هو أعظم اركان الرقيّ والاعتدال والعكس بالعكس . ويجب على من توجَّه اليه هذا الانتقاد العادل ان يُحلَّهُ من اعتبارهِ أحسن محل وبذا يدلّ على انهُ من أهل الفضل الذين يلبُّون نداء العدل فيما عليهم كما يحبونهُ فيما لهم ويصدق عليهِ القول المأثور وهو « اذا كان المظهر الغلط عظيماً كان المعترف بغلطه أعظم » . ولا أرى ان اتعدى في هذه الكلمة العامَّة هذا الحدّ فاسمح لي اذاً ان انتقل الى كلمتي الثانية التي وعدتُ بها وهي الخاصة بصاحبك ومن جرى مجراه من نقّاد اللغة العربية

ان لغتنا العربية ليست فقط عزيزة على كل شرقيّ لما ارتضعهُ من حبها وألِفَهُ من ألفاظها مذ كان في المهد او لما نقلت الى فهمهِ من أوامر الله ومناهيهِ في كتبهِ المنزلة عربيةً كانت او معرَّبةً بل لما لها ايضاً في ذاتها من الحكمة والخصائص الباهرة فهي قابلة بما خُصَّت بهِ من بديع النعت ولا سيما التعريب والاشتقاق والنحت لأن تصير بقليل من العناية سيدة اللغات العصرية ، وهي لعمري بذلك حَرية ،

والأحرى بأنصار الرقيّ والاعتـدال ان يبادروا بفك تقييدها ، من رقّ تقليدها . بيدَ أني مع شغفي بها وتفضيلي ايّاها على سائر اللغات واعجابي بفرط غناها وجمال مبناها وحرصي على مراعاة قواعدها وجمع شواردها لا أرى بُدًّا من الاقرار بانهـا ليست في هذا المقام سوى آلة يستعين بهـا الكاتب على ايصال ما عنّ له من الحقائق لأفهام مَن يهمهم كلامهُ ولذا كانتْ نسبتها من هذا القبيل كنسبة الوسيلة الى الغرض ولا نأثم اذا قلنا إن الحقائق الجوهر واللغات العرَض . واقلُّ ما يُجنى من الفوائد الناتجة عن اشهار هذه الحقيقة وتجريدها من الأوهام تنشيط أُولي التفكير والاختبار الذين لم يُرزقوا الاجادة في الكتابة بهذه اللغة الى أن يعرضوا ما يكتبونهُ على المجيدين فيها دون أن يلحقهم أدنى عار من الاعتراف بفضل مَن اعانهم فيما يجهلون وبذا لا يُحرم الناس فوائد ما يحسنون . ومن الحِكم المؤيدة لصحة هـذا الرأي ما ذكرهُ الدكتور شبلي شميل في اول الجزء الثاني من مجموعتهِ وهو ما يأتي :

« ان اليوم الذي ينصرف الانسان فيهِ عن تنميق الكلام الى اتقان العمل هو اليوم الذي تتقوَّم فيهِ طباعه فتقلّ سخافاته ويكثر جدّه وينقص رياؤه وينشط من الذلّ ويرتقي ارتقاءً حقيقياً ويحقُّ له حينئذٍ أن يعدَّ نفسهُ انساناً »

ومن جوامع الكلم « لمحة نصيحة خير من كلمات فصيحة » ولكنا

مع علمنا بوجوب هذا التفضيل قد اعتدنا ان نقصر انتقادنا على الالفاظ ونضيع الوقت الثمين في نعتها وتأويلها وذكر أصيلها ودخيلها وحيّها ومنعيّها وجزلها ووحشيّها . ثم اذا جرى الكاتب في كتابتهِ للخاصة والعامة على طريقة واحدة دائمة او راعى فيها ما يلائم الافهام والاذواق والمشارب كان الانحاء عليهِ باللائمة في الحالين ضربة لازب . وبهذا أصبح ارضاء الله مع جلالة شأنه ، وواسع علمه وعلوّ مكانه ، أيسر كثيرًا من ارضاء الناس مع ما جُبلوا عليهِ من الضعف والتقصير

قد يُدرك الساعي لباريهِ رضىً ورضى البرية غاية لا تُدرك

وصاحب الكتاب ما كان ليشذّ عن هذا القياس فما عذل صاحبك له فيما توخاه الاّ جزاء من حاول ان يرضي جميع الناس

جار السرى (للاستاذ) — ماذا تعني بالجزاء ؟ أتريد ان مصير هذا الكتاب مصير الدابة التي يئس صاحبها من ان يرضي احداً بركوبها هو وابنه او قَودها دون ان يعلوها احدهما فطرحها في اليمّ ليخلص من الانتقاد والذم ؟

الاستاذ (للجار) — مرادي ان من حاول ان يرضي جميع الناس كان جزاؤه انتقادهم عمله وذمّهم اياه . أما هذا الكتاب فلا يمكن ان يُطرح الاّ في احد بحرين إما في بحر الخسارة المادية وهذا خطبهُ يسير او في بحر الخسارة الادبية وهذا من خاصيتهِ ألاّ تضيع فيهِ المقاصد الحميدة والمطالب المفيدة وهو البحر الذي عناه الحكيم بقوله « ارمِ

خبزك على وجه الماء فانك تجدهُ بعد أيامٍ كثيرة » فيجدر اذاً بكل كاتب يرغب في افادة بني جنسه ابتغاء مرضاة الله وخدمة وطنه العزيز ألاّ يولّي وجهه إلا شطر الواجب متمثلاً بهذين البيتين :

يَراعي اذا ما راعك الدهرُ لا ترتَعْ
وفي غير روض العلم والفضل لا ترتَعْ
وحسبك ما يُجزَى بهِ المخلصون انـ
ـما يحصد الانسانُ من نوع ما يزرَعْ (*)

***

مزايا الشعر — الاعتدال فى الشعر والتطرف فيه —
شعار الشاعر — الارتياح للشئ الحسن من
مكتسبات التهذيب العقلى — الاعتدال
فى ذكر الحب وعواطفه

جار السرى (للاستاذ) — أما رأيت كيف يتهافت صاحب الكتاب في نثره على التمثل بأقوال الشعراء وأنتَ تعلم انهُ تصدَّى لبحثٍ لا يحتمل من الشعر شيئاً فما مثلهُ عندي الاّ مثل تلميذ رأى وهو ذاهب لمدرستهِ فراشةً ذات ألوانٍ بديعة فأعجب بها وأمعن في

(*) ذكرت فى نهاية ما اوردته من الابيات فى هذا الكتاب اسم الشاعر الذى تنسب اليه الا ما كان منها غفلاً لا يعرف قائله او ما لم يحضرنى اسم صاحبه . أما ما كان من نظمى فميزته فى نهايته بهذه العلامة (*)

طلبها ولم يلبث ان انصرف باقتفائها عن قصدهِ وانتقل من الجد الى ضدهِ

الاستاذ (للجار) — من الشعر نفثات لشعراء عديدين مُجيدين قد انبعثت عن قلب شريف العواطف ومخيّلة صادقة التصور فمثل هذه النفثات انما يملُّها مَن لا يتأملها ومن خصائصها انها تذكّر الناسي، وتليّن القاسي، وتُحدث في كل نفسٍ صحيحة الشعور، أثراً لا تمحوه الأعوام والدهور، وترسم فيها الحقائق على منوال يعجز عن مثلهِ الكلام المنثور. واذا كان الشعر ملائماً للغرض ومناسباً للمقام بحيث تحلُّ ابياته محلها الذي لا تصلح الاَّ لهُ ولا يصلح الاَّ لها انطبق عليهِ تشبيه الحكيم في قوله « تفاحة من ذهب في مصوغ من فضة كلمة مقولة في محلها »

والتصور أهم مميزات الانسان عن غيرهِ من الحيوان فهو الذي يرفع نفسه من الثرى الى أعلى الذُرى. ألا ترى المهذَبين من الغربيين رجالاً ونساء قد جعلوا الشعر أهمّ مطالعاتهم الخصوصية وقلما سافر احدهم دون ان يستصحب مؤلَّفاً لنابغة من شعرائهم للتأمل فيهِ إما تثقيفاً لعقله او علاجاً لنفسه او ترويضاً لخصاله؟ فلماذا يا ترى لا نرحّب بالشعر فيما يقتضيهِ من الشؤون والاحوال ولِم لا نستعين بهِ عند الحاجة على فصل الحقيقة من المحال والهدى من الضلال

على ان الشعر عندنا من اكبر مواطن التطرُّف ونحن أحوج الورى الى مراعاة الاعتدال فيهِ لأن الشرقي منذ القديم أغنى الناس

شعراً وأوسعهم خيالاً وبالنتيجة أقربهم فيهِ الى الشطط . ولا يخفى ما يتخلل بعض أشعارنا من المبادىء والآداب التي لا يصحّ نظمها فضلاً عن نشرها وعدا ذلك ترى كثيراً من الأدباء يبلغ بهم الافراط الى ان يتهافتوا على ايراد الشعر في كتاباتهم جزافاً وانشاده في مجالسهم لداعٍ ولغير داعٍ وآخرين يبلغ بهم التفريط الى ان يتجافوا الشعر إما جهلاً بمزاياه او خوفاً مما عسى ان ينسبهُ اليهم الغير من ولوعٍ بهِ او تضاربٍ بين هزله وجدّ البحث كما نسبتَ أنت ذلك لصاحب الكتاب ولذا يجب علينا ان نراعي الاعتدال فيما ننظمهُ من الشعر وفيما نتمثل بهِ منهُ وان نقدّره قدرهُ وننزله منزلتهُ التي يستحقها من الحفظ والدرس . ولا بأس من ان نختم كلامنا في هذا الموضوع بما نُظم فيهِ من النصائح ثم أنشد :

[شعار الشاعر الفضيلة]

للمعالي لا للظباء العِينِ ... قد توالى شوقي وطال حنيني
ليس يُجديني ذكرُ لحظٍ وخدٍ ... لبدورٍ عَلَتْ قدودَ غصونِ
او وقوفٌ على ديارٍ أُحيلت ... مذ تولَّت سكانها بالظعونِ
فعلامَ نُعنى بنحتِ القوافي ... نتباهى بلفظها الموزونِ
نتوخى لهواً قصير مداهُ ... ما تعدَّى الى فؤادٍ حزينِ
كم نُذيل القريض فيما يؤدي ... للتصابي وللهوى والجنونِ

أبهذا نَهدي فتىً وفتـاةً ... للعُلى والعفافِ والتحصينِ
وسوانا أمُّوا كنوز المعالي ... واستخاروا من درّها المكنونِ
واستفادوا منها هدًى وارتقاءً ... وشفـاءً لكلِّ داءٍ دَفينِ
عزَّزوا بالقريض فضلاً ونُبلاً ... وبهِ حطُّوا كل فعلٍ مَشينِ
وأعانوا بهِ رجالاً على خَوْ ... ضِ غمار العُمران والتمدينِ
فمن الشعر مهملاتٌ ومنـهُ ... مُلهماتٌ أحقُّ بالتدوينِ
وإلَهُ القريض ليس كما خا ... لوا سخياً بالوحي والتلقـينِ
من يَسُمْهُ وحياً لغير المعـالي ... والهدى والاصلاح والتحسينِ
عاد صفراً ان كان ذا عفَّةٍ أو ... لاذَ بالبُطل وارتضى بالدونِ (*)

الجار (للاستاذ) — ينتج مما انشدت ان الشاعر الذي يُطلب منهُ ان يجعل هذه الابيات شعارَه ويقصر على المعالي والهدى اشعارَه لا يباح لهُ ان ينظم شيئاً عن بدائع الطبيعة ومحاسنها أو عن الحبّ وادواره ومذاهبهِ وما يخالج قلب صاحبهِ

الاستاذ — أما بدائع الطبيعة ومحاسنها فهي حقائق شريفة لا تنافي المعالي والهدى والاصلاح بل استحسان الحسن فرع من فروع التهذيب العقلي . فلو عرضنا على كاتبٍ أو أديب من الادباء هذا الخط مثلاً (قال هذا مشيراً الى عنوان هذا الكتاب) ثم عرضنا عليهِ بعدهُ خطاً آخر لا طلاوة عليه ولم تُقَم حروفه وسألناه ايهما افضل واجمل فتساوى كلاهما في نظرهِ واجابنا انهما سيّان لحكمنا لاول وهلة بأن

هنالك نقصاً في تميزهِ ولهذا وامثالهِ قيل « من لم يهزُّهُ العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المِزاج» . وقال الاستاذ ستيورت بلاكي في كتابه تهذيب الانسان نفسهُ : ان أهم الكمالات العقلية التي يجب على كل ذي عقل ان يتجمل بها هو تميزه بين الحسن والقبيح وارتياحهُ للاول واستقباحهُ للثاني . أما نظم جميع ما تلزم معرفته والتأمل فيه من شؤُون الحبّ وأحواله فهو أيضاً لا ينافي المعالي في شيء طالما روعيَت فيهِ العفَّة وعُفّ فيهِ عن الخلاعة التي لا يُجنَى منها الاّ تلذيذ الحواسّ واثارة الشهوات الحيوانية والانغماس فى الدعارة . على ان هذا لا يمنع الشاعر من أن يذكر في أشعارهِ كل ما يُستظرف من الفكاهات التي لا يُرتاب في حسن تأثيرها ولا يُستحيا من ذكرها . والخلاصة ان المعالي والهدى والاصلاح والتحسين يراد بها هنا كامل معانيها التي تنطوي على كل أمرٍ حميد ومفيد

(صاحب الرؤيا) ما كاد ينتهى الاستاذ من كلامه حتى دخل الحاجب ويده بطاقة وضعها امام السرى فقرأها وقال للحاجب : « قل لحضرته تفضل على الرحب والسعة » فخرج وأقبل بعده شاب فى الثامنة والعشرين حسن الهيئة نصف القامة بادية عليه الوداعة والبراعة فاتجه نحو السرى فصافحه وبعده صافح بقية الحاضرين وكان يعرفهم جميعاً ما عدا الاستاذ ثم جلس قريباً من السرى

***

المبادىء العصرية والرجعية — فكاهة فى كراهة —
العنكبوت والنحلة — خطبة ادبية

السرى للاستاذ — اعرّف حضرتكم بـ . . . . دكتور في الطب قد أتم علومه بانكلترا وهو صديق ابني واشهد انهُ من الذين تفتخر بهم مصر فانهُ لم يخسر بتعلّمهِ في اوروبا شيئاً من اعتداله — (ثم عرّف الدكتور بالاستاذ واثنى عليه بما هو اهله)

الاستاذ (للسرى) — قد طالما سمعت عن جناب الدكتور وسجاياه المستحبّة وتاقت نفسي للتعرّف بهِ — (ثم تبادلا التحية)

الدكتور (لابن السرى) — ما هذا الكتاب الذي في يدك ؟

جار السرى (للدكتور) — هو كتاب ارتجاعيّ يريد صاحبه الرجوع بنا الى القديم وقد أبى الاستاذ الاّ متابعته والانتصار له

الدكتور (للجار) — وكيف عرفت ان الكتاب ارتجاعيّ

الجار — كنت اذا قرأت فيما مضى نظرية غالط صاحبها في اثباتها انقدتُ لمتابعتهِ واعتقدت صحة مقالتهِ دون ان أتثبت وجه برهانهِ ولكني منذ درست مبادىء المنطق والفلسفة العقلية ما اطّلعت على نظرية من هذا القبيل الاّ لمحت لأول وهلة ما فيها من الحجج

الواهنة والاقناع الفاسد وشفَّ لي من ورائها الغرض الذي يرمي اليهِ الكاتب قبل اتياني على بقية كلامهِ . وبديهي ان التمدن الغربي قد بلغ غاية ما يمكن الوصول اليهِ من الرقي ولكن ما قرأت مقدمة هذا الكتاب حتى رأيت ان هذا التمدن لا يُرضي كاتبهُ اذ يرى بعضه ضارًّا ببلاده فتوسمتُ رجعيته من معاريض مقدمته ثم دلَّني ما طالعتهُ من بقية الكتاب انني أصبت بظني شاكلة الصواب

الدكتور — لعلَّ معرفة مبادىء الكاتب وفحصها من نفس كلامه لا يحتاجان الى الرجوع للعلمين الذين ذكرتهما

ابنه السرى (للأبيه والحاضر بينهم) — لو أذنتم لي — وخصوصاً حضرة الدكتور — أسمعتكم ختام الأرجوزة التي أشار اليها الكاتب في المقدَّمة فذلك الختام هو فيما أرى أدلّ من غيره على مبادئه وأقرب لفحصها (قال ذلك وهو ينظر الى الدكتور من طرف خفي ويحاول ان يخفي ابتساماً لا يقوى على اخفائه وقابله الدكتور بابتسامٍ مثله مشوباً بشيء من السخط والتهديد)

السرى (لابنه وقد لمح منهما ذلك) ولماذا تطلب خصوصاً اذن الدكتور

ابنه السرى (وقد أطرق حيناً ولم يرَ مناصاً من ذكر السبب) ذكرت ان الدكتور لا يطيق سماع الأشعار فانهُ بعد ان اشتهر بالمقدرة في فنون الأدب ولا سيما نظم القريض وحفظ اشعار العرب

بُليَ في فترة من حياتهِ بمعاشرة بعض المولعين بانشاد الاشعار الذين لا يفرقون بين الحسن منها والقبيح ، ولا يسكتون عن انشادها وان سكتت الملائكة عن التسبيح . ومن ذلك الوقت نشأت عنده الكراهة للشعر بحيث لو أراد مُناظِرهُ اذعاناً منهُ لرأيهِ لما احوجه ذلك الى اكثر من انشاد بيت واحد . ومما اتفق لي مشاهدته من هـذا القبيل ان جناب الدكتور جاءنا يوماً ونحن في مجلس من الاخوان وكان رابطاً اصبعه برفادة فسأله صديق له اعتاد ممازحته ما هو سبب تلك الرفادة فاجابه ان اصبعه توٴلمه ويخشى أن يصاب فيها بداحس فقال صديقه مداعباً قرأت في ارجوزة طبية قديمة ما يأتي :

مَن خاف يوماً أن تصاب إصبَعُهْ بداحسٍ وشاء فوراً يمنعُهْ
عليهِ أن يُنشد في الأصيلِ خمس قصائدٍ من الطويلِ (*)

فلم يكد ان يُتمّ البيت الثـاني حتى نزع الدكتور الرفادة وقال شُفيت والحمد لله فلا حاجة لوصف الدواء ، وكفى بالشعر داء

السرى (**ضاحكاً**) — هذا أمر يتمنى أخصام الدكتور معرفته والاستفادة منهُ ولكني لا إخالهُ الاَّ مازحاً في هذا كلهِ فلا بأس عليك منهُ وانشدنا الختام الذي وعدت بهِ ان كنت تحفظهُ

الدكتور (**منجلداً ، لابن السرى**) — نعم دونك ومـا بدا لك ولا تُسيء بي الظن لهذا الحدّ فالرجز اخو النثر على كل حال

ابن السرى — بعد ان ضرب الناظم مثلاً للمقلد المحافظ على

عوائدهِ القديمة بالعنكبوت وطبيعتها وضرب ايضاً مثلاً بالنحلة وغريزتها للمجتهد الذي يختار النافع من كل عصريّ وقديم قال مفسراً :

العنكبوت رمزُ كلّ مُحجمِ عن طلب الاصلاح والتقدمِ
راضٍ بالاستعباد والتقيدِ لباطل العادات والتقليدِ
ومُولعٍ بفكرةٍ قديمهْ تُفضي الى التأخير والهزيمهْ
تبدو متينةً لديهِ راهنهْ وهي كنسج العنكبوت واهنهْ
وكلّ ما في عصره استجدّا وللعيان نفعُهُ تبدّى
رآهُ معْ نفعهِ أمراً إدّا ودامَ في قديمه مجدّا
والنحل رمزٌ لأولي الرشادِ الطالبي التحسين باجتهادِ
الدائبين في آجتنا الفوائدْ وفي ارتقا الافكار والعوائدْ
المقتفين الخير أينما وُجدْ مُغضين عمّا قال فيهِ المنتقدْ
وليس يرضَون بالانقيادِ لفكرةٍ تُعزَى الى الأجدادِ
ما لم تكن خاليةً من نقصِ وفضلُها بدا لهم بالفحصِ
شِعارهم بالفعل لا الكلامِ نرقى وبالوئامِ لا الخصامِ
بالاتحادِ ليس بالتبديدِ بالاجتهادِ ليس بالتقليدِ
بالبحث في القديم والجديدِ عن الصحيح الثابت المفيدِ
وهو شِعار النصر والتأييدِ ومنهج التوفيق والتسديدِ

الاستاذ — انا لا انزّه الكاتب عن خطإٍ في الحكم او وهمٍ في الاعتقاد فقد خُلق الانسان ضعيفاً ، ولا انا ممن يتابعونهُ في رجعيتهِ

اذا كان رجعياً كما يدّعي حضرة الأخ (الجار المنتقد) ولكن هذه الأبيات التي تُليت علينا وان اشتملت على غرض الكاتب من وجهة مخصوصة يُشكَر المنتقد على إلفاتنا لها ألا وهي وجوب اختيار الحسَن النافع في كل جديد وقديم فقد سبق صاحبها فنبَّه عنها انها نُظمت منذ بضع سنوات وانهُ اختار من عهد قريب لمبادئهِ ثوباً قشيباً سمّاه «الرقيّ والاعتدال» وهما لفظتان لم يرد ذكرهما في هذه الارجوزة القديمة وان افادهما ختامها ولم يستخلصهما الكاتب الاّ منهُ. فاذا شئتم حضراتكم أن تسمعوا أحدث ما كتبهُ في هـذا الصدد من خطيبة لا يُمَلُّ لها حديث فليأذَن سعادة السريّ لصغرى كريماتهِ فتتلو علينا نبذة نشرهـا صاحب الكتاب في احدى الجرائد تمهيداً لموضوعه واعلاناً لكتابه فعثرَتْ هي عليها وأرتنيها فأبدلتُ منها ما لا يصلح للخطابة بما يصلح لهـا ثمَّ ضبطَت عليَّ التلفظ بعباراتها ونبراتهـا واستظهرتها لتتلوها في احتفال امتحانها المقبل

الركتور (للسرى) — مَن الخطيبة؟ أهي فريدة؟

السرى — نعم هي بعينها (وأنفذ في طلبها)

فاذا فتاة صبيحة فى السنة الثانية عشرة من عمرها تلوح عليهـا علائم النجابة والذكاء فوقفت فى وسط المكان وأحنت رأسها مسلمةً كأنها فى موقف الامتحان وانتظرت اشارة والدها لتأخذ فيما دعيت لأجله فأشار لها بالشروع فطفقت تقول :

آفتنا وحاجتنا

حذار من الخطر السارى — الرقى والاعتدال — أبو العلاء
المعرى والرقى — الكمال الانسانى وميزانه — مظاهر
الاعتدال فى الطبيعة وغيرها — المنهج القويم فى
اختيار النافع من كل عصرى وقديم — الوسط
الذهبى — جزاء الاعتدال والتناهى —
« ماذا تعملون فى آخرتها ؟ »

سادتي

ليس بخافٍ عليكم ان أهالي اسكوتلانده كانت تنقسم قديماً الى قبائل متفرقة لكل قبيلة منها رئيس خاصّ بهـا وجرت العادة بينهم انهُ متى لاحت للرئيس طلائع عدوٍّ ذي بأس او استفزَّه طارىء ذو بال عَمَد الى شاة فذبحها وأبلغ القسيس خبر ذلك الطارىء فيحضر ومعهُ عود من الخشب في طرفهِ الأعلى شِعَبٌ طويلة قد أُشعلت فيها النار فيغمس أطراف تلك الشعب المشتعلة في دم الشاة الذبيح ثم يرفع العود بيمناهُ منشداً أبياتاً بالانكليزية تعريبها ما يأتي :

دونكم عوداً تبدَّى بالأيادي يُرفعُ
بهِ رأس القوم يدعو مَن لواهُ يتبعُ
صُمَّت الأذْنُ التي ليْ ست تعي ما يُسمعُ
وأشلَّ الله رجلَيْ سامع لا يُسرعُ (*)

ثم يأخذ الرئيس هـذا العود المتقِد ويسلمهُ لرجل واسع الخُطى سريع الجري فيعدو بهِ لا يلوي على شيء حتى يبلغ المحلَّة التالية وفيها يسلمهُ الى رسول آخر سريع العدو مثله ليوصله الى ما يلي تلك المحلة وهكذا يتداول العود من محلة الى اخرى حتى يطوف بجميع احيـاء القبيلة وكل حيٍّ اجتـاز بهِ تسلَّح رجاله الاشداء وأسرعوا للحضور عند الرئيس وهم على أُهبة تامة لملاقاة كل طارق وطارىء

ولا ريب أيها السادة ان ما يتطرَّق الى آدابنا القومية وشؤوننا الاجتماعية وما لا ينفكّ يتسرَّب اليها من التناهي على سبيل المحاكاة وبحجَّة المدنية والرقيّ وما ينتشر في عوائدنا وشؤون حياتنا من جراثيم الجهل وعدم التربية المضعفة لاجتماعنا والمعوّقة لنـا عن مجاراة الأمم المتمدنة والاستفادة من أنوار العصر الحاضر هي ألدّ الاعداء لسعادة هذه البلاد وعمرانها ، وأفتكها بكيانها ، وأدعاها على خرابها وتقويض اركانها ، وهي جديرة ان تستنهضِ كل همة ، وتستدعي موازرة رجال الأمة ، فمن لا يفزع لغارة هذا العدوّ الأدبي بعد تنبيهـه اليهِ ، ولم يتأهب لصدّه مع الزاحفين عليهِ ، بكل ما أمكنهُ من الوسائل لمنعهِ وقمعهِ عُدَّ خائناً لعهد وطنه كارهاً لسعادة بلاده وصحَّ ان يقال عنهُ ما قيل في الأبيات السابق ايرادها للفريق الذي لم يُسرع لنجدة قومه عند ظهور طلائع العدوّ وحملته عليهم

وغير خاف عليكم أيها السادة ان الرئيس في هذا المثل يطابق

منا الغيرة القومية والضمير الحيّ اللذين يستنفران كلاً منا لصدّ هذه الحملات الأدبية . والرسول يجري مجرى الكاتب الذي يحثُّهُ ضميره على تبليغ خبر العدوّ لقومهِ قبل ان يكبر شأنه و يشتد ركنهُ . وطواف العود المتقد بمثابة طواف هـذا النبأ ونشره على الملا تحذيراً من هذا الخطر الأدبي المحدق بنا . ومَثَل الأبطال المسرعين لحضرة الرئيس مثل الافراد الاحياء من الأمة سراتها ونبلائها وعقلائها، الذين لا يقعدون عن تلبية ندائها ، والأخذ بيدها في مقاومة أعدائها . والسلاح الذي يتدجَّج بهِ اولئك الابطال الاسكوتلانديون يطابقهُ الاعتدال الذي يضمن لمن ادَّرع بهِ الظفرَ في ردّ عادية تلك الشوائب الذميمة طارئةً كانت او قديمة . وكما بُدىء بالسلاح لدى سماع خبر العدو نبدأ نحن أيضاً بذكر الاعتـدال واظهار فضل الاعتصام بهِ لقاء النوازل المشار اليها فنقول :

اذا كنت تبغي العزّ فابغِ توسطاً فعند التناهي يقصر المتطاولُ
تَوَقى البدورُ النقصَ وهي أهلَّةٌ ويُدركها النقصانُ وهي كواملُ

رحم الله أبا العلاء المعري فقد جمع في هذين البيتين ما لم يتسنَّ لشاعر عصري ان يستوفيَهُ في قصيدة طويلة عن الرقيّ . ففي البيت الأول ذكر العزّ — اي الرقيّ — و بيَّن ان طريقة تطلّبهِ وتناولهِ هي التوسط بين طرفي الافراط والتفريط — اي الاعتدال — ثم ذكر

التناهي الذي هو نقيض الاعتدال وأظهر انهُ آفة الرقيّ . وفي البيت الثاني ضرب مثلاً محسوساً لكل ما ذكرهُ وأودع ختامهُ منتهى الفلسفة البشرية وهي قوله عن البدور « ويُدركها النقصانُ وهي كواملُ »

والكمال المحض ايها السادة شأن الخالق كما ان الضعف والنقص شأن المخلوق ومَن حاول ان يساوي المخلوق بالخالق في كماله فانما حاول المحال وجهل معنى الكمال . على ان الله سبحانه وتعالى لم يظلم الانسان شيئاً باعتبار كونه مخلوقاً بل سهَّل له من الكمال الانساني ووسائله ما لا مزيد فوقه لمخلوق وذلك واضح باجلى بيان من قوله عند ابداعه ايَّاه « لنصنع الانسان على صورتنا كشبهنا » ومنذ ذاك قرَّبهُ منهُ بعقلهِ واشركه معهُ في خلودهِ بفضلهِ . فلا عجب اذا تشوَّف الانسان الى الرقيّ واشرأبت نفسه اليه بما لها من دالَّة هذه النسبة الالهية وبطبيعة ذلك الخلود الفسيح الغير المتناهي . ولا بدع اذا بذل اقصى مجهوده في الوصول الى ذروة ذلك الرقيّ وهي نقطة الكمال التي يجدر بكل منا أن يصبو اليها ويقصر همَّهُ عليها

ولما كان ضعف الانسان مانعاً له من معرفة الرقيّ الحقيقي من جهةٍ وكان تناهيهِ الملازم طبعاً لذلك الضعف مانعاً له عن بلوغهِ الغاية الممكنة من ذلك الرقيّ من جهةٍ اخرى هيّأت له العناية لتذليل هاتين العقبتين وسيلتين غاية في الأهمية : احداهما عقليـة وهي العلم والثانية ادبية وهي الاعتدال

فبالعلم الصحيح يقف الانسان على المعلومات العالمية والدينية المتعلقة بمعاشهِ ومعادهِ والنافعة لتحسين احواله الطبيعية والادبية بيدَ انَّ هذه المعلومات على اختلاف انواعها لا تضمن له بلوغ الغاية الممكنة من الرقيّ والكمال الاّ اذا انحصرت ضمن دائرة الاعتدال الادبيـة وخضعت لقوانينهـا فبقدر انحصار هذه المعلومات وخضوعها ترقى النفس في سلّم الكمالات الحسية والعقلية حتى يتكامل تطوُّرهـا وتصوُّرها بالصورة التي ارادها الله لها في قوله تعالى « لنصنع الانسان على صورتنا » . و بقدر خروج هذه المعلومات عن هذه الدائرة الأمينة وبُعدها عنها تذهب بصاحبها الى الهمجية وتتقارب بهِ من التوحش الى ان ينقلب رقيّهُ الى ضدّهِ . ومن ثمَّ توقف بلوغ الكمال الانساني ورقيُّهُ الصحيح على هذا الركن المهمّ وهو الاعتدال الذي منزلته من تلك المعلومات منزلة الدفّة من السفينة واللجام من الفرس وهو وحده الذي يعيد الرقيّ الى نصابهِ ، ويلبسهُ أفخر أثوابهِ

وفضل الاعتدال وآثاره الحسنة ظاهرة في مشاهد الطبيعة ومشهودة فيما ينبني على الاعتدال من أعمال الانسان السديدة وصفاتهِ الحميدة . أما في مشاهد الطبيعة فتعلمون أيها السادة ان المنطقة المعتدلة من الكرة الأرضية أنفع لصحة العائشين عليها وأدعى لاطالة حياتهم من المنطقتين الحارة والباردة . وان مياه النهر المعتدل الجريان أعذب مذاقاً وأسوغ للشرب من ميـاه السيول الجارفة والبرك الراكدة . وان ريح الصبا

موصوفة بالطيب والروح لانخفاضها عن برد الشمال وارتفاعها عن حرّ الجنوب وان الفرَس لا تعلو قيمته ولا يؤدي لصاحبه النفع المراد من اقتنائهِ الاَّ اذا كان بين الجماحة والانقياد ومن ثم قيل « لا تركب ذلولاً ولا صعباً » وقيل ان النحل تحمله غيرته ووفرة نشاطه الى ان يبدي في بعض الاحيان تسرُّعاً وحدَّةً يخرجان بهِ عن حدّ نظامه المشهور ويوقعانه في حيرة وخبال فيعمد حينئذٍ النحالون الى علاج بسيط وهو التراب يذرُّونهُ بهِ مرة بعد اخرى فيكسر من حدّتهِ ويُعيده الى نهجهِ المعتاد . وفي هذه المشاهدة الاخيرة اشارة لطيفة الى اشتراك النحل والانسان في التناهي ونتائجهِ فكلاهما « لا يملأ عينه الاَّ التراب »

أما أعمال الانسان فترى أسدَّها وأحمدها مغبةً هو ما راعى فيهِ الاعتدال ولذا يوصَف كل عامل مُفلح بكونهِ « مستحصد الرأي لا قحْماً ولا ضرِعاً » وبكونهِ « لا يابساً فيكسر ولا رطباً فيُعصر » ولا ترى شيئاً من صفات الانسان المحمودة وفضائله السنية الاَّ وهو وَسط بين طرفين غير محمودين : فالشجاعة الحقيقية وسط بين الجبن والتهوُّر . والتدُّين الصحيح بين الكفر والأضاليل . والسخاء بين التبذير والتقتير . والعدل بين الظلم والانظلام . والحياء بين الوقاحة والخُرْق او الخنوع . والعفة بين الشرَه والحميَة . وهلم جراً . وعليهِ اذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الأوسط الخاص بها اقتربت لا محالة من رزيلة وليس

أسهل من هذا الانحراف كما ان الانحراف عن نقطة الهدَف أسهل للرامي من اصابتها

وملازمة هذا الوسط من مميزات الانسان عن غيره من الحيوان قال العـلامة باسكال الفرنساوي في خواطرهِ « مَن خرج عن حيّز الوسط فقد ندَّ عن دائرة الانسانية » وقال العلامة هول الانكليزي « ان الاعتدال هو السلك الحريري الذي تنتظم فيهِ لآلىء الفضائل جميعها » وبالجملة :

فما هو الاّ كيمياء الهنا وأهـ ـلهُ بهجة الدنيا جواهرها الفردَهْ

(*)

ويغلب على الاعتقاد ان الحكمة لا يُعتدل في تحصيلها بل يُحمد الافراط فيها الى ما لا نهـاية ولكن الحكيم الشهير الذي حضَّ على طلبها قال بعد ان نال منها ما لم ينله غيره « لا تكن حكيماً بزيادة لماذا تموت في غير وقتك »

واخص ما ينبغي توجيه الالتفات اليهِ ايها السادة في هذا المقام هو وجوب مراعاة الاعتدال في التقاليد والشؤون القديمـة كما يجب مراعاته في الشؤون العصرية ونتائج التمدن الحديث لأن في كلٍ من القديم والجديد خيراً يُنتقىَ وشراً يُتَّقى وجدير بكل شرقيّ ان يأخذ من كليهما ما يفيد وينبذ ما يضرّ وان يلازم الاعتدال في قوميتهِ فلا يظلمها بخروجهِ الى ما يطمس معالمها ولا يحرص عليها ويحتفظ بها الى

حدّ حرمان بلادهِ ونفسهِ من فوائد الرقيّ العصري وبذا يصدق عليهِ قول الشاعر

زانوا قديمهمُ بحسن حديثهمْ وكريمَ أخلاقٍ بحسن خصالِ

وما ادراكم ايها السادة ان هذا هو المنهج القويم الذي يحسن بالاحدثين عموماً وبالشرقيين خصوصاً الاَّ يحيدوا عنهُ قيد شعرة . ولا بأس من التمثيل ، اظهاراً لفضل هذا المنهج الجليل ، فنقول : —

اذا وقف قزَمة قصير القامة على كتفِ جبارٍ طويل النجاد بلغ القصير ببصرهِ مدى لا يبلغهُ الطويل ورأى من المرئيات ما لا يراهُ. وهكذا الأحدثون فبوقوفهم على مجموع ما اكتشفهُ الاقدمون ومحَّصوه من كل علم وفنّ وبضمّهم الى ذلك نتائج اختبارهم يرون بالطبع ما لم يرَهُ أسلافهم من الحقائق الهامَّة ويبدو لهم من الفرق بين الصحيح والسقيم ما لم يبدُ لأولئك في عصرهم. وبذا يتسنى للأحدثين العصريين اختيار النافع واجتناب الضارّ من كل أمر قديماً كان او حديثاً

فلا عذر للغربي المتطرف في نبذهِ كل قديم بعد الاطلاع والمقابلة. وليس من مصلحة الشرقي في هذا العصر ان يقتصر على احد الأمرين القديم او الحديث ويستبدَّ بهِ موثراً اياه على غيرهِ. ولا ان يختار من أحدهما ما أراد ويجريهِ دون ان يراعي فيهِ مقتضيات الاحوال ويزنهُ بميزان الاعتدال

من الأساطير الهندية الحاضة على الاعتدال ما رُوِيَ عن زارَعين

احدهما شيخ والآخر فتىً في عنفوان الشباب وكان كلاهما يملك حقولاً واسعة وقطعاناً كثيرة العدد وكانت أراضيهما متجاورة فدهمتهما سنةٌ مجدِبة جفَّ فيها الزرع والضرع وأصبح منها الزارعان في أسوأ حال . ففي ذات يوم وقفا بحيث يرى احدهما الآخر وطفقا يدعوان معبودهما ان يغيثهما بالغيث . ثمَّ جعلا يقلّبان الطرف يمنةً ويسرةً آملين الاجابة بالريّ والرحمة واذا مَلَك مهيب المنظر أقبل نحوهما مشهراً حساماً ماضياً باليد اليمنى وممسكاً باليسرى حزمةً غضَّة من سنابل القمح : للدلالة بالحسام على عدل مُنفذِه وقدرته . وبالسنابل على سخائهِ في العطاء ورحمتهِ بالبؤساء . فارتاع الزارعان من رؤية ذلك الملك فخاطبهما قائلاً لا تخشيا شرًّا فانما أُنفِذت اليكما بمنَحٍ سنية لا يُفسدها الاّ ما اقترن بطلبكما من تطرُّف او سوء اختيار

ثم التفت الملك اولاً الى الشيخ وقال لهُ : سلْ ما بدا لك واعلم انهُ لا شريك لك فيما تجرُّهُ على نفسك من الضرر ولا فيما تغنمهُ من الفائدة بسؤالك فلك وحدك منفعة اعتدالك وعليك دون غيرك تبعة تطرفك فيهِ . وكان اختبار ذلك الشيخ الأبيّ ، قد عرّفهُ فضل الوسط الذهبيّ ، فاجابهُ قائلاً : اودّ لو بقِيَت ديباري واهرائي ومخازني الحالية التي أَلِفَتها نفسي وأُجريَت بها الاصلاحات الضرورية وأُضيفت اليها الآلات الحديثة النافعة واودُّ لو قوِيَت أغراسي ومواشيَّ واتمنى خصوصاً لو اخترق اراضيَّ نهر معتدل في وفرتهِ وجريانهِ ، بحيث

لا تجفّ الارض بنقصانهِ ، ولا تتلف بفيضانهِ ، فلم يكد يتمّ مُنيتهُ حتى أهوى الملك بسيفهِ على منتصف ارضهِ واذا بنهر يقطعها من اوّلها الى آخرها على ما اراد من الوصف ولم يلبث ذلك النهر ان كسا ما حوله خضرةً ونضرةً وتمّ للشيخ جميع ما تمنّاهُ من ريٍّ واصلاح ، وتقوية وارتياح ، وكما لزم الاعتدال في عناه لزمهُ في راحتهِ ، فدام له غناه وحلّت السعادة بساحتهِ

ثم اتّجه الملك نحو الشاب وقال لهُ : سلْ انت ايضاً ما بدا لك ولا حاجة بي لتكرار ما قلتهُ لجارك بمسمعٍ منك . وكانت نفس هذا الفتى قد سوّلت لهُ أن يفوق جارَه في النعمة والظهور ليُميتهُ بذلك حسداً وكمداً . فاجاب الملك بقولهِ : اودُّ لو اعتَضت عن عقاري وديارِي واموالي القديمة كلها غياضاً مثمرة وقصوراً شامخة وخيولاً مطهَّمة واثواراً ضليعة ومن الأبقار والأغنام كل حلوبٍ وولود ثمّ جواري وغلمان كالحور والولدان . وبودّي لو سلّطتَ على ارضي نهر الكنغ برمّتهِ وغمرتها بلجتهِ . فما اتمّ الفتى طلبتهُ حتى اومأ الملك بسيفهِ الى ارضه فاصبحت كما اراد غياضاً ناضرة وانتشر فوقها ما تمنى من قصورٍ ومواشٍ وغيرها . ثمّ أهوى ثانية بحسامهِ نحو نهر الكنغ فأقبل من بعيدٍ هادراً منهمراً على ارضهِ لا يمسُّ غيرها فاكتسح زرعهُ وأبنيتهُ وأمات مواشيهُ وحواشيهُ واندفع الشاب اخيراً في تياره بالرغم من تمنعهِ في أعالي قصرهِ ، وراح ضحية تناهيهِ وكبرهِ

اما جيران هذين الزارعين الذين اشتركوا معهما في الجدب ولم يحركوا ساكناً للقائهِ، ولا ضرعوا لمعبودهم ملتمسين منهُ مدارکتهم بعطائهِ، فقد نالوا نتيجة اهمالهم وتفريطهم بأن بلغ الجدب منهم كل مبلغ فاجتاح أموالهم وأفنى زروعهم وأفضى بهم الى الفقر المدقع ولم يسلم منهم من الموت الاَّ القليل (١)

فيا أيها المحبون لوطنكم العزيز الراغبون في رفاهيتهِ . ويا أيها المسؤولون بطبيعة مركزكم الاجتماعي أمام الله والناس وضمائركم عن سلامة بلادكم ومستقبلها الأدبي أوجّه اليكم الكلمة التي خاطب بها أرمياء النبي قومهُ مذكراً اياهم بمثل هذه المسؤولية . وهي قوله « وماذا تعملون في آخرتها ؟ »

علمتم أيها السادة ان آفتنا العظمى هي التناهي وان حاجتنا الماسَّة هي الاعتدال. وعلمتم أيضاً مقدار اقبال امتكم على الأول الذي يسوؤها ويقعد بها عن الرقي الصحيح واهمالها للثاني الذي يأسوها ويرفعها بأمن الى أوج الكمال البشري . أنتم تنظرون أيها السادة من الجهة الواحدة ما يتوارد على بلادكم من أفانين المفاسد والموبقات، وغرائب الاطوار والعادات، وتعرفون ما جُبل عليهِ اكثر الشرقيين بل اكثر المتعلمين منهم من سرعة الانقياد الى التقليد، والاقبال على كل جديد، والتطرف

---

(١) هذه الاسطورة رواها « جنسن » الاخلاقي الشهير وقد عربتها بتصرف عن الانكليزية (المؤلف)

فيهِ الى حدّ ما عليهِ من مزيد ، حاسبين ذلك من أهم مقتضيات الحضارة غير مدركين ما ينجم عن فعلهم هذا لبلادهم ولقوميتهم . وتعلمون ان مثَلهم في ذلك مثل طفل ساورتهُ « ضئيلة من الرقش في أنيابها السمّ ناقع » وما أدنَت رأسها من فمهِ، حتى ظنها ثدي امهِ ، ففغر للرضاع فاه ، ولقيَ من أنيابها ما أرداه . ولكن أين مصاب هذا الطفل وامهِ من حظّ امّ ثكلى ترى اولادها يكرعون السم بمرأى منها ويموتون بهِ واحداً فواحداً ولا منجد ولا دواء . وانما أنتم أيها السادة هذه الأم الثكلى فلكم العزاء على ان منكم وحدكم النجدة — أفلا تنجدون ؟

وتنظرون أيها السادة من الجهة الاخرى الجهل المخيّم على عقول كثير من امتكم وملازمتهم لكل مستهجن من العوائد القديمة وحرمانهم من كل تربية وبُعدهم عن كل فكرٍ عصريّ حميد وعجزهم عن مجاراة الأمم المتمدنة في مضمار الحضارة والعمران وغير ذلك من ضروب التأخر ودواعي الانحطاط . فهذه الأمور أيها السادة لا يتأملها عاقل الاّ توقع لمستقبلنا شرًّا يُعيي من يداويهِ، ولا يرى غيرنا مسؤولاً عن استدراك فارط أمره وتلافيهِ، فبأية أُهبة تأهبتم لوقاية أمتكم من آفتها، و بأية ذريعة تذرّعتم لاسعافها بحاجتها ، « وماذا تعملون في آخرتها؟ »

[ما ختمت الخطيبة خطابها حتى صفق لها الحضور، فانصرفت وهي تمسح جبين الحياء وتجر ذيل السرور، ثم حيا القوم الاستاذ على حسن القائها ، وهنأوا والدها بنجابتها وذكائها]

الجار (ملتفتاً الى الدكتور) — ننتظر بفروغ صبر رأيك الدكتور فيما تُلي عليهِ

الدكتور — الفكرة حسنة في حدّ ذاتها ولكن الفكر شيء والعمل شيء آخر

ابن السرى (للدكتور) — ربما أردتَ قول الشاعر :

نسج الريحُ على الماء زَرَدْ يالهُ درعاً منيعاً لو جَمَدْ

الدكتور (مبتسماً) — لم أرِد قول احد من الشعراء وانما أردت صعوبة تحقيق هذه الفكرة من وجهين الأول تعيين الضارّ والنافع من كل عصريّ وقديم والثاني اقناع الناس بهما واخراجهما الى حيّز العمل

ابن السرى — أما تعيين الضارّ والنافع فقد وعد صاحب الكتاب في مقدمتهِ ان يواليهُ ويستعين بالله وبآراء الثقات وأهل الفضل على اتمامهِ . أما اقناع الشرقيين بهما واخراجهما الى حيّز العمل فانما

على المرء أن يسعى الى الخير جهدَهُ

وليس عليهِ ان تتمَّ المطالبُ

الدكتور (مبتسماً) — نعم اذا سعى سعيك في حفظ الأشعار ولم تفتهُ فرصة في انشادها فلا بدَّ ان ينجح

جار السرى (للدكتور) — أوَ هذا كل رأيك في الكتاب يا حضرة الدكتور ؟

الدكتور — ان ما تؤمله مني من الحكم بالرجعية او بعدمها يتوقف على المسائل التي يقول الكاتب بوجوبها او بتركها و بقياسنا لها على ما يقتضيهِ الاعتدال الذي جعل الكاتب مرجع الاختيار والحكم اليهِ وهو قياس لا بأس بهِ. فلو قال مثلاً بوجوب الدين وحضّ على مراعاة أوامرهِ ومناهيهِ لصادف قولهُ هذا من القراء ثلاثة انواع : الأول يحكم برجعيتهِ لأول وهلة وهو فريق التفريط في الدين ومعظمه من شبيبة العصر الحاضر . والثاني يرى رأيهُ ولكنهُ ينحرف بالدين عن الوسط الواجب سالكاً بهِ سبيل الاضاليل او التعصب وهو فريق الافراط في الدين والثالث يقضي بوجوب الدين ومراعاة أوامره ومناهيه مجرداً من الاضاليل والعقائد الباطلة وهو فريق الاعتدال . والاعتدال اولاً باعتبار كونهِ خلاصة الحكمة وحليف الرشاد والذوق السليم يوجب احترام الدين على الأقل لما يترتب عليهِ من الفوائد الزمنية هذا فضلاً عن كون طاعة الدين واحترامهِ يتحتمان على كل مخلوق . وثانياً باعتبار كون الاعتدال عدوّ كل شطط وتناهٍ فهو يتجافى بالدين عن كل ضلال وتعصب . فالاعتدال يصوّب رأي الفريق الثالث ويحكم بشطط الاول و برجعية الثاني . وعليهِ قلت ان المبدأ حسَن من حيث تحكيم الاعتدال والقياس عليهِ في الاختيار بين

النافع والضارّ ولكن عدم اطلاعي على ما اوجبهُ صاحب الكتاب او نفاهُ تطبيقاً على هذا المبدأ يلتمس لي العذر في وقوفي عند هذا الحدّ

***

الترجل (استقلال النساء) في الشرق — دواعي الترجل — الترجل والعزوبة — الزواج والاعتدال — الترجل والدين — روايات الترجل — رجوع انصار المغالاة الى محجة الاعتدال — المترجلات والحيات

الجار (للاستاذ وبقية الحاضرين) — دونكم احدى مسائله بل أهمها . فما قولكم في اعتقاده وجود الترجل الآن في بلادنا وانذارهِ بانتشارهِ فيها في المستقبل على حين لا يوجد لهُ فيها أثر في الحال وحصوله في المستقبل من المحال ؟

الاستاذ (للجار) — انهُ لا يقول بوجود الترجل في بلادنا ولا بحصوله فيها في المستقبل بأوصافه المعروفة عند الغربيين ولكنهُ يراه رؤية الشاعر القائل

أرى خلل الرماد وميضَ نارٍ ويوشك ان يكون لها ضرامُ

فلا تظنّ الترجل أمراً بعيد المرام يقصر عنهُ باع النساء فلا يكسبنَهُ الا بالدرس وطول التأمل بل هو قريب المنال سهل الملتمس تُفتح لهنّ أبوابهُ وتتهيأ أسبابهُ بخطوتين : الاولى — رغبتهنّ في الحرية المطلقة

او السائبية وهي ان تذهب المرأة اين شاءت وتفعل ما شاءت كالدابة السائبة . والثانية — كراهتهنَّ للاعمال المنزلية . من ثمَّ ترى ما أقصر هاتين الخطوتين . اما غاية الترجل القصوى وهي استقلالهنَّ عن الرجال فانما تقوم بتقليدهنَّ اطوارهم وأعمالهم ومن هذه ما يحتاج الى المزاولة والدرس ومنها ما لا يستدعي اكثر من صناعة التقليد ومبادئ التربية البسيطة . وقد نرتاب في ان نساء الشرق بلغنَ هذا الاستقلال ولكننا لا نرتاب البتة في ان كثيرات منهنَّ قد خطونَ الى الترجل إما احدى الخطوتين او كلتيهما واصبحنَ بذلك سائرات على دربهِ وعما قليل يبلغنَ غمرة ميدانهِ ويُحسبنَ من فرسانهِ

فما دام الشرقيون يتهافتون على تقليد كل جديد . وما دامت الفتـاة المصرية لا تتهذب الا بما يُهذَّب بهِ الفتى . وما دام معلموه معلميها . وما دام الترجل يسير في الغرب سيره الحثيث وتنتقل الينا نفحاته يومياً في الجرائد والعادات الغربية دون ان تصادف منا المقاومة الادبية الواجبة التي يُنشئها حسن التربية فلا يترتب على هذه المقدمات الا نتيجة واحدة لا مناص منها وهي ان الترجل لا بدَّ من شيوعه في الشرق جميعهِ على نوع وان خالف الترجل الغربي في بعض الاعمال الرجلية العمومية فلا يخالفهُ في كراهية المرأة لوظائفها النسائية واعمالها المنزلية ورغبتها في الحرية المطلقة وطلبها التساوي بالرجال في كل حال وكفى بذلك شرًّا وسوء مآل

الدكتور (للاستاذ) — قرأت في بعض الكتب الاجتماعية ان امتناع الفرنساويين عن الزواج أدّى الى زيادة الترجل بينهم فهل عاينت مدة اقامتك بفرنسا ما يؤيد ذلك ؟

الاستاذ — اتفق لي ان أطّلع قبل قيامي لتلك البلاد على هذا الرأي فزاد ذلك رغبتي في البحث عند وصولي عن جليّة ما قرأت لأكون منهُ على بينةٍ ويقين . فرأيت ان امتناع الفرنساويين عن الزواج في مدنهم الشهيرة لم يؤدِّ الى انتشار الترجل بينهم فقط بل الى الفسق والتسري ايضاً وبالنتيجة الى انقراض النوع كما يظهر من النقص المطّرِد في عدد الأمة الفرنساوية . ومهما اختلفت بواعث الترجل في البلاد الاخرى كأميركا وغيرها فهذا الباعث اي الامتناع عن الزواج هو أعظمها خطراً لأنهُ بطبيعته أدعاها جميعها الى دوام الترجل وأقضاها على أنثوية المرأة (١)

ولو غضضنا النظر عن العزوبة الدائمة او الامتناع المطلق عن الزواج رأينا اننا والغربيين بعيدان عن الاعتدال من حيث تعيين السنّ الواجب التزوج فيهِ فعندنا لا يزال الزواج البا كر متبعاً في اكثر

---

(١) ظهر حديثاً كتاب للموسيو فكتور مارجريت الفرنساوى جاء فيه انه يوجد بفرنسا ستة ملايين ونصف من النساء غير متزوجات وجميعهنّ يحاكين الرجال فى الاعمال . ويوجد بها ايضاً ثلاثة ملايين من المتزوجات او ذوات العائلات اللواتى يتركنَ بيوتهن طول النهار ليشتغلن كالرجال (المؤلف)

البلاد وعندهم تكاد الإصافة (اي التزوج في الكبر) ان تكون عامة أما مسيحيو مصر فقد امتازوا بميل أفرادٍ بينهم الى تقليد الغربيين في الاصافة وآخرون الى تقليدهم في الامتناع المطلق عن الزواج

وعدا التبكير في الزواج بيننا وتزوُّج الشيخ من الفتاة عندنا وعند الغربيين هنالك آفة عامة تهدد سعادة الافراد ورقيّ البلاد وهي ان اكثر الشبان يخطبون من الفتاة مالها وأوصافها الظاهرة ولا يتحرَّون المحبة المتبادلة ولا جمال النفس والاخلاق والصفات الاخرى الانثوية التي يترتب عليها وفاقهما الدائم وتقوم بها سعادتهما وبالنتيجة سعادة الأمة التي تقتبس رفاهيتها ورقيَّها من سعادة العائلة . وما أثمن ما نصح بهِ ولي الدين بك يكن لهؤلاء الخاطبين في احدى مقالاتهِ حيث قال: « اخطبوا أيها الخاطبون فتيات راضت نفوسهنَّ التربية وأنمى عقولهنَّ العلم . خاصف النعال لا يصوغ الحليّ والحمقاء لا تُنجِب . ولا يُغني المال والجاه عن مكارم الاخلاق »

ولما كان الخاطب والمخطوبة مشتركَين في هذه الأميال المنحرفة عن الصواب في الزواج وكانت الفتاة مساوية للفتى في الحاجة الى هذه النصيحة ان لم تكن أحوج اليها منهُ وجب علينا ان نحذّرها بنفس ما حُذِّر بهِ اولئك الخاطبون اي بأن لا تخطب من الفتى مالهُ ولا جاههُ بل مكارم أخلاقهِ وحسن تربيته الى آخر ما ذكر

بقي علينا ان نستشفّ ما اختفى وراء هذه الأميال في الزواج من

المؤديات الى الترجل الذي فيهِ كلامنا وهو انهُ اذا كانت هذه هي الأميال والأهواء التي يتمشى عليها الزواج في أغلب البلاد فلا عجب فيما يعقبهُ من كراهية الجنسين له . ولا غروَ اذا حاولت المرأة الحصول على الحرية المطلقة لتنجو من رِبقتـه . ولا غرابةَ اذا أُشربت بغضة وظائفها المنزلية وواجباتها الزوجية ثم تطالَّت الى مساواة الرجال والتشبه بهم في كل حال

الجار (للاستاذ) — اذا كان الترجل علة تناقص عدد الفرنساويين كما تقول فما بال عدد الانكليز يتزايد مع وجود الترجل بينهم ؟

الاستاذ — ان الترجل عند الفرنساويين مقترن بما يضاعفهُ كما بينتُ ذلك في محـله على انهُ قد ثبت من الاحصاء الذي عُمل اخيراً ببلاد الانكليز ان الزيادة فيهـا قاصرة على اماكن مخصوصة لأسبابٍ عرضية وان عدد المواليد عموماً يتناقص فيها نقصاً محسوساً ومطّرِداً . وهذا النقص لا يمكن ارجاعه الاّ الى الأسباب التي ذكرناها

ابن السرى (للاستاذ) — اوَ ليس اهمـال تعليم الدين في العائلات ومدارس البنات مما يؤدي الى الترجل وغيره من ضروب التطرُّف ؟

الاستاذ — لله درُّك . فالترجل والفساد لا يكثر تفشّيهما الاّ في البلاد التي تُنتهك فيها حرمة الدين . ويكاد يستحيل أن يجتمع

الترجل والتدين في امرأة . وليتَ أنصار الترجل يُغفلون أمر الدين في كتبهم ولا يتعرضون فيها لذكره بمدح او ذمّ ليجعلوا للناس على الأقل الخيار في اتباعهِ او تركه . ولكنهم يقولون بصريح اللفظ انهُ لا يُحدث أدنى تأثير في تربية البنات. وان الواجب عدم تعليم الدين في المدارس . وغير ذلك من العبارات التي تُضعف الميل الى الدين وتُعين على الاعراض عنهُ والكراهة لهُ

السرى (للدكتور) — أصحيح ان رجال الانكليز أشد كراهية للترجل من رجال الفرنساويين له ؟ لقد طالما وددت لو اطّلعت على بعض الروايات الانكليزية في الترجل

الدكتور — ان الرأي العام في انكلترا يعدّ الترجل احدى الآفات الاجتماعية كالمغالاة في الاشتراكية والفوضوية والعدمية واللاأدرية وغيرها . والمعتدلون من كتّابهم يجاهرون بذمّ الترجل في كتاباتهم وروايتهم . وسأنتخب ان شآء الله احدى رواياتهم وأتلوها في هذا المجلس يوماً من الايام

وقد قرأت في اوائل شبيبتي بمصر واثناء اقامتي ببلاد الانكليز عدداً لا يُحصى من الروايات الانكليزية العمومية. وكنت قبل تفشي الترجل في الغرب أستغرب كل الاستغراب من إقدام الكتّاب على وصف المرأة في رواياتهم باوصاف منكرة تحطُّ بها وتخرجها عن انانيتها التي هي زينتها الحقيقية . وظللت أستنكر ذلك وأستغربهُ الى ان

فشا الترجل ورأيت تفشّيهُ بينهم رأيَ العين فانقطع استغرابي ونشأت عندي الرغبة في الوقوف على ما يُكتب عن الترجل في المجلّات حتى قرأت عنهُ شيئاً كثيراً ورأيت انهُ لا يكاد يوجد روآئي شهير الا ولهُ رواية أو اكثر في ذم الترجل وجميعها وان اختلفت في أساليبها ومبانيها لا تختلف إلا يسيراً في معانيها ومغازيها

فبعضهم يصوّر المرأة المترجلة متزوجة رازحة تحت اعباء الاعمال العمومية من الجهة الواحدة واعباء الأُمومة وغيرها من الوظائف المنزلية من الجهة الاخرى . ولا يزال بها حتى تترك الأُولى وتلزم الثانية

والبعض الآخر يصوّرها غير متزوجة طامحةً الى الاستقلال عن الرجال مناوئةً اياهم . ثم لا يزال بها حتى يضطرهـا الى سنّة الزواج الطبيعية فتعتصم بهِ وتعدل عن الترجل . او يتركها تتمادى في ترجلهـا وعزوبتها فتسوء سمعتها وتُزَنُّ بالفسق والفساد

واوّل ما قرأت في الترجل باللغة الانكليزية رواية طبعت سنة ٨٢ وجدتها في مكتبة العائلة وهي تأليف « السر ولتر بزانت » عنوانها « خروج الرجال وشقّهم عصا الطاعة » وصف فيهـا المؤلف كيف سادت النساء الرجال ببلاد الانكليز في عصر من العصور بحيث أصبح الرجل بمثابة المرأة وهي قوّامة عليه . ثم قام بعض اولئك الرجال واستنفروا بني جنسهم النشيط فاسترجعوا بالقوة حقوقهم التي سلبتها النساء وأعادوا المرأة الى تدبير شؤون المنزل والعائلة . وفي هذه

الرواية كثير من النكات اللطيفة وكلها يُقصد بها العبرة والفائدة

وآخر ما قرأتهُ في الترجل كتاب طُبع سنة ٨٩٨ موضوعهُ حقوق النساء وهو تأليف المستر « ديسي » الانكليزي الذي كان من أعظم أنصار النساء وأشدهم غيرة على حقوقهنَّ . وقد اعترف المؤلّف في كتابه هذا بأن الاختبار قد أنار بصيرتهُ وكشف لهُ خطأه فرأى ان انالة النساء حقوق الانتخاب مجلبة للويل والخراب . ومذ ذاك أصبح من أشدّ المعارضين لمطالبهنَّ وكتب في دحضها كتابهُ هذا

ومما لا يحسن اغفاله في هذا المقام ان أعظم أنصار المغالاة وأشدهم اخلاصاً فيها لا يلبثون طويلاً حتى يرجعوا عن اعتقادهم . فكما رجع المستر ديسي في أخريات القرن الفائت أقرَّ في أوائل هذا القرن المستر ألفرد ولس شريك درون بصحة الوحي وقدرة الخالق . ولا عجب فان حبل المغالاة واهٍ مهما قويَ واشتد ، ولا بدَّ من نصرة الاعتدال على التناهي وان طال الأمد

جار السرى (للدكتور) — وما حُكم الدكتور فيما ذكره المؤلّف من المحال برواية الفتاة العصرية وهو قوله ان هذه الفتاة اشترت من الحواة حيةً كبيرة وجعلتها أليفةً لها . فهل يُعقل ان أفعى تألف فتاة وتصاحبها أين وجدت دون ان تخشى غائلتها ؟

الدكتور — جرت عادة الروائيين انهم متى أرادوا وضع رواية واقعية – ريالستيك – اي تطابق حوادثها الواقع قاسوا الشيء الخيالي

على نظائره التي تحدث يومياً . ومن المؤكد ان بين المولعين بالصيد من الغربيين من يتهافت على جمع الحيات وينافس في اقتنائها . ومعلوم أيضاً ان السيدات المولعات بالقنص يقلدنَ الرجال في كل حال . بقيَ كيف نسعى حية في دارٍ ويؤمن ضررها والجواب انك اذا نظرتَ معي نظرة عامة في طبائع الحيات هان عليك ما تخشى من هذا القبيل وسأذكر لك طرفاً من أقوال العلماء في هذا الشأن :

قال العلامة جمس متشل في مجموعتهِ العلمية ان اكثر من ثلثي عدد الحيات هو من النوع الغير السامّ وان من هذا النوع الحية الشائعة في بلاد الانكليز المسماة « كوليبر ناتريكس » ومثلها بفرنسا وتسمى « كولوفر » . وقال ايكارد الفرنساوي في مذكرتهِ للعلوم والفنون ان النوع السامّ من الحيات في فرنسا يمتاز عن غير السامّ بكون رأسه مثلثة الشكل وحراشفه صغيرة وأنيابهُ معقَّفة . ومن ثمّ ترى ان لا غرابة في هذا الخبر لكثرة الحيات الغير السامّة وسهولة تمييزها من غيرها

على ان كتَّاب الروايات الواقعية قد يلجأون في بعض الاحيان في كتابة رواياتهم الى شيء من المبالغة بقصد زيادة التأثير كما فعل «زولا» وكثيرون غيره . فلك ان تعزو ادجان الفتاة العصرية للحية الى ايّ شئت مما تقدم

* * *

الاعتدال والحجاب — اصلاح الحجاب — تبرج النساء —
عدوى الادب — راح الادباء وشعار الاطباء — ناقد
ناقم — البساطة والنظافة والنظام — ملكة
الانكليز والتبرج

السري (للاستاذ) — هل ذُكر في هذا الكتاب شيء عن الحجاب ؟

الاستاذ — لم يتعمد صاحبه ذلك فيما قرأت من كتابهِ ولكنهُ ذكرهُ ضمناً في كلامهِ عن تربية الفتاة

السري — ولكن الحجاب من مواضيع كتابهِ باعتبار كونه يقي من النتائج السيئة باعتداله ويؤدي اليها بتطرفه اي في حالتي التشديد والتفريط . فان الحجاب المشدَّد فيهِ يُفضي بالطبع الى احد امرين : إما الى اضعاف المرأة جسماً وعقلاً اذا رضيت هي بهِ . او الى مروقها وخروجها عن حدودها وذلك بتأثير ما يحيط بها من الافكار العصرية او على حدّ قولهم «ان كثرة الامساك توجب الإباق» وقولهم ايضاً «ان الضغط يؤدي طبعاً الى الانفجار» . وفي حالة مروقها تكون عرضة لأحد امرين ايضاً : إما لفساد الاخلاق او للترجل بكل معانيهِ او بعضها . وهكذا التفريط قد يؤدي الى هذين الأمرين الاخيرين ولذا كان الاعتدال في الحجاب لازماً لما فيهِ من اتقاء هذه النتائج

السيئة و بقاء ما يفيد من المعالم القومية والمميزات الشرقية والتمهيد الى الرقيّ المطلوب

الاستاذ — يظهر من كلام المؤلف في الفصل الخامس من هذا الكتاب انهُ يقول بالشروع اولاً في تربية الفتاة تربيةً صحيحة ثم تركُ أمر الحجاب وغيره من النسائيات المختلَف فيها الى هذه التربية لتحكم فيها عن بصيرةٍ بما تؤمن معهُ العقبى . ولعلّ الذي منع المؤلف عن الخوض في هذه المسألة هو أنها أشدّ اتصالاً بحلقة اخرى خاصة بالعائلة او الهيئة الاجتماعية او العوائد الشرقية منها بهذه الحلقة التي موضوعها عيوب تهذيب الفتاة الحاضر واصلاحه . ومهما يكن من أسباب امتناعه فلا أرى مانعاً يمنعنا نحن من التأمل اذا شئتم بالاختصار في وجوب تعديل الحجاب بالتربية او بدونهـا لنرى اي الرأيين قرين الصواب

السرى والبقية — حبـذا لو تكرمت بذلك فنكون لك من الشاكرين

الاستاذ — ان رؤوس الاقوال المشهورة في الحجاب بمعناه العامّ الذي يتناول التبرقع والسفور والعزلة والاختلاط هي كما يأتي : اولاً وجوب بقاء الحجاب كما هو . ثانياً وجوب رفعـه تماماً من كل الوجوه . ثالثاً وجوب تعديله اما مع مراعاة الاعتدال او بدون مراعاته . ولا يخفى ما في الأول والثاني من التطرف وسوء العقبى كما ذكر جناب

السريّ في كلامهِ وعليهِ يقع اختيارنا على ثالث الاقوال وهو تعديل الحجاب ولكن بالطبع مع مراعاة الاعتدال

فلنسأل اولاً بمَ يقوم هذا التعديل . اي ما هي حدود الحجاب المعتدل . وثانياً متى يجب ان يؤخذ فيهِ . اي هل يجب ان يتمشى التعديل مع التربية في كل أدوارها فيُبدا بهِ الآن ام يترك الى ما بعد حصول التربية وانبثاثها في طبقات الأمة ولو على نسبة متوسطة وارشادها المتربيات وأهلهنَّ الى ما يؤثر اتباعه في حينهِ . اذ لا يخفى ان البعض وهم ليسو بقليلين يرون وجوب هذا التعديل والسير فيهِ اولاً وبادىء بدء بحجة ان تربية الفتاة تتوقف على هذا التعديل وانها اذا بقيت محتجبة ولو احتجاباً بسيطاً يحول هذا الحجاب بينها وبين التربية الكاملة ولا تنتفع من معلميها الرجال ولا من المحيط المقيمة به الانتفاع الذي يقتضيهِ روح هذا العصر

وجوابنا على الأول ان التربية المعتدلة هي وحدها التي يمكنها ان تعيّن حدود الحجاب المعتدل المأمون من سفور واختلاط وغيرهِ كما سيجيء . وجوابنا على الثاني ان انتفاع الفتاة من التربية قبل التعديل لا يمتنع الاَّ اذا تقرَّر لزوم تلقيها كل ما يلزم لتربيتها من المعلمين الرجال او ثبتت افضلية هذا التعليم على تعليم النساء لجنسهنَّ . امَّا وهذا لم يثبت لزومه فضلاً عمَّا في جانب تعليم النساء للفتاة من الفوائد كما بيّن المؤلف في موضعهِ فلا يعتبر هذا العذر مسوّغاً لتقديم تعديل الحجاب

وتمشيتهِ مع التربية ولا يُعَدُّ مانعاً لتقديم التربيــة على هذا التعديل (انظر ما جاء بهذا الصدد في الفصل الرابع من هذا الكتاب)

واذا تقرر ذلك فلنتأمل كما وعدنا فيما تنبئنا بهِ الحوادث الماضية عن طلب تعديل الحجاب قبل حصول التربية اللازمة

أصدر المرحوم قاسم بك امين كتابه عن تحرير المرأة في أُخريات القرن الفائت فانبرى الكتَّاب من وطنيين واجانب لموافقتهِ او لمعارضتهِ . فمنهم من صوَّب رأيهُ في رفع الحجاب ومنهم من صوَّب اليهِ سهام الملام على هــذا الرأي حتى من الأجانب بدعوى انهُ يريد تقويض اركان القومية الشرقية برمتها مليحها وقبيحها ليبني على انقاضها عوائد الغربيين بما فيها من غثٍّ وسمين . واذا تتبعنا الحوادث التي أعقبت صدور هذا الكتاب اتضح لنا بأجلى بيان كيف يساق المصريون بتطرفهم في كل أمرٍ جديد مهما كان حميداً فيُحيلونهُ الى عكسهِ

اولاً قال المرحوم قاسم بك في ذلك الكتاب انهُ يحترم الحجاب بمعناه الأدبي اي حجاب التصوُّن والحشمة وعدم التبذُّل وانما أوجب رفع الحجاب الثاني وهو التبرقع بدليل ان بقاء البرقع (الذي كان في عهده بسيطاً) أدعى للفتنة من رفعهِ وذلك لتشويقهِ بما يتركه مكشوفاً من الوجه الى رؤية ما استتر منهُ

فكانت نتيجة قوله هذا في كثير من النساء المسيحيات والمسلمات

انهنَّ هتكنَ حجاب التصوُّن والحشمة الذي أوصى باحترامهِ فأقبلنَ على الخروج والولوج والمخالطة مع ما لهنَّ من التربية الناقصة التي لا تؤمن معها نتائج هذا التغيير على فرض كونهِ معتدلاً لا افراط فيه . وحتى لا يُغضبنَ ذويهنَّ وغيرهم من المعارضين لرأي قاسم بك في رفع البرقع ويخرجنَ فائزات من مآزق التبرج الذي تتوق اليهِ نفوسهنَّ ظلَلْنَ متبرقعات لكنهنَّ حوَّلنَ البراقع بحيلتهنَّ وحيلة الباعة العارفين بميولهنَّ الى أغرب ما يهدي اليهِ التبرج من ضروب الاغراء. فخرَّ منَ أسودَها مقابل الأنف والفم والوجنتين على نوع يُبدي الجزء الأعظم من هذه الأعضاء ويثير الرغبة لاستطلاع باقيها . ورقّقنَ البراقع البيضاء لتشفَّ شفًّا خفيًّا مُريباً عمَّا تحتها بحيث أصبح البرقع والحالة هذه أبلغ إفتاناً واشدّ اغراء من الوجه العاري وهو أعظم بمراحل من الشرّ الذي توجسهُ قاسم بك من البرقع البسيط اي اظهار بعض اسرَّة الوجه للتشويق الى رؤية باقيهِ . وما هذا الاّ طرف يسير من اساليب الاغراء وضروب التبرُّج العصري التي أعقبت كلام ذلك الناصح المخلص

ثانياً حضّ قاسم بك في كتابه هذا على العناية بتهذيب البنات ولا سيما تربيتهنَّ التربية النفسية . وهذا كما لا يخفى أثمن ما يُحصَّل من كتابه وأحرى ما فيهِ بالالتفات وبذل الهمة . ولكن للأسف كانت نتيجة ذلك الحضّ بعد السنين الطوال انهُ لم يزد اقبال الوالدين على

تعليم بناتهم المعتاد للبنين زيادةً تذكر . ولا طرأ على موادّ التهذيب في مدارس البنات ما يُطمأنُّ اليهِ من التحسين في سبيل التربية النسائية . اما التربية النفسية التي خصها بالذكر وبالغ في الايصاء بها والترغيب فيها فمعلوم انهُ ليس للفتاة المصرية ما تأخذها عنهُ سوى الروايات الغرامية الكثيرة الانتشار في هذه الديار وهي انما تربّي النفس على نقيض ما أراد الموصي من الفضيلة وستدوم الفتاة تنشق هذه الانفاس المُعدية ، وترد هذه الموارد المردية ، الى ان يُتاح لها خير منها بهمة من بيدهم أمرها . على انهُ لا اكثر من المصادر المعَدَّة لبثّ هذه التربية ولم يُعنَ أحد للآن باختيار شيءٍ منها او بوضع ما يقوم مقامه من التآليف لفائدة فتياتنا وتهذيب نفوسهنَّ

وعليهِ فقد كانت النتيجة من كل ما حضّ عليه المرحوم قاسم بك او نهى عنهُ عكس ما أراد وهي نتيجة ما جناها الاّ تطرفنا في في تلقي النصيحة وتفانينا في التقليد وعدم إتياننا الامور من مآتيها

فليت المرحوم قاسم بك عرف خلّتنا وقصر نصيحته على التربية النسائية الكاملة وحضّ على تأسيس معاهدها وأوضح سُبل انتهاجها والأخذ فيها على النظام الواجب وترك ذكر الحجاب الى ما ترشد اليهِ تلك التربية بعد حصولها . فلو كان بدأ بذلك وقصر كلامه عليه لما حُرِم نصيراً ، ولنال نصيباً من النجاح ولو يسيراً ، ولم يكن ضحّى باغفاله الحجاب الحسّي سوى العرَض إبقاءً للجوهر الأثمن وهو التربية

الصحيحـة التي هي دعامة الحجابين الأدبيّ والحسّي ومتى حصلت لا تتجاوز بالطبع حدّ الاعتدال في تبرقع او سفور ان لم يصبح هذان الامران سيّين عند المعارضين لامتناع تخوفهم حينئذٍ من نتائجهما

اما اذا أُريد نصيحة عامة وقتية في الحجاب ووُجد من يعرف ان يجري عليها تماماً في كل الاحوال فعليهِ ان يتبع ما قاله الشاعر العصريّ :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً ... بين الرجال يجُلنَ في الاسواقِ
يفعلنَ أفعال الرجال لواهياً ... عن واجبات نواعس الاحداقِ
كلاَّ ولا أدعوكم ان تسرفوا ... في الحجب والتضييق والارهاقِ
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا ... فالشرُّ في التقييـد والاطلاقِ

(حافظ)

فيظهر لكم من هذه الابيات ومما مرَّ من كلامنـا عن الحجاب والتبرج وغيرهما اجماع المفكرين على لزوم الاعتدال في استئصال الامراض الاجتماعية او معالجتها الوقتيـة . فاذا اختلَّت أُسس أمرٍ اجتماعي وضاعت معالمه وتُنوزع في تعيين حدوده لا يُرى سبيل امين لاعادته لأصوله الاَّ التربية المعتدلة . ولا علاج وقتي يُلجأ اليهِ لحين اعادته لتلك الاصول الا الاعتدال اذا امكن اتباعه والجري عليهِ قبل التربية . فالاعتدال هو المؤسس والمصلح لكل أمر اجتماعي يؤمّل منهُ الرُّقيّ الصحيح

الدكتور (*للاستاذ*) — هل بحث صاحب هـذا الكتاب في تبرج النساء أم عدَّه تابعاً لحلقة أخرى من سلسلة الرقيّ والاعتدال

الاستاذ — اظنهُ عدَّه كذلك ولكنهُ ذكر في بعض المواضع انهُ من النقائص التي يُوكل اصلاحها الى التربيـة كالحجاب على ان التبرج وما يحاكيهِ من المعائب النسائية اشدّ احتياجاً من الحجاب الى التربية فنسبة هذه المعائب الى عدم التربية كنسبة الاعراض للأمراض في صناعتكم الشريفة

ابن السرى — لا إخال صديقنا النطاسيَّ الأَهاشَّا باشَّا لسماعهِ مني ما قال الشاعر في مدح العلوم طرًّا ولا سيما في صناعة الطبّ الشريفة التي ينتمي اليها . فقد قيل ان المرء يغتفر لمادحهِ ما لا يغتفره لناصحهِ

الدكتور — ان سماعي بقية ما شرع الاستاذ في ذكره من الحقائق الطبّية ولو على سبيل التمثيل والتشبيه ، لأحبُّ اليَّ من سماع ما مدحنا به الشاعر من لآليه ، ولكن تفضّل ، فالشعر منك مفضّل

الاستاذ (*للدكتور*) — رعاك الله فقد سَرَت اليك العدوى مع المداومة والتكرار ، فسجعتَ و بعد السجع ستنشد ان شاء الله الأشعار ، فقد قيل ان الباب الموصَد يُفتح بتوالي القرع ، كما قيل ان النظم ابن السجع

السرى (*مبتسماً*) — راعِ يا بُنيَّ الايجاز في انشاد ما تهواه ،

ولا تستخفّك خيلاء النصر فما النصر الاّ من عند الله

جار السرى (*للدكتور*) — أعزاء هذا أم شماته ؟

الدكتور (*للجار*) — كلاهما . فلتقرّ عينك

ابن السرى — قال الشاعر :

دع ذكر سلمى والزمانِ الخالي ... والفخر بالأعمام والأخوالِ
واسقِ الثرى ما في دِنانك من مدا ... مٍ انها صلٌّ من الأصلالِ
وأدِرْ كؤوس العزّ من راحٍ لها ... أهنى دبيبٍ في نُهى الأبطالِ
راح العلوم لكم أنارَ شعاعُها ... ليلَ الأسى وجهالة الجهّالِ
صهباء يلعب بالعقول حبابُها ... كتلاعبِ الأعصابِ بالأعضالِ
في شربها القدحُ الصغير محرَّمٌ ... ويحلُّ فيها الشربُ بالأرطالِ
لا عيبَ للكيميّ في تحليلها ... الاّ امتزاج الشهد بالسلسالِ
واجلُّ انواع العلوم مكانةً ... وأهمها في الحلّ والترحالِ
عِلمٌ تصحُّ بهِ الجسوم من الضنى ... علمٌ بهِ يحيا الرميم البالي
عِلمٌ على الدين القويم مقدَّم ... أوَ ليس هذا منتهى الإجلالِ
أطبيبُ هل تدري مكانك والذي ... تجنيهِ بالاتقانِ والإهمالِ
لقد اُوتمنت على الحياة ولست تفـ ... ـديها بما في الكون من أموالِ
فامزج علاجك بالدموع لبائس ... وافضح بعلمك وصفة الدجّالِ
وتلقّ جيش الجهلِ باللطف الذي ... تعنو لسحرهِ جبهةُ الرئبالِ
وكما تصون العرضَ منك فصنهُ من ... مستنجدٍ بك من نسا ورجالِ

والهَجْ بما جرَّ التناهي من خرا ب ٍ فالطبيب مُصدَّقُ الأقوالِ
ان لم تكن هذا الطبيبَ فانني لكَ منذرٌ فينا بشرٍّ مآلِ
(*)

الدكتور — لا يروق لي قوله «ويحلُّ فيها الشرب بالارطال» لأن المقام كما لا يخفى يقتضي الرقّة والوقار و « الارطال » أولى بهـا الاسلوب الهزلي الفكاهي و يشبهها « دهليز الحيـاة » في قول بعضهم يشكو من نزلتهِ :

نزلتي بالله زولي وانزلي غيرَ لهاتي
واتركي حلقي بحقي فهو دهليز حياتي

ويحاكيها أيضاً « الموت في الجلد » من قول الآخر وقد أصبح لا يملك الاّ كتباً قديمة :

لم يبقَ الاّ كتبٌ رثَّةٌ أغلبها قد مات في جلدهِ

وهي تنظر خصوصاً الى ما جاء في أغاني الارياف كقولهم :

ألا يا بو حلَقْ طارات تبيع الورد بآرطالات

فكأن الشاعر أخذ ارطالهُ منهُ

وعليهِ فلا يصحّ ذكر « الشرب بالأرطال » او « دهليز الحياة » او « الموت في الجِلد » في معرض النصح او المدح او ما أشبههما مما يستدعي الجدّ والمهابة . وقد يُردّ ان لفظة الارطال هنا تشفع لها القافية او يغتفر لها وقوعها في مناسبـة ذكر خمر العلوم واباحة شرب الكمية

الكبيرة منها . فهذا ما لا أعتدّ بهِ وانما الذي يغتفر عندي لها ويخفّف ثقلها هو بعض واجبات الطبيب التي ذكرها الشاعر في أبياتهِ الاخيرة فأرجو اعادتها

ابن السرى (للدكتور) — ظفرتُ والفضل لله وحرمة العلم بعودتك الى عادتك في الأدب بعد اعراضك عنهُ

(فضحك الجميع وبعد ان لبى ابن السرى طلب الدكتور مال السرى الى الاستاذ وقال له بصوت منخفض « يظهر ان الدكتور كان من عشاق الادب ولم يصرفه عنه الا سبب قوى ولكننى اخشى ان ملاحظته الاخيرة لا تنطبق على ما قررته اليوم قبل مجيئه عن الانتقاد المعتدل » . (فاجابه الاستاذ) انى لا أرتاب فى أدبه واعتداله ويقينى انه لو تنبه قليلاً لما فاه بهذا كله وانما ساقه اليه تغيظه ممن درجه دون ان يشعر الى العودة لمطارحة الادب بعد ان آلى ألا يرجع اليها ولكن سوف يهدأ باله ، ويثوب اليه اعتداله ، «وانما الامور بخواتيمها» . ثم عاد الاستاذ الى ما كان فيه من البحث)

الاستاذ (للدكتور) — قلت ان منزلة التبرج وغيره من المساوىء النسائية من عدم التربية منزلة الأعراض للامراض في صناعتكم الشريفة فانكم تتوخون اولاً معالجة الداء الذي احدث الاعراض . فاذا كانت الحمى مثلاً عرضاً لمرض مخصوص رأيتم ان معالجتها اولاً او وحدَها لا يُجدي شيئاً ووجهتم العناية والعلاج الى استئصال شأفة المرض الذي نشأت الحمى عنهُ وحينئذٍ لا تلبث ان

تزول بزواله . فهكذا التبرج وغيره من المساوىء النسائية فهي اعراض ناشئة عن امراض التربية ولا تزول الآ بمعالجة تلك الامراض التي أحدثتها . وكما ترون ان استعمال الوسائل الواقية من الامراض الجسمية قبل حصولها أسلم عاقبة من علاجها بعدهُ وان معالجتها في أول أدوارها و بدء ظهورها أدعى لشفائها من معالجتها بعد إزمانها . هكذا الرأي في النقائص الادبية والاجتماعية على الاطلاق فانها تُتَّقى منذ الصِغر بالتربية الصحيحة . ومباشرة التربية في هذا الابّان على سبيل الوقاية خير ذريعة يؤمَن بها شرّ هذه النقائص في المستقبل . وتُعالج هذه النقائص أيضاً مع أمل الشفاء او ترجيحه في أول أدوارها وعدم تأصلها ثم يتعذَّر شفاؤها او يُرجَّح بقاؤها متى أزمنت وتأصلت

وكما فعلنا آنفاً بشأن الحجاب نفعل الآن اذا شئتم بالتبرج فعدم تعرُّض الكاتب له لا يمنعنا من التأمل فيهِ بالاختصار

الدكتور والبقية — تفضَّل فهذا منانا

الاستاذ — كل عائلة غربية راقية رقياً صحيحاً لا سطحياً تجري في زيّها وحُليّها على قاعدة تنحصر في ثلاث كلمات وهي : البساطة والنظافة والنظام . وليس اكثر من الادلة التي تؤيد صحة هذه القاعدة وتوجب اتباعها على كل فتاة ولكن حسبنا ما قرَّرتهُ مؤخراً الملكة ماري عقيلة ملك الانكليز الحاضر في هذا الصدد وهو ما يأتي : ان جلالتها رأت البذخ والاسراف اللذين تمادت فيهما الانكليزيات

الغنيات فرامت ان تعلمهنّ الاقتصاد وان تكون قدوة لهنّ في ذلك فأصدرت أمرها بأن لا يدخل الى بلاطها الاّ السيدات اللواتي لا يتطرّفنَ في تحدّي الازياء والبهرجة والزينة ثم اصدرت امراً منذ عهد قريب قالت فيهِ انها لا تأذن لسيدة ان ترتدي ثوباً ضيق الاطراف والحواشي يُكشف بهِ قسم كبير من أعلى الصدر والظهر حول العنق او تضع على رأسها قبعة كبيرة في الدخول الى بلاطها . وانها تتكدر من كل سيدة لا تدلّ ملابسها على الحشمة والاقتصاد . وان التي لا تتبع الازياء تلقى منها التفاتاً خاصاً . ثم انها تصوَّرَت بثوبٍ بسيط جداً لتكون قدوةً فيهِ للانكليزيات الغنيات . وزدْ على هذا كلهِ انها حظرت الدخول الى بلاطها على كل سيدة تدهن وجهها او شفتيها او تصبغ شعرها او تزجّج حاجبيها وصرَّحت انها لا تريد ان ترى بقربها سيدةً تدخّن . وقد وافقها جلالة الملك على كل ما تقدَّم (مقطم ٢٨ يونيه سنة ١٩١١)

وفضلاً عن نهي الدين[١] عن التبرُّج وعدا الاضرار التي

(١) شواهد الدين الناهية عن التبرج كثيرة نجتزى منها بما جاء فى التوراة من كلام اشعياء النبي عن وصف التبرج الشبيه بالجارى فى ايامنا وجزائه الصارم . وهو قوله عن نساء عصره « من اجل انهنّ يتشامخن ويمشين تمدودات الاعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخشخشن بارجلهن . . . . ينزع الله فى ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والاساور والبراقع والعصائب

تلحق بالصحة والآداب والمال منهُ ومن اتّباع الازياء فهنالك حقيقة راهنة قلما يُلتفت اليها مع انهـا غاية في الأهمية وهي ان المرأة تشوّه بتبرجها محاسنها الطبيعية وتدلّ بهِ على صغر عقلهـا وتعرّض نفسها لاحتقار كل ذي ذوق سليم . أما اذا كانت دميمة لا محاسن لها فاقلُّ ما يقال فيها اذا تبرَّجت « وهل يُصلح العطارُ ما أفسد الدهرُ »

***

وضع العربة امام الحصان — محضر خير — فى سبيل
حب الوطن والامة — حتى فى الحلم ! — قيمة
الانسان — تنبه ودعاء

جار السرى (للاستاذ) – ليت شعري ما قول الاستاذ فيما سبق الارجوزة من الفصول النثرية وهي أطول من الارجوزة نفسهـا . فاذا كان ذلك النثر مقدمةً لا شرحا كان أشبه بالضباط الامريكيين الذين يزيدون عدداً عن جنودهم . واذا كان شرحاً لا مقدّمةً كان وضعهُ قبل الارجوزة لا بعدها بمثابة وضع العربة امام الحصان على غير الوجه المألوف

الاستاذ — ان صاحب الكتاب قال فيما اذكره من مقدمتهِ

والسلاسل والمناطق . . والثياب المزخرفة فيكون عوض الطيب عفونة وعوض المنطقة حبـل وعوض الجدائل قرعة وعوض الديباج زنار وعوض الجمال كى » اش ٣ : ١٦ . ٢٤

ما يفيد اولاً ان الذي حدا بهِ الى وضع هـذه الفصول النثرية هو شعوره بلزوم ذكر الاسباب المؤدية الى ضروب التناهي . ثانياً انهُ قدَّم النثر على الارجوزة تقديم السبب على المسبَّب اي ليقوم مقام تمهيدٍ لها

ومعلوم ان قلة عدد الجنود وكثرة عدد الضباط يلزم عنهما ان الضابط قد لا يجد مَن يصدع بأمره في معمعان الحرب. ومعلوم ايضاً ان وضع العربة امام الجواد الذي يجرُّهـا يلزم عند عدم مسيرهما كليهما ولكني لا أرى من أي وجه ينطبق تشبيهك هذا على كلام منفصل وضع لغرض مخصوص كما قدمت فسيَّان تقدم او تأخر ، قلَّ او جلَّ

فلعلَّ ما ترآى لك من المخالفة في الوضع والتضارب في الكمية يطابق صورة موهومة تخيلتهـا في كلام الكاتب ورسخت خطأً في ذهنك او أحدثها اعتقادك ان الخروج عن المعتاد مهما وجب وأفاد هو جريمة لا تغتفر . أما اذا كان فيما قدَّمهُ او أخَّره ما تقل افادتهُ أو تملُّ اعادتهُ فانت أحرى ببيانهِ اذ يبدو من كلامك انك قد اطلت التنقيب في هذا الكتاب، وعرفت ما يُعاب منهُ و يستطاب

الجار — لم أتصفحهُ مليًّا كما تظن ولكني رأيت الكاتب يستنهض في موضع منهُ سُراة الأمة لانشاء مدارس حديثة للبنـات يتبع فيها ما يرتئيهِ من المبادئ في نظامها وان يُنفَق على تعميم هذه

المبادئ في جميع مدارس البنات الأخرى فلعل هذا احدى الفوائد التي يجب ألاّ تفوت جناب سرّينا الاكرم

الدكتور (**وقد علم حيلته وما يرمي اليه**) لا إخال سراتنا وسرّينا في مقدمتهم الا مقدرين ما عليهم من المسؤولية قدرها . ألا يجب على كل منهم ان يهتمّ بمصالح قومه ويرحّب بكل وسيلة تؤدي الى رقيّهم ؟ أوَ حبُّ الوطن ايضاً من الارتجاعيات ؟ أليس هو أول ما يُفتخر بهِ في كل زمان ومكان ؟ أفلا يجب اذاً على كل فرد عموماً وكل موسر خصوصاً ان يجود بأعزّ ما لديهِ لترقيـة شؤون وطنه الذي يحبهُ ؟

قيل ان الجود بالموجود غاية الجود :

ليس العطاء من الكثير سماحةً حتى تجودَ وما لديك قليـلُ

ولكنك لو سألت أميًا ساذجاً او عالماً عظيماً ما رأيهُ في فقـير مُعوز لا يملك من حطام الدنيا الا درهماً واحداً فهزتهُ اريحيته الوطنية فبذل هذا الدرهم لغرض من أغراض وطنه لأجابك كلاهما على الفور ان هذا الفقير لم يأتِ ببذله هذا الدرهم الذي لا يملك سواه الا بعض ما يجب عليهِ بل لو سألت الفقير نفسه لأجابك بنفس هذا الجواب ، وزادك انهُ نال من مدح ضميره له أعظم ثواب . ومن ثم يظهر لك بالقياس والمقابلة انهُ يُنتظر من كل مثرٍ مهذّب يعرف ما عليهِ لله ولنفسه ولبني جنسه ان يبذل النفس والنفيس في حبّ وطنه

او على الأقل ان يجود بقليل من الكثير الذي ناله من خير بلاده .

(**ثم التفت الدكتور الى الاستاذ وقال**) أيذكر استاذنا ما قاله زهير بن أبي سلمى في هذا المعنى ؟ (**فاجاب الاستاذ**) نعم . قال :

ومن يكُ ذا فضلٍ ويبخلْ بفضله على قومه يُستغنَ عنــهُ ويُذمَمِ

السرى (**لابنه**) — هل قرأت هذا الكتاب ؟

ابن السرى — نعم قرأتهُ أنا وشقيقتي الكبرى ولكن لو شرع سيدي الوالد في قراءتهِ ، كان ذلك أوفى بغرض الكاتب وأدعى لنيل أمنيته (١)

---

(١) تقرر والكتاب تحت الطبع ان يختص المجلس الملى القبطى بالنظر فى شؤون بعض الاوقاف القبطية التى يبلغ ايرادهــا السنوى اربعين الف جنيه وقيل ان جميع هــذا المبلغ ينفق سنوياً فى ابواب لا تسمح باقتصاد شىء منه فى الوقت الحاضر

ولما كانت حاجة الفتاة المصرية الى الاصلاح متعددة الوجوه شائعة فى اهم عناصر الامة شاملة كل البلاد ولا تستلزم المساعدة المادية فقط بل الادبية ايضاً ولا تحتمل التسويف والتأجيل ، الا بتضحيتها من مستقبل البلاد كل شريف جليل ، كما سيمر بنا فيما يأتى بالفصلين الرابع والخامس كان لا حيلة ولا وسيلة للفتاة المصرية تلقآء هذا كله الا التطلع الى جميع افراد الامة ولاسيما وجهاءها وغيوريها كاعضاء هذا المجلس الجديد الذى نأمل ان يوفقه الله الى انمآء هــذه الارزاق وتحسينها ، وان تلقى الفتاة منه نصيراً كريماً لا تنقبض كفه عما يعينها

السري (*لابنه*) — مَن صاحب الكتاب؟ هل كان في ...؟ هل هو حائز على . . . ؟ هل يملك . . . ؟

جار السري — كِلِ الجواب عن ذلك اليَّ ، فسأتحرى من الغد عمَّن هو وأُوافيك عن قريب بجلية أمره

الاستاذ — وأنا ايضاً عنَّ لي سؤالٌ مَن أجابني عنهُ وأجاد ، شكرت له من صميم الفؤاد . وهو قول الشاعر :

هل قيمة الانسان ما يُكنى بهِ ويخزنهُ (*)

الدكتور مرنجلاً : لا بل سجاياهُ وما يُعنى بهِ ويُحسنهُ (*)

الاستاذ — أحسنتَ! أحسنتَ ! ان هذا المجلس لسعيد بأن عدتَ فيهِ الى قديمك

ابن السري — أما أنا فلا يمكني ان اعبّر عن سروري بهذه العودة السعيدة

الدكتور (*لابن السري*) — لا تطمع مني في العودة الى الكلام بدون احتشام الاَّ في مجلس أبوك اميرُه ، وأستاذك سميرُه

السري (*للدكتور*) — حبَّذا لو أشرق بيننا كل يوم نور

على اصلاح شؤونها ، ولا تصم اذنه عن شكواها وأنينها ، وهو الخليق ان يدوم لها وفياً مهما حظيت الاصلاحات الاخرى لديه ، وزاحمت الفتاة عليه ، لان اعظم ما يسديه اليها من هذا القبيل لا يوازى بعض ما سوف تسديه برقيها اليه (المؤلف)

محيّاكَ البهيّ ، وأطرفتنا بحديثك الشهيّ ، (ثم قال لابنهِ) عرّفنا الآن قيمة الانسان ولكن ما كان هذا ليمنعك من الاستفهام عن صاحب الكتاب

جار السرى — أخشى ان ولدك لا يستطيع ان يأتيك عنهُ بالخبر اليقين اذ يغلب انهُ يرحل في ذلك الى ناظر مدرستهِ واستاذهِ السابق الذي قيل لي انهُ زميل قديم ، وصديق حميم ، لصاحب هذا الكتاب . ومتى عرفت ذلك وذكرت ان ولدك من المعجبين بحجّة ذلك الأستاذ و بيانهِ ، وأدبهِ وعرفانهِ ، عدلت عن انفاذه ليتعرّف لك الخبر ، ورأيت اني على ذلك أقدر ، و بهِ أجدر

ابن السرى — احلم سيدي !

الجار — حلمت

صاحب الكتاب — تنبهتُ وأنا اقول : اللهمَّ لا تسمح ان تُظلم لعيبٍ فيّ ، فائدة خطَّها قلمي او لفظها فيّ ، فاني لا ادَّعي العصمة في عمل يُعمل او كلمة تُقال ، وانما شفيعي حسن قصدي فلعلَّ عثرتي من أجلهِ تُقال

الكتاب الأول

في

الفتاة

وهي الحلقة الاولى من سلسلة الرقي والاعتدال

القسم الأول

بحث في تهذيب البنات الحاضر
ونتائجه من الوجهتين الاجتماعية والاخلاقية
وفي وجوب الاصلاح ووجوهه

القسم الثاني

رواية شعرية
في الفتاة العصرية . وتناهيها في الحرية

بحث

في تهذيب البنات الحاضر

ونتائجه من الوجهتين الاجتماعية والاخلاقية
وفي وجوب الاصلاح ووجوهه

الفصل الأوّل

التمدن والحرية والفتاة

ويلاه ويلاه من هذا التمدن كم اردى الورى واعاد العيش فى ثقل
لولاه ما طمعت نفس ولا طمحت عين ولا زلقت رجل الى الزلل
(مراش)

ألا اعتدال يداوى ما اصاب به هذا التمدن جسم الشرق من علل
(*)

فقال ما اعظم مسؤولية جنسكن اللطيف لأن نفوذكن لا يستقصى فهلا وجهتنه لما فيه الخير والاصلاح (توئيل)

مَن أنعم النظر في تمدن العصر الحاضر وقابل بين ما بلغهُ كل من الغربيّ والشرقيّ من الرقيّ رأى رغماً مما اشتهر من تفوُّق الاول

(*) انظر الحاشية فى الصحيفة ١٦

وتقصير الثاني ما يصحّ معهُ نسبة التقدم والتأخر لكليهما . فللشرقي أحوال يغبطه عليها عقلاء الغربيين . منها ما يُعزى اليهِ من الاحتشام والتعفف عن المسكر . وهما أمران وان أصبحا عندنا أثراً بعد عين وأوشكا ان يكونا سواء والعدم فما زال عقلاء الغربيين يتمنون نظيرهما ويتأففون من تفشّي نقيضهما بينهم الى حدّ يكاد يقوّض بنيان اجتماعهم ويذهب بسعادتهم العائليـة . وهذه نتيجة لازمة لا بدَّ منهـا لكل حضارة واسعة لا تقف عند حدّ الاعتدال . وللشرقي عوائد واحوال اخرى مخصوصة يعترف الغربي بأفضليتها ولكنها آخذة في الاضمحلال والتحوُّل الى نقيضها بفعل المؤثرات الغربية

اما ما يُغبَط الغربي عليه فكثير نذكر منهُ التهذيب والحريّة ، فهذان أمران لا يتمُّ رقيّ بدونهما ولا سيما الأول فانهُ مصدر الثاني . وقد بلغ الغربيون أوج هاتين المزيّتين وانما تعدّاهما بعضهم من وجهة الافراط فانقلبتا معهم الى ضدّهما وذلك لأن موضعهما الطبيعي هو بقية المزايا الحميدة في الوسط بين نقيضين وهما الافراط والتفريط كما تقدم في حديثنا العام عن الاعتدال . فبمقدار ما يتعدّى طالبهما حدّ الوسط يذهب طبعاً الى أحد هذين النقيضين

اما نحن فلم تتمّ لنا هاتان الحظوتان جرياً على المبدأ عينهِ مع ما هنالك من التفاوت في المدنية . فمنّا من يتقي هاتين النعمتين جهلاً بقيمتهما وخوفاً من نتائجهما فيظلّ بعيداً عن الوسط الواجب ويقع

تحت طائلة التفريط . ومنا من يحاول الوصول اليهما دفعةً واحدة بدون اعتدال او مراعاة الزمان والمكان فيقع في الافراط

ولذا تعيَّن على طالب هذين الخيرين أي التهـذيب والحرية الصحيحين ان يتذرّع اليهما بالاعتدال مع مراعاة الزمان والمكان والسكان . وان يحذر التهور فيهما او اتيانهما من غير مأتاهما . والاَّ حُرم فائدتهما بتفريطهِ او حوَّل الفائدة ضرراً بافراطهِ

والحرية هي هي في كل أينٍ وآن تُشقي وتُسعِد وتُذَمّ وتُحمَد بحسب تناول طالبها لها . ويخيّل للبعض انهم يكونون احراراً متى اصبحوا في غنىً عن غيرهم من الناس وهـذا وهمٌ باطل اذ لا يكاد الانسان ان يسلم في أي حال او نسبة من احوالهِ ونسبهِ الحيوية الخصوصية او العمومية من الافتقار الى غيره من الناس ولا انفكاك لهذه النسب الحيوية الاَّ بالموت . قيل سمع عمر (رضه) قائلاً يقول اللهمَّ أغنني عن الناس فقال له « يا رجل أراك تسأل الموت قُل اللهمَّ أغنني عن شرار الناس . فالناس لا يستغني بعضهم عن بعض » هذا من حيث نسبة الانسان لغيره من بني نوعهِ اما من حيث هو في ذاتهِ فان شهواته أقسى سيّدٍ له واذا استسلم لها وأنالها سؤلها كان في الحقيقة اذلّ من عبد الرقّ واسوأ منهُ حظاً وذلك لكثرة ساداتهِ ، بقدر عدد شهواتهِ ، فانَّ كلاً منها يتقاضاه في خدمتهِ النشاط والأمانة ، ويسومهُ جزاء تلك الخدمة صنوف العذاب والاهانة ، فلا بدَّ ان يطأ بقدميهِ

مبادئ الشرف ويقضي على راحتهِ وسعادتهِ ولا يلبث ان يرى انَّ ما ظنهُ حريةً هو الرقّ بعينهِ

أما الحرية الصحيحة فهي اتّباع الفضيلة والامتناع عن الرزيلة او هي ما عبَّر عنها الكتاب بمعرفة الحق واتّباعهِ في قوله « تعرفون الحق والحقُّ يحرّركم »

انما الصالح العفيف هو الحـــرُّ وان كان عبدَ رقٍّ مُهانا
والذي يعتادُ المعاصي هو العبـــدُ وان عدَّه الورى سلطانا (*)

ولما كان من حدود الحرية قدرة الانسان على فعل ما لا يضرُّ بنفسهِ او بغيره كان منح الحرية المطلقة للفتاة الى حدّ تركها واجباتها النسائية ومحاكاتها الرجل في اعماله المختلفة التي لم تخلق لها ضارًّا بهـا وبالاجتماع الانساني لما يلحق ذلك الاجتماع من اهمالها لتلك الواجبات التي يترتب على حسن قيامهـا بها سلامة كيانهِ ورفاهيتهِ . وهذا هو الضرر الذي يشكو منهُ اليوم عقلاء الغربيين ويشتدّ بينهم تياره ويُخشى ان يسوق كل البلاد امامه بعوامل التقليد والمحاكاة ان لم يُحذر من غائلتهِ ويُنهض لمناضلتهِ

وليعلم القارئ ان حالة الفتى ليست أدعى للاطمئنان او أقل استيجاباً للنصيحة من حالة الفتاة بل بالعكس فحالتهُ في اعتقاد كل عاقل توجب مزيد القلق كما سنبين ذلك في الفصل التالي عند المقابلة بينهُ وبين الفتاة . وانما بدأنا بالفتاة لأن نكبتنا فيهـا أعظم وبلاءنا أعمُّ .

ولاسيما لأنهُ قد بُدئ حديثاً في التفكير عن مدارس لها كلية واتجهت العناية لذلك على نوع يؤذن بتغيير حالتها تغييراً عظيماً . وهذا التغير كما يؤمل منهُ حسن العاقبة يُخشى منهُ ايضاً سوءها بقدر ما يلازمه من الاعتدال او الخروج عن حدوده

لأنَّ صلاح الأمر يرجع كلُّهُ فساداً اذا الانسان جاز به الحدَّا

فرأيت ان تقديمي الكلام عن الفتاة فيهِ من التذكير والتحذير لأُولي الافهام ، ما هو أولى بالذكر وأنسب للمقام ، أوَ ليست هذه هي مُنيتنا الكبرى التي طالما تقاربنا اليها فتباعدنا ، ونهضنا لها ثم تقاعدنا ، مع شدة افتقارنا اليها ، وتوقُّف رقيّنا وسعادتنا عليها ، فحاشا ان تتوالى بيننا لهذه الغاية النهضات ، ويقال عنا في النهاية ما هو آت : —

ذهب الناس في الزيادةِ والنقـ ـصِ وعبد الحميد عبد الحميد

ولا أخصّ بكلامي عن الفتاة وتهذيبها فئة مخصوصة وطنية او أجنبية ولا معهداً معلوماً اميرياً او أهلياً لأنهُ مع ما هنالك من التفاوت بين هذه الفئات والمعاهد المختلفة من حيث الاتقان فليس فيها على اختلاف طبقاتها ما تحتاجهُ الفتاة من الاهتمام الواجب والاسلوب المأمون الكافل بتدريجها في معارج التهذيب الانثويّ المحض وبايصالها الى المنزلة الشريفة التي جُعلت لهـا بحيث تُحمد مغبَّة تربيتها من كل الوجوه

انما أسوق حديثي الى الأمة المصرية بأسرها واخصّ منها فريقين

من الجنس اللطيف : الفريق الاول السيدات والآنسات اللواتي تهذبنَ وعرفنَ ما يجب لهنَّ وعليهنَّ . ولا تقُل ان الاعتدال قد ذهبت اربابه فلا تزال من ربّات الاعتدال بقية في كل زمان ومكان وهنَّ وان كنَّ قليلات العدد ترَهنَّ متى ذُكر أمامهنَّ الاصلاح لاخواتهنَّ هششنَ لذكره ولا هشاشة الرضيع لثدي أمه ، وفرحنَ بهِ ولا فرح العليل بتمشي البرء في جسمه . والفريق الثاني الذي أخصُّه بكلامي هو كل تلميذة مصرية أيًّا كانت وايّان توجد

فبنفوذكنَّ أيتها السيدات والآنسات والتلميذات المصريات النجيبات يؤمل انتشار الاصلاح النسائي في هذه البلاد ولكُنَّ خير أسوة في اختٍ مصرية عريقة في المجد والمعالي سبقت فمهَّدتْ لكنَّ سبيل هذا النفوذ في أوائل القرن الماضي ، ولا ريب انها أول فتاة مصرية عرفت قيمة التهذيب المعتدل لبنات جنسها وبزغت من خدرها الأسنى شمس التربية النسائية الحاضرة مرةً ثانية بعد ان سطعت في أيام جدّاتكنَّ ثم أفلَت بعدهنَّ أفولاً . وأنا ذاكر لكنَّ هذا الخبر برمَّتهِ معرَّباً عن كتاب لاحدى السيدات الأمريكيات طُبع في أوائل القرن الفائت

قالت هـذه السيدة تحت عنوان « واجب الابنة ونفوذها » :

« ان الأمير المعظم محمد علي باشا الذي تغلَّب بقوة عقـله على الأوهام الاجتماعية قد عزم من عهد قريب على ادخال طرق التهذيب

الحديثة بين كريماته كما يظهر مما كتبهُ في هذا الشأن حضرة حقيقيان افندي احد المقرَّبين من سمو الأمير الى السيدة هليداي الانكليزية يدعوها فيهِ للقيام بتعليمهنَّ وهو ما يأتي :

« ان هذا العمل لطليعة مباركة للتهذيب النسائي في وادي النيل فالجناب العالي يفكر في أعمالٍ عظيمة كثيرة تعود بالنفع على البلاد وقد عقد النية على ان يبدأ في أُسرتهِ الكريمة بتجربة أهمها وأعظمها نفعاً . واعلمي ان تعميم التعليم النسائي بيننا يتوقف على استحسان كبرى كريماتهِ لِما انتُدبتِ لعمله فاحرصي اذاً ما استطعتِ على كسب رضاها »

ثم كتب حقيقيان افندي ثانيةً للسيدة نفسها يقول :

« قد أوعز اليَّ سمو الأمير قبل رحلتهِ الميمونة الى الوجه القبلي ان أُعلم حضرتكِ بأنهُ اطَّلع على الاشغال اليدية والرسوم وغيرها مما تفضلتِ بارساله ويرغب في ان تزوري كريمته الكبرى الأميرة نظلي هانم لترشديها الى المنهج الذي ينبغي لها انتهاجه في تعليم أنجاله . وأنا اهنئك بهذه الفرصة السعيدة التي تسنَّى لكِ فيها نشر نعمة التهذيب في أشرف الأسر المصرية وأكرمها محتداً . فان النتائج الجليلة التي تنجم عن ادخال وسائل الرقيّ في هذه الأسرة لا تقوَّم . ولا مرية في ان الأميرة نظلي هانم تحترم رأي والدها كل الاحترام وتعمل على تقديم ارادته في كل أمر فيستحيل ان تقوم موانع من قبلها ولن يحتمل ان يحدث شيء من هذا القبيل الاَّ ما قد تبديهِ المعلمات من المقاومة البسيطة »

« اني لسعيد أن يُعهَد لي تنفيذ رغائب الجناب العالي فيما يؤول الى هذا الرقيّ بمصر . ولقد أفضى بي التأمل فيما تحققتهُ بطبيعة وظيفتي الى أن أعظم سبب يُعزى اليهِ انحطاطنا هو عدم توفر شروط التربية الادبية السديدة بين نسائنا . ويقيني اننا كلما ثقفنا عقولهنَّ وأوقفناهنَّ على أسرار الطبيعة وجمالها بتدريسهنَّ العلوم النافعة كشفنا لهنَّ الحجاب عن حكمة الباري وصلاحه . وبهذه الوسيلة أيضاً يُزحزح النقاب عن أغلاطنا فتنكشف لنا وتصرخ حينئذٍ ضمائرنا مناشدةً ايانا أن ننبذ هذه الأوهام والاغلاط ونتجافى عنها . وهكذا بتثقيفنا عقول نسائنا وتعويدهنَّ على الاشغال المفيدة والمستحبَّة لديهنَّ يسهل لهنَّ اتقاء المخاطر والمصائب التي يجرُّها الجهل وتتأتى لهنَّ النجاة من الحبائل التي ينصبها لهنَّ الكسل لأن التعوُّد على النشاط والنظافة والنظام مما يزيد في السعادة العائلية . وهذه الوسائل لا ترقّينا وتصيّرنا أحسن مما نحن فقط بل تضمن أيضاً لأولادنا التربية القويمة الصالحة التي هي أحسن زادٍ يتزوَّده أهل الحياة الدنيا لحياتهم الأخرى ، بل بدونها لا تمحى الآثار السيئة التي تلحق بالناشئة في سني حداثتهم مهما بولغ في معالجتها ومهما استُعين على نزعها في مستقبل الأيام »

نستخلص من هذه الرسالة ما يأتي :

أولاً — ان العامل الأول في ادخال التهذيب النسائي العصري الى العائلة الخديوية بمصر هو رغبة هذه الكريمة وميل والدها الى تنفيذ

هذه الرغبة لتغلبه بقوة عقله على الأوهام ولمعزّته لابنتهِ وهذا ما سمّتهُ الكاتبة الامريكانية « واجب الابنة ونفوذها » . وان هذا النفوذ ظاهر في قول حقيقيان افندي في كتابه الاول للسيدة هليداي وهو : ان تعميم التعليم النسائي في مصر موقوف على استحسان كبرى كريمات الامير . ولا يخفى أن الاصلاح من أشرف واجبات كل ابنة شريفة وهو أحوج الشؤون الاجتماعية الى نفوذها العظيم

ثانياً – كانت هذه النهضة حميدة لجمعها شروط الاعتدال المطلوبة ، كتعليم النساء للنساء ، واحضار المعلمات من أوروبا لا ارسال الفتيات اليها كما يرتئي البعض (انظر الفصلين الرابع والخامس)

ثالثاً – يُرجّح ان الذي منع هذه النهضة من أن تعمّ وجعل سيرها بطيئاً ومقتصراً على بيوت الأعيان وذوي المكانة هو معارضة المصريين لها ومع ذلك كانت هذه النهضة كالبذار المزروعة في أرض جيدة فان لم تكن أفضَت الى هذه اليقظة الحاضرة فعلى الاقلّ قد أزالت من امامها كثيراً من الموانع وهيّأت لها العقول

فاليكنّ أيتها الآنسات المصريات اللواتي منكنّ الرقيّ يُنشد ويعهد ، وبنفوذكنّ يُشيَّد ويؤيَّد ، أوجّه كلامي توجيهَ من بكنّ استنجد ، وعليكنّ اعتمد ، في اظهار الغاية السامية التي لأجلها تحيا كل فتاة ونحوها تسعى وبها تسعد ، وفي دحض كلّ رأي فائل لا تؤمن مغبتهُ ولا تُحمد ، مع الأمل انكنّ تنهضنَ بأوطانكنّ من مهاوي

التأخر في أقرب أمد ، وان تُضنَّ باعتدالكنَّ معامي التناهي والضلال
اضاءة من استمدَّ فأمدّ ، واسترشد فأرشد ، وان تبلغنَ بنا عند
الختام أقصى مرامي المرام في الطريق الاقصد

الفصل الثانى

التأنث والترجل

ولو جاز حكمى فى الغابرين وعدلت اقسام هذا الورى
لسميت بعض النسآء الرجال وسميت بعض الرجال النسا (١)

جبل الرجال على كراهة النسآء المترجلات والنسآء على كراهة الرجال المتأنثين (جرنيه)

جَعلت الطبيعة بين الرجل والمرأة حدوداً مميَّزة لا يتخطَّاهـا

---

(١) هذان البيتان من قصيدة لابن هانى شاعر المغرب رثى بها والدة احد امرآء بلاده . ولو علم هذا النابغة أن تشبه النسآء بالرجال سوف يتجاوز بعد عصره ما يحسن وصفهن به من الصفات الرجلية اللائقة بهن كالحزم والفضل والتعقل وسوف يبلغ ببعضهن الى حد الترجل وضياع الاناثة لتجنب جهده التسمية الواردة فى هذين البيتين خشية ان يستخدمها مثلى فى غير ما وضعت له من المدح . اللهم الا اذا كان قد قالهما على سبيل النبوءة عن الترجل والتأنث فتصدق اذاً عليه تسمية بعضهم له بمتنبي الغرب . ولقد أبان هذا الشاعر مقـدار شرف الاناثة واطرى وظيفة المرأة بقوله فى القصيدة نفسها

ألم ترهن يبـارينا فيمرقنا وينلن المدى
كفلن لنا بظلال الخيام واكفلننا بظلال القنا

احدهما الاَّ انحطَّت درجتهُ وسقطت منزلتهُ وعرَّض نفسهُ للسخرية والاحتقار . ولكي تتبين من طريق التمثيل نتيجة ذلك التعدّي — أي تأنّث الفتى وترجُّل الفتاة — ولو في حال واحدة من احوالها المختلفة كالزيّ مثلاً تصوَّر هرقل الجبَّار الشهير بالرجليَّة لابساً لبـاس النساء متزيناً بما لهنَّ من الحليّ . وبعد ان تترسَّم هذه الصورة مليًّا تصوَّرْ بأزائها احدى ربَّات الحجال الشهيرة بالأناثة والجمال مستعيرةً من هرقل زيَّهُ الرجليّ وممسكةً بيدها هراوتهُ . وعندئذٍ تبدو لك نتيجة تعديهما في هذا الأمر وحدَه ، وترى من دواعي السخرية والازدراء ما يغنيك عن ذكر غيره بعدَه

حُكيَ ان يزيد بن مزيد قدَّمهُ عمُّهُ معن بن زائدة على اولاده ونوَّه بهِ . فكلمتهُ امرأتهُ في ذلك فقال لها سأريكِ فضلهُ على اولادك . فبعث له ولبنيهِ ليلاً فأتاهُ بنوهُ مكتحلين متعطرين وفي الثياب اللينة بعد بطء . أما يزيد فأتاهُ في سلاحهِ ساعة ما بعث اليهِ . فقال له معن « ما أتى بك في هذه الحلية » فقال « أتاني رسولك ليلاً فخفت ان يكون قد حدث حادثٌ فأخذت أهبتهُ وان يكن غير ذلك هانَ عليَّ حلُّهُ » . فتعجبت من ذلك امرأتهُ وانقطع قولها . وفي هـذه الحادثة قال الشاعر عن يزيد :

تراه في الأمن في درعٍ مضاعفةٍ لا يأمنُ الدهرَ ان يُدعى على عَجَلِ

(ابن الوليد)

ألا تمثّل لك هذه القصة أيها القارىء بعض فتيان هذا العصر الذين لا همَّ لهم الاّ محاكاة النساء في تجعيد الشعور وفرقها ، وتتبُّع أحدث الأزياء وموٴنقها ، والتعطُّر بأذكى الروائح وأعبقها ، والتختم بأسطع الجواهر وأبرقها . فما اصدق ما وصفهم بهِ الشاعر العصري حيث قال :

فيا لله أيَّ فتىً أراهُ كما انعطفَت بشاربها الخمورُ
كأن الحليَ يبرق في يديهِ لتكمدَ من تلألئهِ النحورُ
ألا أبقوا الحجاب على الغواني قد اشتبَهَ الحمائمُ والصقورُ

(الرافعي)

فماذا يبعث هذا الفتى على التشبُّه بالغواني ؟ أهو طمعه في استمالتهنَّ بتبرُّجهِ مثلهنَّ ؟ اذا كان هذا كل ما يرمي اليهِ فقد أخطأ المرمى لأن النساء انما يحترمنَ من الرجل رجوليتهُ الكاملة ويحتقرنهُ بقدر ما يشذُّ عنها او يتجرَّد منها ولا سيما بتأنُّثهِ الذي لا أدلَّ منهُ على ضياع تلك الرجولية . قال الدكتور جارنيه في كتابهِ عن الرجل والمرأة « جُبل الرجال على كراهيَّة النساء المترجلات والنساء على كراهية الرجال المتأنثين » . أما اذا وُجد بين الفتيات من تروقها هذه الزينة في الفتى وتنخدع بها فانما يكون ذلك لبقية صِغَر في عقلها تدفعها الى استحسان ما يماثل الألعوبة (العروسة) التي كانت تلهو بها في غضاضة حداثتها ليس الاّ

أجَلْ . ان الذي يبعث هذا الشابّ على تبرجهِ هو طمعهُ في

استمالة الفتاة بهذا التبرُّج . فمن اليقين ان هذا الشابّ عينهُ هو الذي يتحرش بالنساء في الطرقات ويخاطبهنَّ بكلمات البذآء تارةً والاعجاب والاستلفات أخرى . وهو وان كان متمتعاً بوجودهِ في عصر التمدن والعلم الاكمل ومن أمثالهِ ستتألف مصر المستقبلة فهو خالي الوفاض من كل معرفة صحيحة وصفرٌ من المروءة لا يدري من معانيها الشريفة ما دراهُ وأتاهُ عبد اسود من أبناء الهمجية والعصور المظلمة كعنتر ابن شدّاد القائل :

وأغضُّ طرفي ان بدَت لي جارتي حتى يُواري جارتي مأواها

ولا يحسبنَّ القارىء ان ما يُعزى لهذا الفتى من التحكك بالفتيات لا دليل عليهِ الاّ ما يُستنتج من تبرجهِ بل هي نسبة حقيقية لا ظلمَ فيها تؤيدها شهادات المحققين وأرباب النقد الصحيح نذكر منها ما كتبهُ وليّ الدين بك يكن جامعاً بين تبرُّج هذا الفتى وتحرشه بالنساء قال : « يهبُّ حضرة الشابّ المهذَّب من نومتهِ ضحًى وكلُّه شعر وخيال واعجاب وكبرياء . انفضَّت من حولهِ وساوس الليل وأحاطت بهِ عمايات النهار . على جدار غرفته مرآة وفي جيبهِ مرآة . اذا أعوزتهُ واحدة أغنتهُ الثانية . ما يفرغ من الزينة والتجمل الا اذا فرغ جهده . ثم يخرج مختالاً مُدلاً يكاد من ليانهِ ينهصر . الى أين يذهب سيدنا . يذهب الى حيث يَعشق ويُعشق أو يحدّث بأحد هذين الخبرين. ومن هؤلاء أناس تعتادهم نوبات من الجنون فلا يعرفون

ما يقولون . وهذا الشاب ليس على وجه الارض غانية الا وهي كَلِفَة بهِ . كل ابتسامَة اليهِ مرجعها وكل تنهد هو مثيرُه »

وليت المصيبة في هذا الفتى لا تتعدى عدم نفعهِ لبلادهِ بل للأسف نفعه معدوم وضرره محتوم . فمنزلتهُ من سفينة الهيئة الاجتماعيـة منزلة الأرَضة التي ان لم يبادر الربَّان بتلافيها أغرقت السفينة ومن فيها

وليعلم القارىء اني لم أتعمَّد الكلام عن تأنُّث فتياننا وانمـا اضطرتني لذلك المقابلة بينهم وبين فتيات العصر والاّ فخالة الفتى وما يُحيط بهِ لما يستدعي كتاباً قائماً بذاتهِ . على انهُ ليس من العدل ان نقتصر على اظهار عيوبهِ دون أن نذكر معها حقيقةً راهنة وهي ان اللوم في اتصافهِ بهـذه الصفات المعيبة وتعرّيهِ من السجايا المطلوبة ليس مرجعه اليهِ وحدَه بل اكثر اللوم راجع الى نقص التربية الحديثة وتغلُّب الوسط المعيب عليهِ بقوّة تأثيره بحيث ينطبق عليه قول الشاعر انطباق الحافر على الحافر :

استاذه الزمن المعيب وللفتى ... شِيَم تلوح عليه من استاذه
(ابن ساره)

قد عزا العلامة هربرت سبنسر فساد التربية العقلية والاخلاقية والبدنية في كل من فتيان وفتيات بلادهِ الى جهل الوالدين وأغلب المعلمين بطرق التربية الصحيحة . فاذا رجع النقص في التربية عند الغربيين الى وسطٍ هو عندهم أرقى منهُ عندنا أفلا تكون تلك النسبة بنا أحرى وعلينا أصدق ؟

ونختم كلامنا عن هذا الفتى بإلفات الانظار الى أمرين : الاول — تبيَّن مما مرَّ ان في الوسط الذي يشبُّ فيهِ الفتى داءَهُ ودواءَه فحبَّذا لو تصرَّف الوالدون والمعلمون بموجب ما عليهم من المسؤولية . والثاني — حبَّذا لو استعانت الحكومة على اصلاح فتانا هذا بالغرامات الفادحة أو السجن فاذا فعلت ذلك فانما تحذو فيهِ حذو الحكومات الأُخرى مع فتيانهم . ومن هذا القبيل ما جاء في مقطم ٦ سبتمبر سنة ١٩١١ وهو ما يأتي : « تطوعت سيدة جميلة من سيدات مدينة (لُوس انجلوس) من أعمال كليفورنيا للبحث عن الذين يتحككون بالنساء في الشوارع وارشاد البوليس اليهم فنزلت الى الاسواق يتبعها اثنان من رجال البوليس السرّي . فكانت نتيجة طوافها القبض على عشرة رجال تعرضوا لها (هي) فحُكم على كل منهم بغرامة ستة جنيهات أو سجن شهر »

ولنعُد الآن الى الفتاة وهي المقصودة بالذات فنقول : كانت المرأة المصرية قديماً حاصلة تقريباً على كل المزايا التي تتمتع بها الآن المرأة الغربية ولكنها لم تخرج عن اناثتها في شيء من تلقاء نفسها ولم يكن الترجل فاشياً في عصرها ببلاد تزيد عنها تمدناً فتقلدهُ . بل كانت في كل أطوارها هي المرأة بمعنى الكلمة . وما كان تمثيل الملكات في النقوش ملتحيات الاّ مجرد دلالة محسوسة على تساويهنَّ بالرجال في حقّ الملك

وقد جاء عن نساء العرب وغيرهنَّ من الشرقيات انهنَّ كنَّ يجلسنَ الى الرجال ويناظرنَهم في العلم والأدب ومنهنَّ من اشتركنَ مع الرجال في أعمالهم الى حدّ معلوم ولكن لم يُذكر عنهنَّ ما يصحُّ ايراده مثالاً لوجود الترجل بينهنَّ بالمعنى الذي نحن بصدده أي التشبه بالرجال في صفاتهم واطوارهم واشتغالهم باعمالهم السياسية وكراهتهنَّ للاعمال المنزلية وغير ذلك مما هو شائع الآن بالبلاد الغربية وبعض الشرق . فالالفاظ العربية كالترجل والتذكّر والفحولة [1] ولفظة الاسترجال العاميَّة جميعها نسبيّة وضعت للدلالة على مجرد التشبّه بالرجال في واحدة او اكثر من الصفات الرجلية . ومن هذا القبيل حُكم الفرزدق الشاعر في قوله عن امرأة قالت الشعر « اذا صاحت الدجاجة صياح الديك فلتُذبح » فقد حكم في ذلك بالترجل على امرأة لمجرد قولها الشعر . ولو فُرض اختصاص الشعر بالرجال أو خرج بموضوعه مع النسآء عما يليق بهنَّ لا يكون قولهنَّ له الا صفة من صفات متعددة للرجال

وقد عثرتُ فيما طالعتهُ من الكتب العربية على رواية قد يُرتاب في نوع الترجل المذكور بها . فاذا ترجَّح فيها الترجل بمعانيهِ وفُرض

---

(١) ترجلت المرأة : صارت كالرجل . والمذكرة من النسآء : المشتبهة بالذكور . والفحولة هي الذكورة خلاف الانوثة . والمرأة الفحلة : هي المتخلقة باخلاق لا تليق الا بالرجال (قاموس)

أيضاً ان لها بعض نظائر فاتتني معرفتها كانت كلها بالطبع شاذّةً لا يُقاس عليها . أما الرواية فهي ما يأتي :

روى الطبراني ان ابن عمرو بن العاص رأى أُمّ معبد بنت أبي جهل متقلدة قوساً وهي تمشي مِشية الرجل فقال سمعت الرسول (صلعم) يقول « ليس منا مَن تشبَّه بالرجال من النساء ولا مَن تشبَّه بالنساء من الرجال »

ولعل حرص المرأة الشرقية على أنوثتها ورغبة الرجل الشرقي في ملازمتها لهذه الصفة هو الذي أدّى على علاّتهِ الى المثل العربي وهو « كل شيء مَهَنٌ (اي مبتذَل) الاّ النساء » ولكن ما دام التقليد مشرب الفتاة ونصيبها ، وتهذيب البنين تهذيبها (كما سيمرُّ بك في فصل عيوب التهذيب الحاضر) فلا تلبث طويلاً حتى تصير مهها ، بل سوف تُولد والترجل معها

قيل ان الترجل قديم جداً ومن ذلك ما تناقلتهُ بعض الكتب والمجلات عن أيام غابرة كانت فيها جماعة من النساء مستقلاّت عن الرجال يحاربنَهم ويعملنَ أعمالهم . ودونك ما ذُكر في التاريخ عن هذه الرواية ومنشأها :

جاء في تاريخ اليونان لمتفورْد الانكليزي وفي قاموس الخرافة لنويل الفرنساوي ان جماعات من النساء المحاربات كنَّ يسكنَّ في غابر الأيام على ضفاف نهر الترمودون بأسيا الصغرى . وكنَّ مستقلات عن

الرجال ولهنَّ ملكات تقودهنَّ في الحروب وكنَّ يحرقنَ أثديَهنَّ اليمنى لكي لا تعوقهنَّ في رمي النبال ولذا دُعينَ بالأمازون التي معناها باليونانية « بلا ثدي »

وعلَّق المؤرخ متفورد الانكليزي على هذه الرواية بقوله : ان ثقات المؤرخين مثل استرابو وبلوترخسَ وغيرهما ينكرون صحة هذا الخبر ويعدّونهُ من الأساطير القديمة . ورأى ان منشأها هو ان اللاقديمونيين أي قدماء اليونان كانوا يوجبون على النساء حمل السلاح وركوب الخيل . فتوسَّع الناس في الخبر وزادوا فيهِ ما شاءوا

واختفاء هذه الممالك النسائيّة على فرض صحة وجودها لا يخلو من أحد أمرين : الأول — انَّ خطّة هؤلاء النساء الغريبة ومغايرة استقلالهنَّ للطبيعة وعدم استطاعتهنَّ طويلاً على مقاومة الرجال قد أفضت طبعاً الى انقراضهنَّ . والثاني – انهُ قد تمَّ اختفاء ممالكهنَّ بعد عصر الهمجية بعودتهنَّ الى وظائفهنَّ النسائية التي خُلقنَ لها كالقيام باعباء المنزل وتربية الاولاد ونحوها . وكلا المآلين هو النتيجة الطبيعية اللازمة لكل استقلال من هذا القبيل مهما طال زمانهُ وقويَ سلطانهُ

امَّا أحدث الترجل القديم وأقربهُ عهداً فمنهُ ما رواه المستر اديسون الأخلاقي الانكليزي الشهير الذي نبغ سنة ١٦٧٢ مسيحية . قال انهُ زار يوماً سيدةً من عائلةٍ شهيرة فرأى من ترجّلها ما أذهله . وبعد ان

وصَف زيّها وولعها بالصيد والقنص وحديثَها عن الكلاب والخيل وعن هبوطها بجوادها من حالق وتسوّرها بهِ أعلى سياج قال : كانت اذا حدَّثها أحد بحديث فيهِ شيءٌ من الغرابة او الفكاهة لطمتهُ مازحةً وقالت له « يا لكَ من كلبٍ صفيق الوجه » . واذا غضبَت على خادمها عمدت الى رفسهِ برجلها . الى غير ذلك من محاكاة أوقح الرجال في أقوالٍ وأعمال

ذكرنا من الترجل القديم ما اشتهر عن أبعدهِ وأقربهِ عهداً . ولما كان الترجل الغربي الحديث يفوق القديم غرابةً وتنوعاً ويزيد عنهُ خطراً واهميةً لاتصاله بنا في الزمان والمكان والحال والمآل وجَب علينا ان نبسط هنا للقارئ من اساليبه الشائعة في كل البلاد المتمدنة ما يُعينه على تصوُّر أمره ، وادراك سرّهِ وسيرهِ ، ولا سبيل لذلك أقرب من سرد ما ورد عنهُ خصوصاً في الجرائد والمجلّات العربية المحلية فدونك انواع الترجل العصري منقولةً عن المقطم والمؤيد والاهالي والجريدة والهلال والحسناء وغيرها بأقصى ما يسمح بهِ الاختصار اللازم من المحافظة على الأصل

١ً — **اله النساء الانكليزيات** يشتغلنَ بالأمور السياسية ويطلبنَ حقوق الانتخاب ويبدينَ من الاستقتال في تجمهرهنَّ لهذا الطلب ما يقضي بالعجب . وقد بلغ من بعض هؤلاء المتجمهرات اللواتي زُججنَ في السجن ان يمتنعنَ مدةً عن تناول الطعام ليظهرنَ

بذلك ثباتهنَّ على رأيهنَّ و يستعطفنَ بهِ الرأي العام

٢ً — **المرأة في بلاد الانكليز** يشكونَ من بناتهنَّ على صفحات الجرائد الشهيرة بأنهنَّ بعد خروجهنَّ من المدارس يحاولنَ الاستقلال والحرية المطلقة في كل أمر . ويُعرضنَ عن الأعمال المنزلية ويُقبلنَ على الملاذ والألعاب الرياضية ويهزأنَ بأذواق والداتهنَّ ويستعملنَ في حديثهنَّ الالفاظ الزقاقية المبتذلة ، واذا نُبّهنَ لما فيهِ اصلاحهنَّ انتقمنَ لأنفسهنَّ بأجوبة مشحونة بالوقاحة والصَلَف والتمرُّد

ومن ضمن هذه الشكاوى التي لا تكاد تُحصى رسالة بامضاء « اخ مشمئز » قال فيها : ان هذا العصر هو ما يسمونهُ « بعصر التقدُّم » و « تساوي الجنسين » وغير ذلك من الأسماء فكانت نتيجته « المرأة الجديدة » التي نراها الآن بعيوبها الكثيرة

٣ً — **المرأة في فرنسا واليابان** أفلحت في الحصول على كثيرٍ من الحقوق السياسية فضلاً عن الاجتماعية وعن مسابقة الرجال في كل الأعمال . وعند اليابانيين ١٣٠ امرأة تتعاطى صناعة الطبّ وعددهنَّ يزداد كل يوم فضلاً عن ظهور النوابغ من النساء عندهم في الأدب والعلم والقضاء وقد بلغ عدد المشتغلات في فرنسا في سنة ٩٠٩ ٢,٠٠٠,٠٠٠ امرأة بين كواتب ومحاسبات وطبيبات وعاملات في التجارة ومديرات وصاحبات معامل او مخازن (١)

(١) انظر ايضاً الحاشية صحيفة ٤٢ من الحديث العام

٤ً — (عن مجلة الحسناء) « ان النساء في سوريا ترجَّلنَ وتأنَّث الرجال وهكذا تبدَّلت الاحوال وانقلبت الامور . كانت المرأة باتقاء الضرر راضية فأصبح الرجل باتقاء الامتهان راضياً . كانت بالاكرام قانعة فأمسى هو بالمساواة قانعاً . كان يُشير اليها بقوله « أجلَّك الله امرأتي » فأضحى يناديها بفائق التعظيم « سيدتي » وقد تقول عنهُ يوماً « اجلَّك الله مَن في بيتي » . كانت تمشي وراءهُ فصار يمشي وراءها »

٥ً — ان النساء في نيويورك (بأمريكا) يقلّدنَ الرجال في زيّهم واطوارهم الى حدٍّ دفع البوليس الى الانتباه والمراقبة

٦ً — ان النساء في الغرب وفي امريكا قد دخلنَ المعامل والشركات والبوستة والسكك الحديدية وتربَّعنَ في مناصب التعليم والكتابة وقطعنَ في ذلك شوطاً بعيداً حتى كثرت الشكوى منهنَّ وفُتَّ في ساعد الشبان النشطاء

٧ً — ان مجلس النواب في فارس تناقش من عهد قريب في اقتراح يختص بالمرأة الفارسية واطلاق حريتها واعطائها حقّ التصويت والانتخاب

٨ً — ان النساء في فرنسا يطلبنَ المبارزة حتى مع الرجال ولا سيما الذين يخالفون مبادئهنَّ النسائية اي مساواة المرأة بالرجل في كل الحقوق

٩ً — (معرَّب عن لابورس) عينت ولاية اورجواي

بأمريكا الآنسة كلوتيلدة لويزي بصفة موظف سياسي تابع لسفارتها ببروكسيل . وهذه الآنسة من اقدم بيوتات هذه الولاية وقد تخرَّجت في اكبر جامعة بأمريكا و بيدها شهادة المحاماة :

لعمرك ما مروان يقضي امورَنا ولكنما تقضي لنا بنتُ جعفر

(مالك بن الريب)

١٠ — **وافق مجلس النواب في نروج** في بدآءة هذه السنة (٩١٢) على مشروع قانوني يقضي بقبول النساء في الوظائف العمومية ما عدا مناصب النظار والسياسة والقنصلية والاكليريكية والحربية

هذه الامثلة لم اتعمد البحث عنها ولكنها صادفتني في زمن قصير اثناء مطالعتي جرائدنا ومجلاتنا المحلية وقد اخترتها من نظائر لها كثيرة أما ما ورد من نوعها في الجرائد والمجلات الاجنبية فلا يكاد يُحصى . ومن هذا الانموذج نرى ان الترجل الفاشي في أمريكا والغرب جميعه واليابان يغلب فيهِ اشتغال النساء بالاعمال العمومية ويُرجح فيهِ عدم قيامهنَّ بوظائفهنَّ المنزلية و بقية الواجبات النسائية . على انهُ يستفاد من الانباء الاخيرة ان في اليابان نهضة جديدة تقاوم الترجل وذلك ان عدَّة من المهذبات فيها ألّفنَ جمعية غايتها الاتحاد والحثّ على ترقية المرأة اليابانية وما انقضى زمن يسير حتى انضمَّ اليها عدد كبير من الاميرات اليابانيات وعقائل النظار وغيرهنَّ فبعُدَ ذكرها واشتهر أمرها حتى صارت تُعدُّ من اعظم جمعيات العالم

وحدث في هذه الاثناء ان جمعية النساء في الدنمرك كتبت اليهنَّ ان يعضدنَها في المطالبة بانتخاب النساء للمجالس النيابيــة والاشتغال بالمسائل النسائية . فرددنَ عليها معتذرات قائلات :

« نحن النساء اليابانيات مشغولات بتربية ابنائنــا تربية تؤهلهم لحياة الاستقلال الصحيح . . . ولهذا ترَينَ ان عملنا صعب شاقّ فاذا تعلقنا بالامور السياسية التي يشتغل بها رجالنا لم نستطع القيام بذلك الواجب المفروض علينا والسلام » (المقطم عن صراط مستقيم)

ويُستفاد مما كتبتهُ مجلة الحسناء اذا سلمت فكاهتها من المبالغة انَّ الترجل في سوريا متخذ وجهة مخصوصة غير الاعمال العمومية وهي سعي النساء في السيادة والتسلط وهذا قد لا يستلزم ترك وظائفهنَّ المنزلية ولكن يُخشى ان يُفضي اليه مع توالي الايام

بقي ان نسأل هل يوجد الترجل في مصر ؟ والجواب على هذا تجده مسهباً في أُخريات الحديث العام من هذا الكتــاب . بيدَ انَّا نزيد هنا كلمتين : الاولى — ان البذار التي زُرعت وتُزرع الآن بمصر مستجمعة شروط الانبات والنموّ الا وهي احتقار الفتيات للاعمال المنزلية والاقتصار على تحصيل مبادئ بعض اللغات الاجنبيــة والموسيقى وبعض الاشغال اليدوية ونحوها من الامور السطحية مع التجرد من التهذيب الصحيح والتربية النفسية مما سوف تراه مفصلاً في فصل عيوب تهذيبهنَّ الحاضر . والكلمة الثانية — مما يجعــل الترجل في

الشرق أشنع منهُ في الغرب وأقرب للفسق والفساد امور جوهرية تابعة لنظام كل من هذين الخافقين وهي وان كانت من أهم أسباب الترجل عند الغربيات فتقوم مقام عذرٍ لهنَّ وعذلٍ للشرقيات

فمن هذه الأمور ان الفتاة الشرقية لا تدفع مالاً لمن يخطبها بل هو الذي يؤدي لها مهراً ، اما الغربية التي لا مال لها تقدّمهُ لخطيبها فلا تتزوج . ومنها ان الوارث عند الغربيين هو الابن البكر وليس للفتاة الغربية من الميراث الاّ ما تُوهَبهُ تفضلاً ، اما الشرقية فلها من الميراث قسط معيَّن . ومنها ان النفقة التي تحتاج اليها الفتاة الغربية قبل زواجها وبعده تزيد بحسب نظام الغربيين عما يحتاجهُ الفتى بينهم وهو بعكس النظام الشرقي . فهذه الاسباب وغيرها مما يطول بنا سرده تقوم مقام عذر للغربية في اشتغالها بالاعمال الرجلية الخصوصية لا العمومية ولا السياسية [1] اما الشرقية فمعفاة من هذا الاسباب واذا اندفعت بتيار الترجل مع عدم وجود هذه الاسباب ومع ما هي عليه الآن من نقص التربية وعدم القدرة على الاعمال كان لا عذر لها في مروقها واصبح الحاجز بينها وبين الفسق رقيقاً جداً

بيناً فيما تقدم ان الذي يبعث الفتى على التأنث هو طمعه في استمالة الفتاة بتبرجهِ . اما البواعث التي تدفع الفتاة عموماً الى الترجل

---

(١) انظر ما ذكرناه عن جواز اشتغال المرأة بالاعمال الرجلية بالفصل الآتي

فمختلفة وعديدة اهمها رغبتها في الحرية المطلقة وفي حضور الاجتماعات والشهرة والظهور بالاعمال العمومية ثم احتقارها الاعمال المنزلية لصغرها في اعتبارها فضلاً عن ضيق دائرة هذه الاعمال وانحصارها بين افراد العائلة . ثم حبّ التقليد وهو اعظم العوامل المؤدية الى تقوية رغبتها في الشهرة والى زيادة احتقارها الاعمال المنزلية

فلنتأمل الآن في اهمية عمل الفتاة الخاصّ بها والمحتقَر عندها وكما أبنّا في بدآءة هذا الفصل نتيجة تعديها حدودها في الزي والهيئة الظاهرة فقط سنبين هنا نتيجة تعديها عملها الى غيره مما لم تُخلق لاجلهِ

قيل ان التي تهز المهد بيمينها تهز العالم بيسارها وهذا القول أبلغ ما يمكن ان يفوه الرجل بهِ اعترافاً بفضل عمل المرأة . فظاهر منهُ ان واجباتها التي تقوم بها في دائرتها النسائية لا تساوي فقط واجبات الرجل في الأهمية بل هي في الحقيقة أسمى وأهمّ منها بمراحل اذ لها مزية الاشراف على اعمال الرجل والتأثير عليها . وهذا نفس ما اراده كانو الروماني (٢٣٢ ق . م .) بقوله : « ان الرومانيين يسودون العالم ولكن نساءهم يسدنَهم ويُشرفنَ على اعمالهم » . وهذا الحكم ينطبق على كل أمةٍ قامت فيها النساء بما وجب عليهنّ من الأعمال التي نيطت بهنّ . ولا سبيل لهذا القيام الاَّ التربية الانثوية الواجبة التي تمنحهنّ الانانة البعيدة عن التبرج من جهةٍ والترجل من الاخرى . انانة الزوجية والامومة ذات اللطف المحض وجمال النفس

الحقيقي والحشمة المهيبة وغير ذلك من الصفات الملائكية والسجايا الاختية [١] كالمحبة والاختصاص والمعونة والاشفاق ونحوها . فلا أجمل من هذه الصورة ولا أسمى من هذه الأوصاف والأعمال التي خصَّ الله بها النساء ، ولا أحوج من بني آدم اليها في عالم الشقاء هذا . ولكن مهما أُوتينا من البلاغة في التعبير عن هذه الأنانة وربَّاتها الفواضل لا يمكنا ان نصفها واياهنَّ بمثل وصف الكتاب في سفر الأمثال وهو ما نجده منظوماً في نهاية « رواية الفتاة العصرية » تحت عنوان « أم السعادة العائلية »

ومهما تجرّد الترجل من التوقح واقتصر على محاكاة الرجال في أعمالهم العمومية فهو استحالة تأباها الطبيعة ولا يلائم المرأة لا جسدياً ولا عقلياً . فكل ما عُرف عن بنية المرأة وتركيبها يؤيد عدم استعدادها لأعمال الرجال . ولهذا التفاوت بين الرجل والمرأة كان الرجل منذ الخليقة ملاذ المرأة وسندها الذي يحميها ويعولها ولم تكن هذه الحماية مانعة لها من مساواتها للرجل بدليل ان الحامي يحب طبعاً من يحميهِ . وأهمُّ من ذلك ما يؤيده الدين والشرع من المساواة وهو ان للمرأة نفساً خالدة كالرجل وانها مطالَبة مثله بطاعة الشرائع الإلهية والمدنية وليس من العدل ولا العقل ان يشترك مخلوقان في الخلود والمسؤولية

---

(١) قلنا الاختية لا الاخوية لنشعر بما يبدين الاخوات الممرضات من التفانى المشهور عنهنَّ فى خدمة الانسانية

من كل وجه ولا يكونا سيّين متساويين (انظر أيضاً ما جاء عن ذلك في الفصل التالي)

يزعم أنصار الترجل ان سبب ضعف بنية المرأة هو حرمانها من التربية الرجلية وعدم تدرُّبها على الأعمال ولولا ذلك لما شوهد فرق بين بِنيتها و بنية الرجل . والحقيقة ان الفرق طبيعي لا هو طارىء على احدهما بتربيـة ولا هو زائل بتعوُّد ولا دُربة . لأن المرأة بسبب ما خُلقت له من الوظائف المنزلية وما نيط بها من تربية الأولاد والعناية بهم في زمن الطفوليـة خُصَّت طبعاً باللطف والعطف والحنان وغيرها من الصفات الأنثوية التي تقدم ذكرها بينما قد خُصَّ الرجل بالعزيمة والثبات و بقية الصفات الرجليـة التي تُعينهُ على الارتزاق . فلا يمتنع هذا الفرق الاّ بامتناع هذه الوظائف او تبادلها وهو محال

وفي المشاهدات اليوميـة والاحتياج الفطري القائمة عليـهِ دعائم الاجتماع الانساني ما يُغني عن ايراد أقوال الثقات ونتائج اختبارهم برهاناً على ما قررناه . ولكن لئلاّ يتوهم القارىء اننا عدَلنا عن ذكر هذه الأقوال لندرتها او لوَهن حجتها او لضعة قدر قائليها فسنورد له ما قاله في هـذا الصدد أعظم الملوك والساسة والعلماء والأطباء والحكومات والشركات مما انتشر على الملا بالجرائد والمجلات العربية كالمقطم ومصر والأهالي والمقتطف والمحيط و ببعض الجرائد والمجلات والكتب الافرنكية وهو ما يأتي :

١ً — **خطب الامبراطور ولهلم** ملك الالمان في شهر اغسطس سنة ١٩١٠ بمأدبة لوكسمبرج فذكّر الحاضرين بالملكة لويزه وقال انها قدوة تقتدي بها عقيلات الالمان فيتعلمنَ منها ان واجب المرأة الاول هو القيام بواجباتها البيتية. ثم قال ولنذكر دائماً ان وظيفة المرأة تنحصر في تدبير المنزل وتربية الاولاد واني لأكره سعي السيدات في الحصول على الرتب والوظائف في الحكومة والتداخل في الشؤون السياسية

٢ً — **خطب روزفلت** مدة وجوده بمصر فقال : ان الغاية القصوى من تعليم المرأة هي اعدادها لخدمة زوجها والاعتناء بمنزلها لكي تكون أُمًّا حكيمة وزوجة مدبرة وأُختاً نافعة . فأول واجبات المرأة هي واجباتها البيتية اما التي تترفع عن معرفة الطبخ وتكتفي بما تعرفهُ من الفنون الجميلة والعلوم العالية فيكون علمها ناقصاً

٣ً — **قال اللورد كرومر** في خطابه الذي ألقاه في شهر مارس سنة ١٩١١ على بعض النساء الانكليزيات المطالبات بحقوق الانتخاب ما يأتي :

أعتقد ان وظيفة المرأة هي القيام في بيتها بتربية أبنائها والاعتناء بشؤون زوجها . وأعتقد ان انصرافها للزيارات والحفلات والملاعب والمراقص انما يلهيها عن تربية الأبناء الذين هم رجال المستقبل فتكون بذلك خائنة لبلادها عاملة على اضعاف وطنها . . . ألا اني خصمكنَّ ما دمتنَّ خارجات عن وظيفتكنَّ وهي ان تكنَّ لبيوتكنَّ

مدبّرات ولأولادكنّ امّهات ولأزواجكنّ زوجات

وقد ذكرت المسز سبيل الانكليزية (احدى المطالبات بحقوق الانتخاب) برهاناً غريباً على عدم وجود فرق بين الرجال والنساء وهو انهُ يوجد بعض نساء يحلقنّ كالرجال مرتين في الاسبوع فاعترض اللورد كرومر على هذه السيدة بقوله : ان دليلها لا يؤيد عدم الفرق بين الجنسين من حيث الحلاقة لأن الرجل يحلق لحيته على الأقلّ سبع مرّات في الاسبوع . فضحك الحاضرون حتى النساء

٤ً — **قال ألبه غرانت** (وهو من أعظم كتاب الانكليز) في رسالة له : ان الغرض الأول من وجود المرأة حفظ النسل وتربية الاولاد وان اتقان العلوم والنجاح في الأعمال لا يكون الاّ في السنّ المناسب لولادة الاولاد فإما ان تنقطع المرأة عن هـذا الغرض المهمّ ويقلّ نوع الانسان الى ان ينقرض او تكتفي بمبادئ العلوم

٥ً — **قال صمويل سميلز** في كتابهِ « الاخلاق » : ان اشتغال المرأة بأشغال الرجال مجلبة للخراب والدمار

٦ً — **قال هول سموله** في مقالة له : ان النساء اللواتي يعملنَ عمل الرجال يخربنَ بذلك بيوتهنّ

٧ً — **جاء في نيويورك تريبيوله** : لتُعلَّم الفتاة ان مباشرتها الواجبات المنزلية هي اول خطوة تخطوهـا في سبيل الرقيّ وان الام الرومانية التي كانت قديماً تعتقد ان غرفة تربية اولادها هي صندوق

حليتها لهي بحسب وضع الخالق وتدبيره اشرف واكمل بمراحل من المترجلة التي تلتمس الشهرة بترجلها وصيدها وقنصها . ولتعلم الفتاة ان صوتها اذا لم يُسمع في المحافل العمومية ولم يُحفل بهِ فيها فلهُ اعظم تأثير في تخفيف الآلام والأوصاب ، وتجفيف دموع المصاب

٨ً — **قال قاسم بك امين** في كتابهِ المرأة الجديدة : ان كل فتاة هي زوجة او كانت زوجة او ستكون زوجة . وقال ايضاً : إنَّا في هذه البلاد نطالب بمنح المرأة حريتها الجسمية واناتها حقوقها الشرعية وتهذيبها وتمكينها من اداء وظائفها في البيت . وانما يشكو بعض الكتاب الغربيين من سوء استعمال بعض النساء لحريتهنَّ ومن طلبهنَّ المساواة بالرجال في حقوق السياسة

٩ً — **رأت الحكومة الاميركية** في سنة ١٩١٠ ان الكواتب اللواتي يشتغلنَ على الآلات الكاتبة (تايبراتير) يُبدينَ كثيراً من التدلُّل والتيه وغير ذلك من الأهواء النسائية فعوَّلت على استبدالهنَّ بالرجال لعدم صلاحيتهنَّ لمثل هذه الاعمال

١٠ — **رأى مديرو سكك الحديد** ولا سيما في الولايات المتحدة ان يجروا في بدء سنة ١٩١٠ على نظام معيَّن يستبدلونَ فيهِ الفتيات اللواتي في مصالحهم بشبَّان مقتدرين . وقال احدهم لمكاتب الدايلي ميل : قد ثبت لنا ان الرجل اكفأ من المرأة وأقدر على تحمل المشاقّ

١١ — **قالت الكونتسى مارى دوفلير موده** لقد اخطأ انصار المرأة في محاولتهم ان يساووها بالرجل في القوة ايضاً . نعم انها رُزقت نصيباً وافراً من الاحتمال والصبر على المشاقّ ولا يُنكر ان المتوحشين كانوا يكلّفون نسآءهم بأشقّ الاعمال ولكن قد ثبت من شهادة الاطباء الثقات واختبار الناس في كل زمان ان الأضرار اللاحقة بالمرأة من جرآء هذه المشاقّ اكثر واعظم من ان توصف . وعليهِ يجب رفض ادّعاء انصار المرأة من هذا القبيل رفضاً باتًّا

الفصل الثالث

رأي الفيلسوف جول سيمون
في تهذيب البنات

للقوم عيش درّت الدنيا لهم ... من دوننا بنعيمه ولذاذه
أخذوه موفوراً كما شاءوا ولم ... يؤذن لنا لنكون من أخّاذه
حضروا وغبنا شذذاً ولربما ... حرم الغنى من كان من شذّاذه
وأراهم هذواً وأبطأنا وقد ... يدنو بعيد الخطو من هذّاذه

(ابن سارة)

قد اسهب كتبة الغربيين في الكلام على حقوق الفتاة وتهذيبها وذهبوا في ذلك مذاهب شتى اشهرها ثلاثة : فمنهم مَن رأى وجوب مساواتها بالرجل في كل حقوقهِ بدون استثناء . ومنهم مَن اعتبرها ادنى من الرجل وأوجب اعطاءها أقلّ مما تستحق من التهذيب والحقوق الاجتماعية وغيرها . ومنهم من قال بمساواتها بالرجل واعطائها ما يُعطاهُ فيما يتشابهان و يشتركان فيهِ وقصَر امر تهذيبها على ما تستلزمه واجباتها الخاصة بها

وظاهر ان الرائين الاولين ليسا مما يُحتفل بالخوض فيهِ لما فيهما

من التطرف . اما الرأي الاخير فجدير بالتأمل وهو رأي الاكثرين من ثقات الغربيين وعقلائهم . ومنهم جول سيمون الفيلسوف الفرنساوي الطائر الصيت الذي نبغ في القرن الماضي وتقلد وزارة المعارف بفرنسا . وقد آثرتُ ان اعرّب للقارىء ما كتبهُ هذا الرجل عن القواعد الاساسية في تهذيب البنات وعن الغاية التي تُهذَّب لأجلها الفتاة ليقف على أفكار الغربيين المعتدلة والملائمة لبلادهم في هذا الشأن وليقتبس منها ما يفيد بلاده . وهو ما يأتي :

« إنا لتعرونا الحَيرة متى قصدنا التصريح ان للبنات ما للبنين من الحقوق والاستطاعة . وليس السبب في هذه الحيرة عدم توفُّر الأدلة على على صحة قولنا هذا بل بالحري حيرتنا من كثرة الأدلة وقلة جدَّتها . فالتاريخ يُنبئنا ان الشعوب المتوسطين في الهمجية كانوا يعتبرون نساءهم دونهم وان النساء قد استرجعنَ منزلتهنَّ بالتدريج ونلنَ المساواة حيثما تكامل التمدن . وهـذه المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق هي علامة كل تمدن تمَّ بناؤه . ولكنه اتفق لهذه المساواة الاجتماعية ما اتفق لأختَيها السياسية والمدنية اي انها أغمضت على كثير من الفروق وسحبت عليها ذيل التغافل والتساهل . فترى ان بين اكثر الشعوب تمدناً وأرقاهم ادباً تخضع النساء لبعولتهنَّ المساويات لهم . وفي انكلترا لا نصيب للأخت في الميراث مع اخيها المساوية له . وفي بلدين او ثلاثة من اوروبا ترث النساء عرش الملك وما عدا هذا العرش الذي

لهُ ما لهُ من المزية لا يُوكل اليهنَّ عمل ما سياسي »

«ومعلوم ان النساء قمن بأعمال كهنوتية بين الشعوب القديمة الذين كانوا يعدُّونهنَّ دون الرجال. ولكن منذ بداءة العصر المسيحي الذي حرَّرهنَّ لم تَعُد تُسند اليهنَّ هذه الأعمال الدينية . ولا عجب في ذلك اذ لا يمكن وجود نظام وافٍ حتى بين أحسن الاجتماعات نظاماً »

« ومما يجب علينا ان نتذكره بنوع أخصّ عند ذكر النساء وحقوقهنَّ هو ان المساواة هنا ليست المماثلة . فالذين يحاولون رفع منزلة النساء بجعلهنَّ رجالاً انما يحطُّون من كرامتهنَّ . فالمساواة هي عبارة عن احترام متساوٍ للاحتياجات والحقوق المختلفة . والرجل والمرأة فيهما كثير من التشابه والتناقض . ففيما يتشابهان ويشتركان فيهِ هما سيَّان متساويان أما فيما يتخالفان فيهِ فهما نقيضان . وهذا الحكم يتمشَّى عليهما فيما يختص بالجسم والعقل والقوى والحقوق. فتساويهما في أمر التهذيب لا يقوم بان الفتاة تهذَّب بنفس ما يهذَّب بهِ الفتى من العلوم بل باعطاء كل منهما مقدار ما يُعطاه الآخر من مزايا التهذيب . فلا يطلب من البنات مثلاً ان يتعلمنَ الجبر لأنهنَّ لا يُحسنَّ فهمهُ ولا يفتقرنَ اليهِ وعليهِ أرى عدم تعليمهنَّ الجبر والهندسة . ولكنّي لا اسلّم بسهولة بترك علم الأدب حتى أصعبهُ وكذا الفنون الجميلة والمبادئ الفلسفية »

ثم قال عن الغاية التي تُرشَّح الفتاة لها وتهذَّب من اجلها ما يأتي معرَّباً :

« يجب الاكثار من مدارس البنات قياماً بالواجب لهنَّ لما لهنَّ من حقوق التعلّم مثل ما للبنين وذلك لكي تتوفَّر بالفتاة للزوج دواعي الراحة في بيتهِ وليكن له منها أصدق معين على الحياة وأحسن وسيلة يغلب بها الفسق والخانات . ولتعود بتهذيبها القوة للذريَّة التي فسدت واستحالت عن أصلها . ولتدبَّ روح النخوة الأدبية في جسم هذا الاجتماع الذي يتفانى في انكار ربّهِ ، ويتهافت على نيل شهوات قلبهِ »

هذا الكلام الذي عرَّبناه للقارئ خطَّهُ يراع رجل له في التهذيب القِدح المعلَّى فهو الذي ائتمت برأيهِ فرنسا وكثير غيرها من البلاد المتمدنة وأقامت على دعائم اقواله نظامها الحالي في مدارس البنين والبنات . وليس بخافٍ ان كلامه هذا موجز لا يحوي سوى القواعد الأساسية التي ينبني عليها تهذيب البنات وانهُ مهما احرز من سعة العلم واصالة الرأي وبُعد النظر وطول الاختبار لم يكن ليمكنهُ ان يضع في هذا البحث المتشعب المسالك ما يوافق تماماً حاجة كل أمة اوروبية غير امتهِ فضلاً عن حاجة الشرقيين . فلذا يتعين علينا لقاء ما أوردناه من أقواله أمران : الأول ان نوضح ما أُبهم منها حتى نكون على جلية من الاهتداء بها . والثاني ان نبين ما تستدعيهِ احوالنا الخصوصية مما لا يمكن هذا الفاضل الفصل فيهِ لعدم وقوفهِ على كل ملابساتهِ

أما ايضاح الابهام فقد ذكر هذا العلاَّمة في نحو منتصف الفقرة الأولى من تعريبنا ما يؤخذ منهُ اولاً انهُ لا يرى وجوب خضوع

النساء لبعولتهنّ . وثانياً انهُ يتطلع الى اسناد الأعمال العمومية والدينية اليهنّ . والذي يحمل القارىء على هـذا الأخذ هو شكوى المؤلف المستفادة من قوله بعد ذكر هذين الأمرين « ولا عجب اذ لا يمكن وجود نظام كامل بين أحسن الاجتماعات نظاماً » . وقبل ان نشرع في ايضاح ما أُبهم من هذين الأمرين لنفرض جدلاً ان المؤلف جرى على مقتضى الظاهر وأراد بالأول انكار خضوع النساء لبعولتهنّ وبالثاني انهُ يرى للنساء الحق في الاشغال العموميـة والاستطاعة عليها حتى يتسنى لنا بالتأمل في هذين الأمرين الوقوف على حقيقة ما يجب اتّباعه فيهما ولا نبني حكمنا على امرٍ هو مظنة للانكار

أما الاوّل وهو عدم خضوع النساء لبعولتهنّ فلا ينطبق على الاديان والشرائع المرعية ومنها الشريعة المسيحية فانهـا تأمر الزوجة بصريح اللفظ ان تخضع لبعلها وتهابه . وتنفي خضوع الخنوع وهيبة الرهبة بحضّها الزوج على محبـة زوجته كنفسه . (أف .) وهذا نظير ما فسر بهِ المرحوم الشيخ محمد عبـده « الرجال قوّامون على النساء » بقوله « المراد بالقيام هذا هو الرياسة التي يتصرف فيها المرؤوس بارادته واختياره وليس معناها أن يكون المرؤوس مقهوراً مسلوب الارادة لا يعمل عملاً الا ما يوجههُ اليهِ رئيسه » . وهو أيضاً نظير ما توجبهُ الشريعة الموسوية وعليهِ جرت سارة بقولهـا لزوجها ابرهيم الخليل « يا سيدي »

هذا ما تؤيده الاديان والشرائع وليست أقوال أهل العلم بأقل منهُ تأييداً وايجاباً . فقد أجمع فلاسفة الغربيين وعلماؤهم على ان منزلة ربّ العائلة من ذويه وزوجته منزلة الوالد والاستاذ الذي يُورد من وكلوا الى عنايته موارد الخير ويحميهم من الشر والضرر . وهذا هو رأي بلوترخس الفيلسوف اليوناني الذي نبغ في القرن الأول ورأي ليكوفيه الفيلسوف الفرنساوي الذي نبغ في القرن الماضي . وما اخترنا هذين الرجلين العظيمين المتباعدين عهداً واعتقاداً الاّ ليكونا أنموذجاً وجيهاً يغنينا عن ذكر غيرهم من العلماء والفلاسفة الاقدمين والاحدثين الذين يرون هذا الرأي

أما الفرض الثاني وهو ان للمرأة حق الاشتغال بالاعمال العمومية والقدرة عليها فبطلانه ظاهر مما أثبتناه في الفصل السابق معززاً بشهادة أفاضل العالم وملوكه وعلمائهِ الثقات . على انهُ ليس ما يمنع امتياز بعض النساء بعمل من الاعمال العمومية كارتقاء عرش الملك مثلاً وهو أمرٌ لم يبحهُ الغربيون فقط بل تَوالى حدوثهُ بين المصريين وغيرهم وإن يكن الآن موضع نظر عند الشرقيين[1] . وكذا امتياز من مات عنها بعلها

---

(١) سبب توارث النسآء الملك فى يهوبال (بلاد الهند) اربعة اعقاب متوالية هو ان احد اجداد الملكة الحالية (التى زارت مصر فى شهر اكتوبر سنة ٩١١) لم يرزق غير مولودة واحدة ومولودته لم ترزق الا مولودة واحـدة مثله وهكذا الى العقب الرابع اما الآن

أو عدمت من يعولها فلجأت لما يسهل عليها مباشرته من الاعمال الرجلية — الاعتيادية طبعاً — لا العمومية ولا السياسية وذلك لتقويم أوَدها واعالة ولدها وهو مما لاحيلة في الاعتياض عنهُ ولا حرَج على من تأتيهِ (كما بيَّنا وسنزيده بياناً في أماكنه) . بل هنالك أعمال عمومية اذا قام بها بعض النساء أدَّينَ نفعاً عظيماً وهو في أيديهنَّ أصلح منهُ في أيدي الرجال كعمل الطبيبات والقابلات والمعلمات وما أشبههنَّ . على ان بعض هذه الاعمال لا تُضمن فائدته ولا يؤمن ضررهُ الاّ اذا كان محدوداً وسائراً على ما يقتضيهِ الاعتدال من كل الوجوه

ومن الآراء المعتدلة في تعاطي النساء الاشغال ما صادفتهُ من عهد قريب بجريدة المقطم لمندوبهِ بالاستانة وهو ما يأتي : « ان المرأة السورية تعمل في أمريكا الشمالية كل الاعمال النافعة الشريفة كالتطريز والبيع في المحلات التجارية والعمل في المعامل . فلِمَ لا تعمل أختها في سوريا كذلك . لا كما تعمل السورية في نيويورك لأن المحيطين يختلفان سكاناً وارتقاء ولكن بما ينطبق على محيطها وبما لا يعرّض شرف السيدة والفتاة الى الاهانة والابتذال »

أما اشتغال النساء كالرجال بالاعمال الدينية عند المسيحيين وما يُوهِم كلام الفيلسوف جول سيمون من التطلُّع اليهِ فقد ورد عنهُ

فسيخلف الملكة الحالية نجلها الاكبر البرنس نصر الله خان القائم بمهام الملك فى غيابها (مقطم ١٩ اكتوبر سنة ٩١١)

نهيٌ صريح وهو قول الكتاب « لتصمتْ نساؤكم في الكنيسة لأنهُ ليس مأذوناً لهنَّ أن يتكلمنَ بل يخضعنَ » وهذا ما أشار اليهِ الفيلسوف بقوله : « ولكن منذ بداءة الدين المسيحي الذي حرَّرهنَّ لم تَعُدْ تُسند اليهنَّ الاعمال الكهنوتية » ومعلوم ان هذا النهي عامّ في الاديان الأخرى

ولم يكن قصد الدين المسيحي في حظرهِ على المرأة التكلم في الاجتماعات الحطّ من قدرها أو احتقاره لشخصها بل راعى في ذلك مقتضى اللياقة والحكمة من وجوه شتى . منها ما هو بديهيّ لا يكاد يحتاج الى تأمُّل : فلو ا بيحت للمرأة الإمامة الدينية وجالت بين طبقات قومها مبشرة واعظة و باشرت حاجاتهم الدينية واطَّلعت على عوراتهم الادبية والاجتماعية . أو بُعثت لهذه الغاية الى الاماكن القاصية لما أعقب هذه الاباحة الاَّ إحياء مناظر هيكل الزهرة وغيرها من الهياكل الوثنيـة القديمة . على ان عدداً عظيماً من النساء الغربيات (غير المترجلات) يشتغلنَ الآن في كل مكان بهـذه الاعمال الدينية ولكن الى حدٍّ محدود تحت ارشاد رجال الدين ولمساعدتهم فقط . وهذا لا ينافي أوامر الدين في شيء

هذا هو حكم الدين ورأي المحققين في هذين الأمرين على فرض ارادتهما ولكن من تأمل كلام هذا الفيلسوف رأى انهُ لا يقصد ما يتبادر للفهم من ظاهرهما . وذلك اولاً بدليل استدراكه بعد شكواه

منهما بقوله : « ولكن مما يجب ان نتذكره بنوع أخص عند ذكر النساء وحقوقهنَّ هو ان المساواة هنا ليست المماثلة » الخ . ثانياً بما اثبتهُ في الفقرة الاخيرة من تعريبنا عن واجبات الفتاة والغاية من تهذيبها . ثالثاً بما جاء في كثير من كتاباتهِ ولا سيما المقالات الخصوصية التي أفردها في كتبه او نشرها في المجلاّت العديدة مبيناً فيها ما ينتج من الخراب والدمار للاجتماع الانساني عن اشتغال المرأة بالأعمال العمومية

بقيت علينا ملاحظة بشأن ما أشار بهِ من درس المبادئ الفلسفية وعلم الأدب حتى أصعبه وهي : اننا نخال من يتولَّونَ أمر تهذيب البنات أحرص من ان يبيحوا درس هذين الفرعين كأنهما اجباريان لا اختياريان . بل فضلاً عن عدم جعلهما الزاميين لا يصحّ ان يكونا اختياريين الاَّ بعد ان تثبت قدم البلاد في المنهج الضروري وتكثر بها المجيدات فيما هو أهمّ وأجدر ان يُضاع الوقت فيهِ

قد لا تُرضي ملاحظتنا هـذه من يقولون بوجوب التعليم العالي للبنات و بلوغهنَّ أعلى طبقاتهِ واستيفائهنَّ فروعهُ وملحقاتهِ . ولكن متى تأمل هؤلاء فيما عَيَّنَّاهُ وسنعينهُ من الفروع الأخرى المتنوعة الخاصة بالفتاة والتي لا غنى لها عنها ولا تكاد تدرس الآن منها شيئاً رأَوا لا محالة لحالتها وقالوا حسبُها هذه الآن فهي خير لها وأبقى

ولو لم يدرك جول سيمون قيمة هذا الاعتراض لما أسبق حكمه عن هذه الدراسة بقوله انهُ «لا يسلّم بسهولة في تركها» فهو يُشعر بذلك

ان عدم تسليمه ليس قطعياً والاّ غلب على الظن ان الفلسفة لم تظهر بصعوبتها الحقيقية لفيلسوف قدير مثله لشدة كلفهِ بها والمرء كثيراً ما يزلق ، فيما يحب ويعشق

ومن قرأ كتاب التربية للفيلسوف هربرت سبنسر الانكليزي رآه وجول سيمون على طرفَي نقيض في رأيهما عن هذه الدراسة فانهُ قد أوجب منع الفتاة من درس كل صعب من العلوم لما ينجم عن ذلك من الأضرار العظيمة لها ولنسلها . وبعد ان عاب هذه الخطة وندَّد بمن جرى عليها ارتأى ان تعتاض الفتاة عنها بالرياضة البدنية . ولقد أدهشهُ كثيراً ان يُخصّ البنون بهذه الرياضة وتُحرمها البنات مع انهنَّ أحوج منهم اليها بمراحل

ولم يكن هذا وحده ليثنيني عن الرغبة في زيادة معلومات الفتاة وانما تدرجت الى هذه الملاحظة أولاً بما شاهدتهُ وكابدتهُ مدة مزاولتي معهنَّ هذه الصناعة وثانياً بتأثير أقوال كثيرين من الثقات المختبرين ولاسيما كلام العلامة ترولاف الانكليزي في باب مخصوص عقده في كتابهِ «العلم الاجتماعي» لتشبث النساء بالعقليات المحضة وبيَّن فيهِ النتائج الوخيمة التي تلحق بهنَّ جسماً وعقلاً وبنسلهنَّ والهيئة الاجتماعية جمعاء من اغراقهنَّ في المباحث العقلية

هذا ما أردنا ايضاحه من كلام الفيلسوف جول سيمون عن تهذيب الفتاة . أما ذكر أحوال الفتاة عندنا وما يحيط بتهذيبها من نقصٍ وما يستدعيهِ من اصلاح فتجده مبسوطاً في الفصلين التاليين

الفصل الرابع

عيوب تهذيب البنات الحاضر

وكيف أجنى ولم يورق لهم غصنى والغصن لم يجنَ حتى ألبس الورقا
(المعرى)

ان مصر فى احتياج عظيم لاصلاح طرق التعليم المتبعة فيها
(اللورد كتشنر)

بقاء الفتاة بدون تهذيب وتركها للفطرة خير لها من اتباع الأساليب المضلة (ملموث)

تقرَّر فيما تقدم ان للبنات في التهذيب مثل ما للبنين من الحقوق وانهُ لا يُراد بذلك ان الفتاة تُهذَّب بنفس ما يُهذَّب بهِ الفتى بل يُراعى في تهذيبها الغاية التي خُلقت لأجلها وهي واجباتها المنزلية ووظائفها النسائية . فاذا تأملنا في حالة فتاة هذه البلاد بازآء هذين الأمرين وهما تهذيبها ومراعاتنا فيهِ الغاية التي خُلقت لأجلها رأينا من التقصير في كليهما ما يدعو الى مزيد الأسف ، ويوجب الحذر والتلافي قبل التلف

اما الأول — وهو وجوب تهذيب الفتاة — فلا نبالغ اذا قلنا

ان اكثر البنات المصريات يقضينَ حياتهنَّ دون ان يَرينَ من نعمة التهذيب شيئاً . ولئن مضى الزمن الذي كان يقال فيهِ

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وأصبحنا في زمنٍ أقلّ ما يقال فيهِ عن الفتاة :

كم فتاةٍ هيَنْةٍ فوق الثرى ولدت مَن بالثريا يستهين

مع هذا التغيير الفكري العظيم لا نزال نرى اقبال الوالدين على تعليم بناتهم محدوداً . فقد ثبت من الاحصاء الاخير ان المتعلمين في مصر هم عُشر مجموع الامة وان المتعلمات من الاناث يبلغنَ عشر هذا العشر . وليس بخافٍ ان هذه النسبة مهما تضاعفت لا تطابق من المرام شيئاً . واذا كان المتعلمون رجالاً ونساء هم عُشر عدد الأمة فيرجَّح ان سبب عدم إقبال الوالدين على تعليم بناتهم هو جهلهم بضرورته . ولعلَّ هنالك أسباباً أخرى كضيق ذات اليد أو عدم وجود مدارس قريبة من مساكنهم أو الخوف من نظام المدارس الحالي وعدم ملاءمتهِ لمستقبل الفتاة . ولا ريب انَّ جميع هذه الأسباب تستدعي اهتمام الأمة ومساعدة أولياء أمورها

أما الامر الثاني وهو تهذيبها مع مراعاة وظائفها المستقبلة فهو محور البحث ونقطة التقصير الكبرى ، فالعناية بهِ مرقاة السعادة الكاملة والحرية الصحيحة والرقيّ المتين ، واهماله سبب الانحطاط ومجلبة الشقاء والخراب

ألا ينذهل القارىء متى اتضح لهُ ان مستقبل الفتاة وواجباتها الخاصة بها ليس لهُ نصيب في كل الوسائل المتبعة الآن في تهذيبها

مما يعرف بالبداهة ولا يُماري فيهِ ذو ذوق سليم ان الفتاة يلزمها أن تتعلم من العلوم ما يجعلها نافعة لعائلتها ومعينة صادقة لمن تكاتفهُ في معامع الحياة . قادرة على تربية أولادها التربيــة الصحيحة . حسنة التدبير لبيتها . عارفة ما يضرّ وينفع من اللوازم المنزلية والحاجات اليومية . مُلمَّة بالمبادئ الصحيَّة والاسعافات البسيطة عند ما يدهمها مصاب فجآئي أو يتفشى في بلدها داء وبائي . يلزمها أن تتعلم كلّ مايؤدي لانتشالها من وهدة الجهل واعلائها عن طبقة الغباوة . وما يُطهّر عقلها من شوائب الاوهام ويصرفها عمّا لا طائل تحته من الاهواء النسائية . وما يزيد رغبتها في استخدام قواها ومواهبها فيما تعود منــهُ الفائدة الحقيقية . وما يحوّل تأملاتها وأفكارها الى المجرى الصحيح فتسلم بذلك من الطموح الى ما فوق واجباتها ومن النزول الى السفاسف والزخارف الباطلة . وبالجملة تتعلم أن تفيد بعلمها وأخلاقها واقوالها واعمالهـا ، كما تشوق بإناثتها ورشاقتها وجمالها

فهل للفتاة المصرية في تهذيبها الحاضر ما يكسبها هذه الصفات أو بعضها ؟

ذاك مثل المكتوب أخفاهُ طيٌّ فاستدلّوا عليــهِ بالعنوان

فأولاً — اذا تأملنا البرامج التي يجري التهذيب على قياسها في

هذه البلاد بجميع المدارس من أميرية وغيرها رأيناها هي عينها التي أُعِدَّت لحاجة البنين فلا تكاد تختلف عنها الا ببعض أشغال يدويَّة اكثرها من الكماليات فكأنَّ لا فرق بين الفتاة والفتى ولا حاجة لأن تكون لها علوم مخصوصة تمتاز بها حاجاتها المنزلية وواجباتها النسائية الاّ ما تطرّزه من أكياس وسائدها ، وأغطية موائدها ، أو تنسجهُ من طنافسها ، أو تجدله لزينة ملابسها ، على انَّ ما تجيدهُ بحسن ادارتها من المأكولات اليومية وقطع الملابس الاعتيادية وما تحسنهُ من تدبير ونظافةٍ ونظام وبالاجمال كل ما يتعلق بحسن تربية اولادها وما يعود عليها ومن معها بالصحة والرفاهية العائلية الحقيقية لأولى بمراحل من قصرها عنايتها على هذه الاشغال الكماليَّة التي يمكنها الحصول عليها بأقلّ مما تكلفها دون أن تُنفق عليها من وقتها وتعبها شيئاً . اللهمَّ الاّ اذا قلنا ان هذه الاشغال وغيرها من الفنون الجميلة أحسن ملهى لها ، أو اذا صحَّ انها من الصنائع التي يشير بعضهم بتعليمها للفتاة فحينئذٍ تنحصر قيمتها في ذلك ولا تتعدّاه

وليس من يعارض في تجمُّل الفتاة بمعرفة هذه الفنون الجميلة ولا في استعدادها لضرورات المستقبل بمزاولة الاعمال اليدية بعد اتقانها ما هي في أشدّ الحاجة اليهِ من واجبات الزوجية والأُمومة ولا في اقتصارها على هذه الاعمال لسدّ عوزها سيما اذا كان لها من تعوله . أما تعميم الاشتغال بالصنائع والحِرَف بين جميع النساء أو استعدادهنَّ

كلُّهنَّ لها كما يرى بعضهم فهو أمر لا يقول بهِ الاَّ من يعدّ تربية الاولاد من الهنات الهيّنات

ومن كان له أقلُّ خبرة بالتعليم ونظر في هذه البرامج التي يُسار عليها و يهتدى بها رآها قاصرةً عن حاجة البنين الذين وُضعت لهم بل هي علة كل عويرف في الناشئة المصرية . ولولا ما يُبديهِ بعض الوالدين من العناية في تكملة هذا النقص وما يجتهد في تحصيله الشبان أنفسهم لهذا الغرض لأصبح كلُّ شبابنا من النوع الذي يعرف كل شيء ولا يجيد شيئاً

ولكن هبْ ان هذه البرامج وافية بالمقصود ومطابقة للمرام في تقدير سني التعليم واختيار موادّهِ وتلاؤم بعضها ببعض بحيث تفيد البنين الفائدة المطلوبة فهي انما تفيد الفتاة ما اشترك احتياجها فيهِ مع الفتى كالقراءة والكتابة والحساب وغيرها ولكنها تحرمها حتماً معرفة ما يختص بجنسها وما فُرض عليها من الواجبات النسائية

قد ثبت انهُ لا يوجد بين بروغرامات مدارس البنات في الدنيا أوسع نطاقاً ولا أغزر مادَّةً من بروغرام كليات البنات في أمريكا فهو غاصٌّ بالعلوم الرياضية واللغات الميتة وغير ذلك مما لا يكاد يوجد في أوسع بروغرامات كليات البنين عندهم . وعن هذا البروغرام قالت « مدام بنتزون » الفرنساوية في كتاب لها عنوانه « الأمريكيات في ديارهنَّ » انهُ على سعتهِ وغزارة مادّته لا تجني منهُ الامريكيات نفعاً يزيد عن تأديتهنَّ الامتحانات

وقالت الكونتس « ماري دو فليرمون » وهي من المتصرات للنساء في الاشتغال بكل عمل لا يعوقهنّ عن وظيفة الأمومة : ان الفتاة الامريكية تنظر الى الاعمال المنزلية بعين الازدراء وتحاول ان تعبث بكل عمل رفيعاً كان او وضيعاً : كأن تكون محامية وقاضية وواعظة وحوذية وعاملة في المطافىء الاّ عملها النسائي فهي لا تحاول قط ان تكون امرأة والسلام . ومن رأي هذه الفاضلة انهُ لا أضرّ بالفتاة من هذه المدارس العليا التي ببهرجة موادّها وشهاداتها العالية تُبعد عقل الفتاة عن الصواب وتنشىء فيها الادّعاء الباطل وتجعلها مترجلة مستهينة بأقدس واجباتها النسائية

ثانياً – اذا تأملنا الكتب المستعملة الآن في مدارس البنات رأيناها على قياس تلك البروغرامات خالية من حاجة الفتاة الخاصة بها . ففي كتب المطالعة مثلاً لا تقرأ الفتاة الاّ عن مظاهر الرجال وآداب البنين وغير ذلك من المواضيع التي لا يهمها قراءتها أكثر مما يهمّ الفتى القراءة عن أخبار النساء . فكثيراً ما يصادفها مثل قول السموأل :

تسيل على حدّ الظُبات نفوسُنا وليست على غير الظُبات تسيلُ

ولكنها لا تصادف فذّاً مثل قول عائشة :

بيد العفاف أصون عزّ حجابي وبعصمتي أسمو على أترابي

وما أكثر النسائيات التي تهمُّها ولا تجد شيئاً منها كعناية الأمّ ، ومحبة الأخت ، ونفوذ الابنة ، وسعادة العائلة . أفلا كلمة عن امرأة

فاضلة تستفيد بمحاكاتهـا ، او مسألة منزلية تكرر يومياً في مستقبل حياتها ، او نصيحة تهوّن عليها ما سوف تتوء بحملهِ من اعباء الأمومة ، وتصدُّها عن البهرجة وغيرها من اللذات النسائية الموهومة ؟

فكم كان يُوحَى لشعرائنا وكتّابنا في هذه المواضيع من الحقائق السامية والمعاني الحسان ، التي تسحر الالباب وتشنّف الآذان ، بل ترقّي الآداب وتنير الاذهان ، ولا سيما مواضيع الأمّ والأخت والابنة التي يخشع كل غربي عند تلاوتها ، ويحنّ الى اعادتها

هيهات فلا تجد الفتاة من ذلك شيئاً في كتب المطالعة العربية او الافرنكية وقس عليها تمارين كتب الحساب والنحو[1] فيا ترى كيف ترغب في واجباتهـا المستقبلة او تنشط للقيام بها وهي لا تقرأ الاَّ عن الرجال وفضل أعمالهم أفلا تُعذَر اذا اعتقدت انهُ لا فارق بينها وبينهم في الواجبات واندفعت بطبيعة هذا التهذيب وبقوة ما

---

(١) ان وضع كتب مخصوصة وملائمة لحاجة الفتاة فى المطالعـة والنحو والاملاء وغيرها ليس بدعة جديدة بل متبع فى مدارس البنات بكل البلاد المتمدنة ودونك انموذجاً منها

1. Livre de lecture pour les petites et jeunes filles par Juranville, Paris.
2. Young ladies class book, by Bailey, Boston, America.
3. Grammaire des jeunes filles par Mlle. Cécile Regnard, Paris.
4. Cours de dictés pour les jeune filles par le même auteur. Paris.

ينهمر حولها من تيّار الترجل العصري الى التشبُّه بالرجال في أطوارهم وعاداتهم ؟

ألا تأخذ منا الدهشة كلّ مأخذ لو رأينا مدرسة الحقوق مثلاً لا تعلّم تلامذتها في كل السنين المعينة لتخريجهم الاّ الرياضة ثم تُبيح لهم بعد خروجهم الاشتغال بالمحاماة والقضاء ؟ اوَ ليست هذه حال الفتاة في مدارسها الحاضرة حيث تتعلّم كل شئ الاّ ما يلزم لواجباتها المستقبلة ؟

نعم لا يصحّ ان تُمنع الفتاة من معرفة ما يفيد الرجال وما يضرّهم وهي التي يُطلب منها ان توّهلهم منذ الصغر لاعمالهم الرجلية وتمهّد لهم سبيلها . ولكن أليس من العدل ان تبدأ بمعرفة ما يختص بشخصها باعتبار كونها امرأة ؟ . واذا اقتضى اتقان عملها معظم سنّ حداثتها أفلا يجب ان تُقبل على درسهِ وتتفرغ له كل التفرغ ، ثم تقتصر من غيره على الالمام والتبلّغ ؟ . فلا ريب ان ما يلزم معرفته عن وظائفها النسائية هو واجبها العينيّ ، بل هو الاساس وما سواهُ له تالٍ وعليهِ مبنيّ

قال رسكن الشاعر والفيلسوف الانكليزي الشهير : يجب ان تُعلّم الفتاة لا ما تفخر وتُعجب بهِ بل ما تمَسُّ له الحاجة كما تأكل حسب الحاجة . فلا يجب ان تكون قاموساً او خزانة علم بل يكفيها ان تحكم حكماً صحيحاً عن الناس والاشياء وان تعرف ان لكل عمل نتيجةً لازمة وجزاءً لا بدَّ منهُ

ثالثاً — ان الكتب وما تحويهِ من العلوم لا بدَّ لها من موقف كفوٍ يحل مشاكلها ويُسهّل تناولها وهو الاستاذ الذي ينسج التلميذ على منواله ، ويبني على تعليمهِ وأسوتهِ كل خصاله واعماله ، في حاله ، واستقباله . ولما كانت المعلمات في بلادنا قلائل وكان الكفوُّ منهنَّ أقلّ لجأت المدارس والوالدون الى استخدام المعلمين من الرجال لتهذيب البنات فأصبح اكثر المتعلمات سواءً كنَّ في المدارس او العائلات آخذات كل تهذيبهنَّ عن الرجال

ولسوء الحظ ان اكثر الذين يَصلحون لمهنة التعليم من الرجال يترفعون عنها ويعدّونها أدنى الاعمال وان تكن في الحقيقة أشرفها غاية وأعمها نفعاً . وكثيرون منهم يزايلونها بعد مزاولتها فراراً من مشاقّها وثقل أعبائها وقلة أجورها . فلا يكاد يظلُّ بها الاّ من أُوصدت في وجههِ أبواب الاعمال الكتابية والادارية ونحوها مما تطمح اليهِ الاغلبية ولذا أصبح المعلمون الرجال ايضاً قليلين والكفوُّ منهم أقلّ

ولو فُرض انهُ يوجد بين المعلمين الذكور عدد كافٍ من هذا النوع الكفوّ فهنالك سؤال مهم جداً وهو ايُّ المعلمَين اصلح لتهذيب الفتاة ، أهو الرجل ام المرأة ؟ وعنهُ نُجيب ان المرأة أصلح لهذا الغرض ولا نخطىء اذا قلنا ولا يصحُّ استخدام الرجل لتهذيبها الاّ في احوال معلومة ، ولفروع مخصوصة ومحدودة ، و بشروط لا بدَّ من توفُّرها فيهِ وذلك للأسباب الآتية :

اولاً — لأن المرأة أدرى من الرجل باحتياج الفتاة فهما ألفَ الرجل في التهذيب واختبر من اساليبه لا يمكنهُ ان يشعر بما تشعر بهِ الفتاة. ومايغيب عنه هو من حاجتها لا تكاد تحتاج المعلمات النساء الى التنبيه اليهِ لسبق شعورهنَّ بهِ وادراكهنَّ له بدون رويَّة او تفكير. وهذا ما قرَّره الباحثون الثقات من الاجتماعيين بقولهم ان الرجال يفتقرون الى مشورة المرأة فيما يختص بشؤون بنات جنسها لأن للمرأة من جهة اخواتها شعوراً وآراءً خاصة بها. ففي هذا الشعور وهذه الآراء تشترك جميع النساء بالطبع أما الرجال فليس لهم إلمام بها ولا سبيل اليها

ثانياً — لأن الفتاة بحسب طبيعتها وحيائها الفطري اكثر استئناساً ببنات جنسها منها بالرجل فلا يمنعها مانع وحشةٍ او حياء او هيبةٍ من مكاشفة معلماتهـا بما يختلج في صدرها او من سؤالهنَّ عن كل أمرٍ يُريبها خصَّ او عمَّ. بل تطمئنُّ اليهنَّ اطمئنانها الى امّها واخواتها بخلاف ما تكون مع الرجل

فهذان السببان وحدَهما كافيان فيما نظنّ للحكم بأصلحيـة المرأة وتفضيلها على الرجل في تهذيب الفتاة ولكن لا تزال توجد أسباب اخرى أخصُّها ما يرجع الى العادات والاطوار الرجلية الفطرية وهو ما سنذكره فيما يأتي بعد استيفائنا الدليل الايجابي على صلاحية النساء لتعليم البنات

من أراد ان يتأكد مزية تعليم المرأة الشرقية لأخواتها

الشرقيات ووصولهنّ بمساعدتها الى حدٍّ يحاكينَ فيهِ نساء الغرب النابغات في هذا العصر فليقرأ ما ورد في التاريخ عن تربية البنات في عهد الدولة العباسية التي أعطت هذه القوس لباريها

وقد ذكر احمد بك آجايف في كتابهِ «حقوق المرأة في الاسلام» هذه الحقيقة التاريخية عند استشهاده عن رقيّ المرأة في ذلك العهد قال « ففي عهد الدولة العباسية لبثت تلعب النساء دوراً مهمًّا في الهيئة الاجتماعية فكنّ يلقين الدروس في المدارس والبيوت . ومما يجدر التصريح بهِ هو ان الامام الشافعي أحد مشاهير ذلك العصر أخذ العلم عن المرأة ثم وضع طريقته المعروفة »

« وفي عهد الدولة العباسية قامت النساء بتربية البنات وتهذيب المرأة وارضاعها لبان الآداب والمعارف فكان الناس لا يأخذون مُدرّسة او مهذّبة لبناتهم الاّمن النساء . وكان المتموّلون من العباسيين والسُراة يتزاحمون مزاحمةً شديدة على امثال اولئك النساء ويبذلون كل نفيس في سبيل الحصول عليهنّ للقيام بتعليم وتهذيب بناتهم »

« وكانت المدرّسات يعلّمنَ بنات الاشراف والاعيان في بادئ الأمر القراءة والكتابة وفنّ الموسيقى والآداب الاجتماعية حتى اذا برعنَ فيهـا تفرّغنَ لايقافهنّ على أسرار اللغة العربية بفروعها كالبيان والمعاني والبديع وقرض الشعر والمنطق وغيرها من العلوم العالية . وكثيراً ما كانوا يقيمون الاحتفالات لامتحان البنات اللواتي

يتخرجنَ في العلوم على أيدي النساء . وكان يقوم بامتحانهنَّ العلماء فيلقون عليهنَّ الاسئلة العديدة في العلوم ويناقشونهنَّ في مواضيع مختلفة »

« وكانت امثال هؤلاء الفتيات اذا كبرنَ وتزوجنَ واصبحنَ مستقلاّت يُنشئنَ في منازلهنَّ قاعاتٍ فسيحة يستدعينَ اليها الشعراء والعلماء والادباء و بذلك أشبهنَ الغربيات النابغات في هذا العصر . ثم تحوّلت كل قاعة من تلك القاعات الى مدرسة جامعة كان يقصدها كل يوم عددٌ وافر من الشعراء والادباء للمناقشة في العلوم المختلفة »

أفلا تدلّ هذه الحقيقة التاريخية دلالة صريحة على ان في النساء الاهلية لتلقين الفتاة حتى العلوم العالية ؟ على أن هنالك مثالاً آخر أغرب من هذا وأقدم منهُ عهداً وهو الفتاة « لوكريشيا » التي نبغت في القرن الرابع واشتهرت بالمقدرة على تعليم الرجال الفلسفة والعلوم العقلية ببلادنا هذه . فاذا أمكن فتاة ان تعلّم الرجال أعلى العلوم وأصعبها في قرنٍ لم تنجلِ فيهِ غوامض العلوم ولم تنتظم أساليب تلقينها أفلا يمكن أمثالها من الفتيات أو غيرهنَّ من النساء الكاملات السنّ أن يعلمنَ بناتنا في هذا العصر المنير ؟

أما هذه الأُمنية فلا يعترضنا في سبيل تحقيقها أشقّ من عقبة النقود التي انما ضُربت لبذلها في تذليل المصاعب ، لا لأن تكون بصونها والضنّ بها عقبةً في طريق أشرف المطالب ، وهل يُمارَى

في ان أقدس ثروة الأمة أدنى من ان يُضنّ به على اصلاحها ، فما بالك اذا لزم بذلهُ في صون اعراضها وفي حاجة نفوسها وارواحها

ومما يضاعف الاضرار الناجمة عن تهذيب البنات الحاضر ويزيد آثار الرجلية فيهِ رسوخاً أمر غريزيّ في كل مخلوق وجدير بكل الالتفات لشدة اتصاله بالتعليم في كل ادوارهِ ودخلهِ في جميع ملابساتهِ من معلّم وبرنامج وكتب وغيرها يصحّ ان يُسمى «جاذبة المحاكاة» . وهي ميل فطري في الانسان يسوقهُ الى محاكاة من يعاشرهم في أقوالهم وأطوارهم وأميالهم . وفعل هذه الجاذبة في حديثي السنّ أقوى منهُ في البالغين اذ تحملهم على تقليدهم معلميهم ومعاشريهم في جميع الامور بكل سرعة ودقّة [1] والمحاكاة في تعليم البنين محدودة لا تتعدّى

---

(١) اورد هنا لمن يهمه من القراء مزيد اطلاع على حقيقة هذه الغريزة فذلكة مما كتبته فيها منذ نيف وعشرين سنة (سنة ١٨٨٩) ونشرته بعض الجرائد تحت عنوان « جاذبة المحاكاة » :

جاذبة المحاكاة هي ميل في الانسان يسوقه مع قليل من توسط الارادة او عدم دخلها مطلقاً الى ان يحاكي غيره من الناس في أقوالهم وأفعالهم . قال العلامة «ستورت» الانكليزي في فلسفته العقلية دليلا على حقيقة وجود هذه الجاذبة ان من نظر الى وجه انسان مغرب في الضحك او الى وجه قد تغيرت هيئته لانفعال ما أثر فيه ذلك المنظر وانجذب الى محاكاته . وكذلك لو نظرت الى انسان وهو يتثاءب شعرت للحال في عضلات الفك بالحركة التي تسبق التثاؤب عادة بل لو تخيلت وأنت بمعزل عن الناس منظر اي انسان منفعل ظهرت على وجهك نتيجة ما تخيلته . ومن هذا القبيل ما جاء في التاريخ عن المصورين المشهورين انهم كانوا يتخيلون ما يكسب أسرّة وجوههم الهيئات المقصودة ثم ينقلون بالمرآة نتيجة ما يتخيلونه الى ما يصورونه

فيما لا تُحمد محاكاته الى أكثر من سوء أسوة معلميهم ومساوئ رفاقهم من التلامذة . اما في تهذيب البنات على الطريقة الشائعة الآن فضلاً عن اشتراكهنَّ مع البنين فيما ذكرناه تتخطى بهنَّ المحاكاة الى تقليد

وقال العلامة (براون) في فلسفته العقلية ان لجاذبة المحاكاة علامات خارجية يبديها الانسان على غير اختيار منه كما لو نظرت مثلاً الى عليل قد أعمل الطبيب مبضعه في عضو من أعضائه فعند ما ينقبض عضو العليل بسبب خوفه ينقبض منك العضو الذي يقابله ولو نظرت الى رجل يمشي على الحبل ويميل يمنة ويسرة ليحصل على توازن جسمه مِلت معه كأنك ماش على الحبل مثله وتخشى السقوط . ومن ذلك ايضاً ما يشاهد في امتحانات المدارس عند ما يفوه التلميذ بخطاب او مقالة فانك ترى افواه كثيرين من الحاضرين تحاكي فم التلميذ في حركته كأنهم يفوهون بنفس ما يفوه به

وقد امتحن الكونت رمفورد هذه الجاذبة بنفسه في مدرسة الصنائع بميونيخ بأن طلب من الوالدين ان يرسلوا اولادهم الى تلك المدرسة قبل بلوغهم سن العمل وتقدم اجرة على حضورهم بشرط ان يبقوا ساكتين لا يعملون شيئاً . فأجلسهم في مكان مشرف على قاعة التلامذة وهم يشتغلون فلم يلبثوا ان استولى عليهم الضجر والقلق وشرعوا يطلبون الشغل بالحاح شديد وكانوا يذرفون الدموع متى رفض طلبهم . واعلم ان الانسان لا يحاكي هيئة معلميه الخارجية فقط بل يساق الى محاكاة اصواتهم ونبراتهم وكل حركاتهم . وهذه المحاكاة قد لا يلتفت اليها المتعاشرون او الناس الذين تعودوا رؤيتها لكنها تستلفت كل غريب فيرى ادقها وأعظمها

ومن غرائب المحاكاة انه يتسنى بها للاطفال التلفظ من دون مشقة بالحاء والخاء والعين وغيرها من حروف الحلق التي يلقى الغربيون في تعلمها عرق القربة وقلما يفلحون وذلك لان فعلها في صغار السن أكثر منه في البالغين . ومن نصائح كونتيليان البياني المشهور لمن اراد البراعة في فن الخطابة قوله : عليك بمحاكاة كل خطيب مصقع ولاسيما ما اشترك فيه الخطباء من الغرر والمحاسن . وكأن ابن خلدون قد نظر ايضاً في مقدمته الى هذا المبدأ اذ حث من اراد اجادة الشعر على حفظ دواوين الفحول الذين اجادوه الى ان قال : ومن

ما يختصّ بالبنين دونهنّ فهنّ يحاكين ما يقرأنهُ عن البنين وما يسمعنهُ من المعلم وما يرَينهُ من أعماله وأطواره الرجلية

ولقائل يقول ان الفتاة لا يمكنهـا ان تقتبس في بضع سنوات

شرط الطالب نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة اذ انها صادة عن استعمالها بعينها فاذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب فيهـا كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها

ومما يستدعي أعظم الالتفات هو ان لجاذبة المحاكاة دخل عظيم في الآداب والاخلاق فاذا عاشر المرء أناساً ذوي اخلاق حميدة ومباديء سديدة انجذب الى محاكاتهم واستفاد من معاشرتهم . واذا كان معاشروه لئاماً ذميمي الاخلاق والمباديء سرق طبعه من طباعهم

فاللؤم مثل الفحم من يلمسه ان لم يحترق من ناره يسود (*)

وقال احد فلاسفة العرب : ان الجليس لا يعدي جليسه بمقاله وفعاله فقط بل وبالنظر اليه فمن دام نظره الى مسرور سر ومن دام نظره الى محزون حزن وذلك ليس في الانسان فقط بل في الحيوان وسائر النبات فان الجمل الصعب قد يصير ذلولا بمقارنة الذلول والذلول يصير صعباً بمقارنة الصعاب والريحانة الغضة تذبل بمقارنة الذابلة ولهذا يلقط اصحاب الفلاحة الرمم عن الزروع . ومعلوم ان الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة اذا تقربت منهما وذلك مما لا ينكره ذو تجربة . فاذا كانت هذه الاشياء قد بلغت من قبول التأثير هذا المبلغ فما الظن بالنفوس البشرية التي موضوعها قبول صور الاشيـاء خيرها وشرها فقد قيل سمي الانسان انساناً لانه يأنس بما يراه ان خيراً وان شراً

ولا ريب ان هذه الجاذبة التي أجمع على صحة فعلها العرب والعجم قد اوجدها الله في الانسان لترقيته وهداه . ليحصل بها ما عجزت عن تحصيله بقية قواه . من السجايا الشريفة المستحبة . والاعمال الحميدة المنبة . وليشترك بهـا مع بني جلدته في افراحهم ويرثي لهم في احزانهم وأتراحهم . الى غير ذلك من مقاصد الخالق التي تحار في صنعها العقول :

لله سر عجيب في خلائقـه تبدي المحاكاة منه نوع ما جمعا

ومرجع البحث في كل العلوم الى تبـارك الله في كل الذي صنعا (*)

تقضيها في التعلم ما يؤثر في كل مؤتنف حياتها الطويلة وانهُ يسهل محو هذا التأثير في زمن قصير لمعاشرتها بنات جنسها ولكن يفوت المعترض ما هنالك من السنن الطبيعية الأخرى وفعلها ومنها قوَّة العادة وقوَّة التعليم في الصغر ورسوخهِ كالنقش في الحجر . فهاتان القوتان اذا توارتا او وقف مجراهما في الظاهر فانما مثلهما متى سنحت الفرصة مثل الاسد المتهيئ للوثبة . فمهما عظم تأثير المعاشرة وتهذيب الذات وغيره من انواع التهذيب التالية لتهذيب المدارس فلا يمكنها قلع ما يغرس في هذا السنّ . قال المرحوم قاسم بك امين في كتابهِ المرأة الجديدة : « ان كل ما يعوَّد عليهِ الطفل في نشئهِ يحدث في نفسهِ أثراً يكون مبدءا لملكة راسخة فيها »

وقد يُردُّ بانهُ جرت العادة عند الغربيين ان الوالدات والمرضعات والمربيات يتولَّينَ تربية الفتاة منذ طفوليتهـا ومع تأثير هذه التربية لا تكاد تسلم الفتاة من التطرف . فأين قوة العادة والتعليم في الصغر ؟ فالجواب انهُ فضلاً عن عوامل الشرّ القوية التي انشأها التمدن الحديث وأحاط بها تلك الفتاة من كل جانب هنالك حقيقة مهمة يكفي

فيجدر بالوالدين ان يكونوا اسوة صالحة لاولادهم وان يختاروا لهم خير الرفاق واهم من ذلك ان ينتقوا لهم المدارس التي اشتهر معلموها بالفضيلة وحسن المبادىء . قال عمر بن عتبة لمعلم اولاده : « ليكن اول اصلاحك لاولادي اصلاحك لنفسك فان عيونهم معقودة بعينك فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح هم ما تركت » . وهذا ما يجب على كل والد ان يتحراه في معلم اولاده (المؤلف)

للاستدلال على صحتها ما يُشاهد من آثارها حتى في الاطفال وهم في المهد وهي ان ميل الانسان الى الزَّيغ والشرّ، اكثر منهُ الى الصواب والخير، بل ان دأب الانسان عدم الاحتفاظ بما يوصى بهِ من الخير والإقبال على ما يُنهى عنهُ من الشر وهو دأب موروث من أبوينا الأولَين ومجسَّم في اكلهما من الشجرة المنهيّ عنها. فليس من الغرابة في شيء ان تربَّى الفتاة من صغرها على عمل الواجب ثم تنصرف عنهُ الى نقيضهِ بتغلب محيطها ونفسها الامارة بالسوء. بل الغريب ان تُحرم الفتاة الشرقية مزية التربية النسائية الصحيحة واذا رُبّيت في صغرها تولّى تربيتها الذكور على نمط تربية البنين ومع ذلك يمكنها ان تقوى على الوسط الذي هي فيه، وتسلم من ضرره وتتقيهِ، كلما عبق عبيره، وانتشر تأثيره

ولا يُنبئنا عن مآل هذه التربية ويرجّح لنا حصول نتائجها التي نتوجسها في المستقبل مثل استقرائنا لمنبتها وسيرها من الحوادث العائلية التي تحدث ببلاد الترجل. فدونك مثالاً رَوَتهُ اختصاصية في التربية وهي المسز لويزا الاميريية في كتابها « منزل الفتاة الجديد » حيث قالت ما لخصتهُ فيما يأتي:

ان فتاة تدعى المسز انيزفلامن من عائلة أمريكانية شريفة قد تولَّت أمُّها رضاعها وما كادت تعقل حتى انفرد أبوها بتربيتها ولم يسمح لوالدتها أن تشاركه في شيء من هذه التربية فلم ترَ زوجته ممانعته فيما

أراد لعظم ثقتها بحكمته واعجابها بمداركهِ ومعارفهِ . فما لبثت الفتاة الاَّ قليلاً حتى نسجت على منوال والدهـا في الوحدة والكلَف بالعلم والمطالعة وأُشربت ذوق أبيها وأطوارهُ فأشبهته في كل أمر . ودامت على هذه الحال دون أن يطرأ على حياتها تغيير حتى تزوجهـا رجل لا بأس بهِ ولا مطعن في فضلهِ وكسبهِ . وعندئذٍ بدأت تجني ثمار تربيتها الرجلية وهي مصائب جمَّة ورزايا متتالية لحقت بشخصها وولدها أقلها يفتّت الاكباد ، ويرقّ له الجماد ، قد جرَّتها عليها كبرياؤها ومبادئها الرجلية وتجرُّدها من السجايا النسائية والزوجية وجهلها بالواجبات المنزلية . والحادثة تستغرق ستًّا وأربعين صحيفة كلها عِبَر للنساء اللاتي يتعدَّين الحدود التي وضعها لهنَّ الخالق وللوالد الذي يستخفُّ بتربية بنـاتهِ فيتولاَّها بنفسهِ أو يعهد بها لغيرهِ من المعلمين الذكور

يظهر لك مما مرَّ ان اختيارنا لتعليم البنات برامج البنين وكتبهم ومعلميهم ضارّ بهنَّ وانهُ على فرض ملاءمة هذا النظام للبنين فانما تربَّى بهِ الفتاة تربية الذكور . أما وفي هذا النظام ما فيـهِ مما يقعد بالبنين أنفسهم عن تحصيل المعرفة الأساسية على الوجه المرضي فماذا عسى أن تكون تربية الفتاة وهي كما ترى في الحالين لا تُعَدَّ فتاةً بتربيتها ولا فتًى بميلادها ؟ فلا محيدَ اذاً عن الحكم بأنها تكون جنساً ثالثاً قائماً بذاته وعلى تمام الاستعداد للاندفاع بتيَّار الترجل العصري الذي هو شعار ذلك الجنس الثالث وجوُّه الذي يتنفس فيهِ

انَّ ارجاعنا تأخر الفتاة في الماضي والحاضر وضررها في المستقبل الى برامج البنين وكتبهم ومعلميهم وغير ذلك من الوسائل المستعملة الآن لتهذيبها لا نقصد بهِ تعزيز الحجاب الحاضر أو الحثّ على تشديده بوجهٍ يؤمَّل أن تؤمن معهُ عاقبة تربية الفتاة كحجبها مثلاً عمَّن اعتادت رؤيتهم ومخالطتهم من الرجال في صِلاتها العائلية أو الاجتماعية أو إحداث أي تغيير من هذا القبيل في حياتها اليومية أو عاداتها القومية الخارجة عن دائرة تهذيبها . وانما الذي نريده هو أن تُوقَى الفتاة في كل ابَّان تهذيبها من المؤثرات الرجلية المحضة التي تخرج بها عن اناثتها

ولا يلزم لهذه الوقاية اكثر من عدم اقامة الرجال في المدارس والبيوت مقام مرشد وناصح للفتاة تأتمّ بهِ وتنسج على منواله في دورٍ من أدوار حياتها ، وأن تُعطى هذه الوظيفة لمن يحسن القيام بها من النساء بحيث يصبح تعليم الرجال للفتاة محدوداً من كل الوجوه ، وان يعتاض عن بروجرام البنين وكتبهم بما يلائم الفتاة في هذين الامرين . وهو ما سنذكره في الفصل الآتي . وفيما عدا ذلك فليفعل أنصار الحجاب ومعارضوهم ما شاءوا . والنتيجة التي نعلّل النفس بها هي أن تهذيب الفتاة تهذيباً أنثوياً كاملاً ونفسياً صحيحاً سيُحدث في الحجاب وغيره من النسائيات تعديلاً حميداً لابدَّ منهُ ولا محيد عنهُ سواء رضي بذلك التعديل أنصار الحجاب ومعارضوهُ أو عارَضوه

تؤسس بيننا مدارس البنات بنيَّة الخدمة الخالصة للأمة والوطن فيؤخذ في تهذيبهنَّ على هذا المنوال المعيب الشائع ويَعتقد مؤسّسوها انهم عاملون بذلك أقصى وأهمّ ما يجب عليهم ولكن سوف يعرفون بعد خراب البصرة الى أي حدٍّ هم يسعون في الاضرار بوطنهم على غير قصدٍ منهم عوضاً عن أن يخدموهُ في تهذيب بناتهِ كما أرادوا . على انهم مسؤولون على كل حال عن هذا الضرر الغير المقصود نفس المسؤولية التي أشار اليها الشاعر بقوله :

ومن ربَط الكلب العقورَ ببابهِ فعقْر جميع الناس من رابط الكلبِ

الفصل الخامس

الاصلاح : وجوبه ووجوهه

لا يكون الاصلاح متيناً دائم النفع الا اذا أخذ فيه بالتدريج واقترن بالحذر التام فى كل أدواره (هوراس سميث)

المصريون متعطشون جداً لتحسين التعليم (اللورد كتشنر)

وأول عجز القوم فيما ينوبهم تدافعهم عنه وطول التواكل
(ابن ايوب)

استهلَّ الكاتب الانكليزي الشهير (تشارلس ريد) كتابه « الدير والدار » بقوله : « انهُ لا يكاد ينقضي يوم على هذه الارض الاَّ وتصنع فيهِ أناس خاملو الذكر اعمالاً جليلة ، ويقولون أقوالاً بليغة سامية ، ويتألمون آلاماً شريفة ، واكثر هؤلاء الأبطال الخاملي الذكر قد يدومون مجهولين حتى تقوم الساعة التي تنكشف فيها الخبايا والسرائر ، وحينئذٍ ترى اكثر العظماء محتقرين واكثر المحتقرين عظماء »

ومن هذا القول القرين الواقع تنتج حقيقتان راهنتان : أولهما رُبَّ انسان يعدُّه الناس حقيراً وهو في الحقيقة عظيم . والثانية انَّ من

أحسن القيام بما نيط بهِ وعُهد اليهِ من الأعمال الصغيرة في دائرتهِ المحدودة لا يقلُّ عظمةً عن المكتشف العظيم والعبقريّ الشهير اللذين طبَّق ذكرهما الآفاق . لأن سعادة الأمم والممالك تقوم بالصغائر كما تقوم بالعظائم ، وجسم الأمــة فيهِ الرأس المفكّر ، والعين الساهرة ، واليد العاملة ، والقدم الساعية ، وهو في أشدّ الحاجة لكلٍ من هذه الاعضاء التي يترتب على اداء وظائفها رفاهية الجسم بأكمله . بل لا تقوم هذه الرفاهية الاَّ باختلاف هذه الوظائف

ولئن تساوى بهذا القياس عمل العظيم الكبير وعمل الأمين الصغير فهنالك عملٌ لا مريةَ في انهُ يفوق جميع الأعمال ويفضُلها وما خفض من تفوُّقهِ وسموّ قدره ، الاَّ تكرار حدوثهِ واعتياد رؤيتهِ وذكره ، ألا وهو عمل الأمّ التي لو لم يُنظر لها الاّ من وجهة كونها تهيئ كلاً من العاملين المذكورين لإتيان عمله صغيراً كان او كبيراً لكفى بذلك برهاناً على سموّ عملها . ومن تأمل كلام تشارلس ريد عن عظمة العمل رأى اكثره يصدق على الامهات في احتمالهنَّ العجيب وانكارهنَّ انفسهنَّ في سبيل تربية اولادهنَّ . فان لم تُدعَ هؤلاء عظيمات وشهيدات فمن عساهُ ان يكون أحقَّ منهنَّ بهذه التسمية ؟

وكيفما تأملت مستقبل الفتاة وقلّبت الطرف في مظاهر حياتها وهي ابنة واخت وزوجة وأمّ وأرملة رأيت من اهمية اعمالها المطلوبة منها ما يستدعي مزيد العناية بتربيتها وترقيتها وتقويتها ، بل رأيت ان منتهى

ما يمكننا ان نجود بهِ في هذا السبيل من النفقات ليس الاّ شيئاً زهيداً يسيراً بجانب ما هي أهلٌ له وبالنسبة لما تبذله فيهِ أصغر البلاد الغربية

تشكو الجرائد وارباب العائلات من فساد أخلاق شبيبة هـذا العصر وانحطاط آدابهم ، وتقول الفتيات ان هذا الفساد في الشبان أعظم حائل دون سفورهنّ ومخالطتهنّ للرجال ، وانهُ اذا أُريد تخفيف الحجاب الحاضر فليُبدأ بتهذيب الشبان تهذيباً أدبياً صحيحاً يكفُّهم عن التعرّض لهنّ في الطرقات بالبذآءة والوقاحة المشهورتين

ونحن لا ننكر شناعة ما يأتيهِ الشبان من التحرّش بالنساء ، ونعذرهنّ في امتناعهنّ لاجله من السفور والمخالطة ، ونودُّ معهنّ لو أمكن تهذيب الشبّان في شبيبتهم تهذيباً صحيحاً يتجافى بهم عن امثال ما يفعلون ولكنّا لا نصدّق ان وسائل التهذيب الأدبي في المدارس (ولا سيما الشائع منها الآن) ولا ما بعدها من وسائل التهذيب التي يُركن اليها في ادوار الشبيبة تُكسب الشابّ تلك القوة الفعّالة التي متى تأصّلت في الصغر أي في ابّان غرسها نمَت على مراس الفضيلة وثبتت على مقاومة عواصف الرذيلة . لأن هذه الخلال التي يُشكى منهـا في الشابّ هي نتيجة كيفية مخصوصة قد تكيّف بهـا منذ نعومة اظفاره بعوامل الوسط الذي نشأ فيهِ وهي إمّا مؤثراتهُ الايجابية على الناشئة او مجرّد اهماله تقويمهم وتركهِ ايّاهم وشأنهم . ثم اخذت هذه الكيفية تتدرج بهِ وهو متّصل بذلك الوسط وبأوساط أخرى ليست بأرقى

منهُ حتى أوصلتهُ الى ما هو عليهِ من الفساد والضعف الادبيَّين اللذين هما نتيجة لازمة لهذه المقدَّمات التدريجية

وقد يمكن التهذيب الأدبي الديني ان يخفّف وطأة الضعف والفساد المشار اليهما او يُحدث في صاحبهما بعض التغيير والاصلاح ولكنهُ لا يستطيع ان يَهَب الشاب تلك القوة التي قدَّمنا انهُ ينالها بهذا التهذيب في ابَّان إنباتهـا أي في الوسط الأول الذي نشأ فيهِ . قال شارون الاخلاقي الفرنساوي « انَّ تربيـة المولود على كيفيةٍ ما منذ طفوليتهِ يتكوَّن منها ما تقوم به شخصيته ، فالذي تغرسه هذه التربية من الخلال لا تقوى على قلعه كل انواع التربية التالية لها » (راجع ايضاً ختام الفصل السابق)

ومن يا ترى محور هذا الوسط المسؤول الذي تدور حوله كل الخصال الحميدة والذميمة فاذا شاء اكسب الناشيء بتعليمه او بقدوته او بمجرَّد سكوته محاسنَ الصفات او مناحسها ؟ أليس هذا المحور هو الأمّ التي بحسب ما هي تورث من تربيهم إما النوع الأول او الثاني من الصفات ؟ أو ليست الأم هي الفتاة التي تشكو من تربيـة الفتى والتي نطالب لها نحن بكثرة المدارس السديدة النظام النافعة لتقويمها وتأهيلها لعملها هذا الذي تتوقف عليهِ سعادة البلاد وشقاؤها ؟

ومن ثمَّ يتضح ان تربية الفتاة لا تؤدّي فقط الى تخفيف الحجاب الحاضر بما تُنشئهُ في قلب الفتى من الاحترام لشخص الفتاة المتربية

وعدم الجسارة على التحرش بها ، ولا تجعلها قادرة فقط على مقاومة تيار الترجل والفساد بل تتحوَّل بها حياة الفتى في صغره من أدنى حال الى أرقى درجات الرجلية والأدب والكمال . وعليهِ فالتربية للفتاة ألزم منها للفتى وذلك بقدر ما يزيد لزوم السلاح للمدافع عن لزومهِ للمتعرّض وبقدر ما يزيد لزوم الكمالات الانسانية للمعلم عنهُ للمتعلم فالرجل هو العنصر المتعرض لعفاف المرأة وهي في أشدّ الحاجة الى كل مزايا التربية الصحيحة لتستطيع ان تدافع عن عفافها الذي يُهدَّد يومياً . والفتاة هي المعلّم للرجل ولذا يجب ان تكون فيما يختصّ بالصفات الأدبية كالشمس التي تنير القمر ولها اكثر من نوره

ومن العجب انهُ مع معرفة هذه الحقيقة التي لا تحتاج الى ايضاح كما لا يحتاج الصباح الى مصباح لا يزال يُنتظر من الأم في هذه البلاد ان تُرشد أولادها الى محجّة الصواب والسداد وهي لم تسلكها ولم تعلم شيئاً عنها . أي ان تكون كالعمود الصامت الذي يُنصب في مفارق الطرق لتعيينها والدلالة عليها بما يكتب بأعلاه دون ان يعقله . ولكن هيهات يتسنى لها ما دامت بدون تهذيب أن تكون حتى كهذا العمود الجماد بل يدوم هو يدلُّ النـاس الى الطريق القويم وهي تُضلّ من تربّيهم عن هذا الطريق بجهلها

نعم ان الفتاة جديرة بكثرة المدارس ولو جعلنـا للبنات ضِعف مدارس البنين وأمكنا ان نملأها بهنّ لما أفرطنا في شيء . وقد عرف

الغربيون هذا الواجب فأكثروا لها المدارس ومع ذلك لم يكتفِ العلامة جول سيمون بكثرتها في عصرهِ بل جعل ينادي قائلاً : أكثروا ! أكثروا !

تبيَّن مما مرَّ في فصل عيوب التهذيب ان الفتاة المصرية ليست حاصلة على ما يلزمها من وسائل التربية والتهذيب الصحيحين . فنسأل هنا هل من سبيل الى اصلاح هذه العيوب والى تهذيب الفتاة تهذيباً كاملاً بحيث تؤهل للقيام بما عليها من الواجبات في مستقبل حياتها ؟

أمامنا وسيلتان تتقاربان في الغاية وتختلفان في امكان اجرائهما : الوسيلة الأولى — هي انشاء مدارس كلية للبنات على منوال مدارس الأمهات الغربيـة تدخلها المتقدمات لتكميل معارفهنَّ ولإعدادهنَّ للوظائف المنزلية والنسائية التي خُلقنَ لأجلها ولا سيما وظائف الأمومة وتربية الاولاد . والوسيلة الثانية — هي اكثار مدارس البنات الابتدائية وتمشيتها جميعها على نظام يضارع في المبدأ — ولكن مع الايجاز — نظام الكليات المذكورة حتى تجهّز الفتاة لدخول هذه الكليات لو تمَّ انشاؤها او تقوم مقامها في حالة عدم انشائها او تعذُّر دخول الفتاة اليها

ومعلوم ان الوسيلة الاولى وهي انشاء مدارس كليـة للأمهات أصعب الوسيلتين فلا سبيل لاتمامها على ما تستلزمهُ من السعة والنظام الاَّ باستنهاض همة الحكومة وغَيرة اغنياء البلاد وسراتها . فاذا لم تلبِّ الحكومة والاغنياء الطلب لا يبقى الاَّ ان يستعان على هذه الوسيـلة

بالكثرة : فيُطلب من فقراء الأمة وأغنيائها ان يجود كلٌّ بما في وسعهِ حتى يتحصل من قليل الكثيرين ما يساوي كثير القليلين كما يحاول ذوو الهمة عملهُ الآن بشأن كلية البنات القبطية المأمول تأسيسها

وأول سؤال يعترض المفكّر في هذه الوسيلة الأولى بعد جمع المال اللازم بأية طريقة ممكنـــة هي : هل في مصر من المعلمات مَن تليق لادارة هذه الكليات او للتعليم بها

فالجواب لا يؤمل وجود من تصلح من المصريات او الاجنبيات المقيمات بمصر لأن تكون مديرة لاحدى هذه الكليات . أما المعلمات القادرات على تعليم العلوم المهمة او بعضها فيؤمل الحصول عليهنَّ من المصريات وغيرهنَّ من المقيمات بمصر ولا سيما السوريات ولكن عددهنَّ في الغالب محدود لا يُغني . وعليهِ فالحاجة ماسَّة الى مديرات ومعلمات مقتدرات

ويرى البعض ان هذا النقص لا يمكن تلافيهِ الاَّ بارسال عدد من المصريات او غيرهنَّ الى اوروبا ليتعلمنَ فيها ما يؤهلهنَّ للادارة وتعليم العلوم المهمة كما فعلت نظارة المعارف العثمانية من عهد قريب اذ ارسلت اربع طالبات الى المانيـــا وسويسرا حيث يتممنَ علومهنَّ ثم تعيّنهنَّ مديرات لمدارس البنات العالية التي تنوي انشاءها

ولما عُرض هذا الرأي على صفحات الجرائد المصرية لم يصادف استحساناً من الاكثرين والواقع انهُ مهما يُستحبُّ في هـــذه الفكرة

من تقريب الغاية فان اختيارها كوسيلة فيهِ من التعثير وعدم الملاءمة لأحوال البلاد ما يحمل على نبذها سيما اذا كانت الطالبات مصريات على ان ارسال الطالبات الى اوروبا ليس من الطرق التي لا يمكن الاعتياض عنها بخيرٍ منهـا او على الأقل بما يساويها . فلو وُجدت السعة وبُسطت الأكفّ لتأسيس كلّية من النوع المعتدل لما تعذّر على المتولين ادارتها ان يستعيضوا عن نقل الطالبات الى اوروبا او غيرها بنقلهم اوروبا اليهنّ في اشخاص مديرات ومعلمات مقتدرات . وان لم يمكن دوام الانتفاع بهؤلاء المقتدرات الى ما شاء الله أمكن على الأقلّ ابقاؤهنّ لحين تخريج من يقوم مقامهنّ من المصريات على أيديهنّ . وبهذا الحلّ او ما يماثله يتمّ المراد على الوجه المرضي . ولا يخفى اننا اذا تجنبنا كل ما يوجب التعثير في هذا الأمر الخطير وتسنّى لنا اتمامهُ على الوجه المعتدل لأي عنصر من عناصر الأمة المصرية كان ذلك طليعة عصر جديد سعيد للبلاد باكملها والاّ كان ما لا يُدرك كلُّه يتركه كلُّهُ وهو ليس من الاعتدال او الحكمة في شيءٍ

قال ضيا باشا سفير الاستانة في وشنطن بامريكا في حديث له : « خير للدولة ان تجيء بالمعلمين الى الاستانة من ان ترسل الطلاّب الى البلاد الغربية اذِ الاتيان بالمعلمين أقلّ نفقة واكثر نفعاً »

وقال سرور بك في خطابه بمؤتمر الاجناس الذي عُقد من عهد قريب « والغاية الأولى من البعثات الى اوروبا هي ان تكفينا في

المستقبل متاعب ارسال ابنائنا اليهـا ليتعلموا وهم بعيدون عن اهلهم ووطنهم حتى انهم قد يتشربون احياناً مذاهب باطلة ومبادئ سطحية او تعاليم تضيّع مستقبلهم »

واذا كان هذا اجماع العارفين باحوال البلاد الشرقية على نتيجة ارسال الفتيان الى اوروبا فما عسى ان يكون رأيهم في ارسال الفتيات اليها ؟

وقبل ان نختم كلامنا عن هذه الوسيلة الأولى نذكّر من يريدون التوسل بها بضرورة مراعاة التدريج والحذر قبل الشروع فيهـا . قيل ان الثعلب اذا اعترضهُ الثلج في طريقهِ عمد قبل عبوره الى استطلاع ما تحتهُ فيضع عليهِ أحدى اذنيهِ متسمّعاً ليعلم اذا كان الثلج واقعاً على ارضٍ يابسة او على ماء او جبّ فاذا بدا لهُ منهُ ما يخشاه عدَل عن المسير فوقهُ . وهذا المثل يشرح ما أوردناه في بدآءة هذا الفصل من كلام العلامة هوراس سميث عن ضرورة التدريج والحذر للاصلاح. فاذا تمّت لوازم هذه الوسيلة الكبرى وجب على القائمين بها ان يراعوا هذين الأمرين الهامّين في استعمالها ليتقوا ما لا يمكنهم ملافاته قبل الوقوع فيه

نحن لا نقنط من رحمة الله بفتاتنا ولا من كرم سُراتنـا وثُراتنا وغَيرتهم الوطنية في رفع شأنها وترقية تهذيبهـا ولا من غيرة الفئة النشيطة التي تجمع المال من أفراد الأمة لهذه الغاية ولكن الخطر محدق والحاجة ماسّة كما بيّنا وتأسيس الكليات أمر عظيم يعوزهُ مال وافر

ووقت طويل فلا بدَّ اذاً من الالتجاء الى – الوسيلة الثانية – اللازمة على كل حال وفي كل وقت سواء تمّت لنا الوسيلة الأولى والأمنية الكبرى او لم تتمّ. فلا يبلغ بنا الطمع في انشاء الكليات الى ان نستخفَّ بانشاء المدارس الصغرى ولا يحملنا تعذُّر انشاء هذه وتلك الى اليأس او الانتظار فنُغضي عن اصلاح المدارس الحالية الذي هو بحسب الأحوال ألزمها جميعها

حبّذا لو تأسست في بلادنا جمعية عمومية مستديمة لترقية شؤون الفتاة المصرية . ولو خُيّرنا أيهما أحبُّ الينا أهو تأسيس جمعية كهذه مؤلفة من عقلاء عناصر الأمة ومعتدليهـا أم تأسيس عشر مدارس كبرى للبنات على النمط المعتاد هنا او النمط الغربي المحض لآثرنا انشاء هذه الجمعية واكتفينا بالقليل من الاصلاح الذي تجود به لأن الحاجة الى الحكمة والاعتدال في تهذيب الفتاة وتربيتها اكثر منهـا الى كثرة العلوم وانواعها

وسواء تحققت هذه الأمنية او لم تتحقق فلا يصحّ لعنصر من عناصر الأمّة بل يعار على كل منها ان يخلو من لجنة خاصة بهِ تبحث فيما تحتاج اليهِ بناته من الرقيّ وتسعى في تنظيم مدارسهنَّ الحالية وغيرها مما يؤسس لهنَّ حديثاً على نوع معتدل يضمن لهنَّ التمتع بمزايا العصر الحاضر ويقيهنَّ شروره الكثيرة . ولا حاجة في بادئ الأمر ان تؤلَّف اللجان العنصرية الخصوصيـة باتحاد اكثرية كل عنصر بل يُكتفى

بتأليفها من بضعة افرادٍ أكفاء يتندبون أنفسهم لهذه الخدمة ويوجّهون عنايتهم الى أمرين مهمَّين يجعلونهما باكورة أعمالهم مع توخّي البساطة فيهما ما امكن ليتسنى لهم القيام تدريجياً بواجب الاصلاح على أسهل سبيل وأقلّ ما يمكن من النفقة وهما :

الأوّل — وضع نُبَذ مختصرة لارشاد المعلمات الى طرق التعليم الحديثة وغيرهـا من الارشادات اللازمة لهنَّ والمكمّلة لمعارفهنَّ (١) وتعيين اوقات لفحصهنَّ فيما تحويهِ من الفوائد وفي كيفية عملهنَّ بها ثم تمنح جوائز للمُجيدات في تعليمهنَّ

الثاني — وضع نُبَذ او كتب صغيرة في أهم المواضيع النسائية وغيرها لفائدة التلميذات وانفاق ما يتحصل من أثمانها على نشر نُبَذ المعلمات وعلى تنشيطهنَّ بالجوائز السابق ذكرها

وهذان الأمران يقتضيان طبعاً اتحاد القائمين بهما مع المتولّين أمور مدارس البنات وطلب مؤازرتهم الأدبية للحصول على الغاية المقصودة . واذا كان السعي فيما ذكرنا خالصاً لوجهـهِ تعالى وخدمة البلاد وتُوخّيَ فيهِ ما تمسّ الحاجة اليهِ لا إخاله الا ناجحاً مشكوراً فلا يجترئ مقاوم على معارضته بل يصادف كل ترحيبٍ وتعضيد

اما الموادُّ التي يجب اضافتها لبرنامج البنات بعد نزع ما لا يخصُّهنَّ

---

(١) انظر اللمحة الخاصة بالمعلمات في نهاية هذا الفصل فلعلها تصلح لأن تكون مقدمة او أنموذجاً للنبذ المشار اليها

من برنامج البنين الحاضر وابقاء ما يشتركنَ فيهِ معهم هي ما يأتي بالاختصار :

١ً — اللغة العربية ولغة أخرى اجنبية مع اختيار أنفع الكتب وأحدثها في اللغتين وخصوصاً مع مراعاة ما تحتاج اليهِ البنات دون البنين في مطالعاتهما ونحوهما واملائهما وانشائهما . وما يقال في هذا الفرع من قبيل اختيار الكتب ومراعاة حاجة الأناثة يقال ايضاً في بقية الفروع — (انظر ايضاً الحاشية صفحة ١١٨ .)

٢ً — العلوم الضرورية كالحساب ويُخَصُّ منهُ المسائل المبنية على المشتروات اليومية ومسك دفاتر المصروف العائلي . والجغرافية ويُخَصُّ منها مديريات مصر وخططها المهمة . والخطُّ ويُخَصُّ منه النوع الاكثر تداولاً . والتاريخ خصوصاً ما جاء فيه عن مصر ونوابغ النساء

لم يُعهد لمسائل الحساب بالعربية وضعٌ يلائم حاجة الفتيات ولا يؤمل ان يجتني واضعها فائدة تُذكر من الاستعانة بالكتب الغربية في هذا الفنّ لانبنائها على مصطلحات مخالفة لما عندنا وعليهِ فلا بدَّ من الأصالة في وضعها وايجادها جديدة لفائدة البنات

٣ً — المبادئ الدينية، وتهذيب الأخلاق، وآداب المعاشرة، ويُراعى ما جاء عن الدين والأخلاق بالفصل التالي . ويُبنى تهذيب الأخلاق على واجبات الانسان لله ولنفسهِ ولبني جنسهِ ووطنهِ مقرونة

بما ورد عنها في الدين من الأوامر والمناهي

(تنبيه) — هذا القسم الأخلاقي الديني هو الذي ينبغي للمعلمات ان يعولنَ عليه في غرسهنَّ بقلب الفتاة الفضائل النسائية ومحبة الغاية العظمى والواجبات السامية التي وُجدت لها واظهارهنَّ لها شرّ طموحها الى ما سوى ذلك مما جاء بلمحة المعلمات في نهاية هذا الفصل

٤ً — دروس مختصرة في تركيب جسم الانسان ووظائفه وشرحها على أحد الأطالس التشريحية الحديثة

٥ً — المبادئ الصحية (الهيجيين) ويُخَصُّ منها مصحّة المساكن والملابس والنوم وغيرها مما يتعلق بالحياة اليومية ولا سيما العائلية

٦ً — خدمة المرضى والاسعافات البسيطة ويُخَصُّ من خدمة المرضى تمريض الاطفال

٧ً — الأعمال المنزلية ويُخَصُّ منها الاقتصاد عموماً ، واقتصاد الوقت ، والعناية بالأطفال ، ومعاملة ربّة المنزل للأهل وللأجانب كالجيران والخدم وغيرهم . وممارسة طبخ الأطعمة وغسل الملابس واجراء ذلك في ايام مخصوصة يُراعى فيها السنّ وسنو التعليم

٨ً — تربية الاولاد ولا سيما القسم الأدبي منها (ولا يخفى ان بقية أقسام هذه التربية داخلة في فروع أخرى كالمبادئ الصحية والتمريض وغيرها)

٩ً — الاشغال اليدية خصوصاً قطع الملابس وخياطتها واصلاحها

١٠ً – دروس الأشياء ومعها (١ً) الحيوانات وطبائعها ولا سيما الحيوانات المصرية النافع منها والضارّ و (٢ً) النباتات المهمة وطريقة وأوقات زراعتها بالاختصار و (٣ً) المهمّ من الظواهر الطبيعية والمشاهدات اليومية و بيان أسبابها بعبارات مألوفة كالتعليل مثلاً عن حمرة الخجل وصفرة الوجل . وعن الحرارة التي تتولد في الجبير بعد اطفائه . وعن زيادة حرارة الشمس مع قربها منا في الصيف ونقص حرارتها مع بعدها عنا في الشتاء وما أشبه ذلك . وهذه الاسباب مبينة في بعض الكتب التي أشرت اليها فيما يأتي

١١ – الرياضة البدنية على الطرق الحديثة والمداومة عليها في كل أدوار التهذيب وتعيين ما يليق بالفتاة استعماله منها بعد الأدوار المذكورة

وقد عثرتُ بعد البحث الدقيق على عدد وافر من أسماء الكتب النسائية الحديثة الملائمة لهذا البروجرام من انكليزية وفرنساوية وغيرها ونظراً لضيق المقام اقتصرت على جمعها عندي في كراسة خصوصية . فمنها محاورات في التدبير المنزلي . وكتب عن نوابغ النساء . وعن تربية الأولاد . وتمريض الاطفال . والاشغال اليدّية . ورياضة الفتاة البدنية . والمبادىء الصحية للعائلات الخ الخ . فهذه مع الكتب التي نبّهت اليها في اللمحة الخاصة بالمعلمات هي على جانب عظيم من الأهمية

شاملة لما يزيد معارف المعلمات ويعينهنَّ على حسن ارشاد البنات . ونافعة لإعانة من يُناط بهم نظام مدارس البنات او غيرهم ممن ينتدبون أنفسهم لخدمة الفتاة وترقيـة شؤونها على اختيار ما يجب تعريبه من نبذ او كتب واستعماله على مقتضى سني التعليم المبينة فيما يأتي . وهذه الأسماء وما استحضرتهُ لنفسي من مسمياتها معدَّة جميعها لاطّلاع من أراد معرفة أسماء مؤلفيها وأماكن طبعها لسهولة احضارها والانتفاع بها في الاغراض المتقدم ذكرها

ان ما ذكرناه في بروغرامنا للفتاة من العلوم المهمـة اللازمة لها يقتضي طبعاً زيادة سني التعليم . وحيث ان المدارس الابتدائية الغربية ولا سيما في فرنسا تنقسم الى قسمين (١) ابتدائيـة عادية و (٢) ابتدائية عليا . ومن الابتدائية العليا ما يزيد عن العادية بسنة واحدة . ومنها ما يزيد عنها بسنتين او بثلاث سنوات بحسب زيادة الموادّ فيحسن تعيين السنين اللازمة لهذه الزيادة بالمقابلة مع ما ورَد عن ذلك مفصَّلاً في كتاب التعليم الابتدائي لأوجين رندو (صفحـة ٥٢٩ – ٥٣٦) — (*)

(*) Enseignement Primaire par Eugène Rendu, Hachette et Cie. Paris.

لمحـــة

في مسؤولية التعليم وسبيل القيام بها

بديهيٌّ ان مسؤولية التهذيب الكبرى ترجع الى وظيفة المعلم ذكراً كان أم انثى . ويا لها من مسؤولية هائلة لأن مستقبل كل تلميذ او تلميذة موقوف على ما تكسبهما التربية من العادات وتبثّهُ فيهما من المبادئ . فكم لفظة فاهَ بها المعلم جزافاً واستخفافاً فافضت بسامعها الى ارتكاب أعظم الشرور وكم عيب خفيَ على المعلم او قصَّر في معالجتهِ فأعدى ما بصاحبهِ من السجايا الحسنة وأفضى بهِ الى حياة كلها معيبة

نحن الشرقيين أحوج العالمين الى المعلم الذي يقدّر هـذه المسؤولية حقَّ قدرها ويحسن القيام باعباء وظيفتهِ والتصرف في الشؤون التهذيبية التي تختلف فيها بلاده عن البلاد الأخرى . ولما كان بين المعلمات المشتغلات في المدارس الأهلية مَن لم يتسنَّ لهنَّ الوقوف على أساليب التهذيب والتربية من مصادرها واسفارها الفنّية رأيت ان أضع هنا لمحة عامة ادلهنَّ فيها على تلك المصادر وازيدهنَّ بعض نصائح لعلهنَّ في حاجة اليها . وارجو ان تصلح هذه اللمحة لأن تكون احدى النبذ التي أشرت بها لارشاد المعلمات او تذكرة لمن اراد

مساعدتهنَّ من ذوي النجدة والجاه في الأمة فأقول :

يترشح المعلمون والمعلمات في البلاد الغربية بعد خروجهم من المدارس العادية بدخولهم في مدارس المعلمين وتمضيتهم بهـا بضع سنوات . وأهم ما يجنونه منها لمستقبل وظيفتهم هو التمكن من أساليب التعليم والتربية الصحيحة والوقوف على آراء مشاهير الاساتذة وفحول التهذيب مثل مونتان . وكومينوس . وروسُّو . وبستالوزي . وهربرت سبنسر . وهربارت وغيرهم[1] ولا يتركون هذه المدارس الاَّ وقد وقع اختيارهم على الطريقة المثلى في تقريب المراد لأفهام من يعلمونهم

ولكن المعرفة والمعلومات ليست كل ما يلزم لنجاح هذه الصناعة بل السرّ في نجاحها هو الدعوة القلبية وتلبيتها على علمٍ بمصاعبها الجمّة ومن توفَّر فيهم هذا الوصف لا تزيدهم هذه المصاعب الاّ اقبالاً عليها ونشاطاً في اداء واجباتها بل تراهم يُعرضون بوجوههم عن مزايا المهن والوظائف الأخرى غير حافلين بفوائدها المادّية والادبية ويكتفون بما تبسم لهم بهِ هذه الصناعة من حين لآخر في تقدم من يعلّمونهم . وأقلُّ ما تُثيبهم بهِ في نجاح طريقة مستنبطة او فوز تلميذ عاطل او كسول ، أهنأ عندهم من العافية وألذّ من الراح الشمول

فكم وُجد بين الرجال والنساء من مجتهد آنس في نفسهِ اللياقة

(١) انظر العددين ٤ و ٥ من الحاشية بالصفحة الآتية

لهذه المهنة ولئن لم يتوفق له الدخول في مدارس المعلمين فقد امكنهُ بدرس المؤلفات الشهيرة (١) في هذا الفن ان يقف على أحسن الاساليب والآراء الاساسية ويجري عليها في تعليمه . وهذا كان نصيب اكثر ائمة التعليم في بدآءة اشتغالهم بهِ فقد توفقوا باستعدادهم الطبيعي وجدّهم في تحسينهِ وحسن استخدامهِ للحصول على المراد وزادوا على ذلك بان هدوا الغير بمؤلفاتهم وارشدوهم بها الى السبيل السويّ

ويجب على من تصدّت للتعليم من الشرقيات ان تراعي في تعليمها ما تفتقر اليهِ الفتاة الشرقية لأن حاجتها الى ارشاد من يعلمها بالنظر الى

---

(١) وهذه هى اسماء الكتب الشهيرة التى وضعت لارشاد المعلمات فى وظيفتهن وأغلبها مترجم لعدة لغات : —

1. Cours Normal des Institutrices, par Mlle. Sauvans, Paris.
2. Education des jeunes filles, par Marion, Paris.
3. Work and play in girls schools, by Beale, London.
4. Essays on Educational Reformers, by Robert Quick, London.
5. Educational Theories, by Oscar Browning, London.
6. Religious Education How to improve it, by Rev.Carter, London.
7. Moral Instruction and training in schools, by Saddler, London.
8. Direction Morale, par Barrau, Paris.
9. Our Secret sins - For the presidents of female colleges, by Dio Lewis N. Y.
10. The Teaching of History in Elementary and Secondary schools, by Henry Bourne, London.
11. School Hygiene and laws of Health, by Porter, Edinburgh.

أحوالها وشؤونها الخصوصية وعوائدها القومية اكثر من احتياج الذكور الى الارشاد . فيتعين على المعلمة ان تشترك مع تلميذتها في كل صعوبة وان تساعدها على تقريب المراد الى فهمها لا ان تتركها وشأنها كما هو جارٍ في هذه الايام اعتماداً على ما يستحثّ التلميذ الى الاجتهاد من الأرقام الدالّة على السبق او التأخر لأن معظم التلامذه ذكوراً واناثاً يرون الكسل أرفه من الكدّ لنيل السبق (١) ولكن يُجدي فيهم اهتمام أساتذتهم بشأنهم وتودُّدهم لهم وتفقدهم أحوالهم

فحتى يتمّ التهذيب على اكمل وجه وأقوم طريق يتحتم على المعلم والمتعلم ان يحبّ كلٌّ منهما الآخر المحبة المتبادلة كالتي بين الوالد وولده . وكل تعليم يُبنى على غير هذا الأساس لا تؤمن عاقبته ولا يؤمل منهُ تفوّق او براعة . ومما يؤيد هذا المبدأ الجليل ما حُكي عن الفيلسوف سقراط وهو ان رجلاً أحضر له ابنه ليعلمهُ فلبث هذا الابن حيناً عند ذلك المعلم العظيم ثم ردَّه لوالده قائلاً « لا أستطيع ان اعلم ولدك لأنهُ لا يحبّني » . ومن حِكَم سقراط في هذا الصدد عن الاستاذ قوله :

---

(١) قلت معظم التلامذة لاخرج ذوى النشاط والمثابرة وأولى الاحساس الحى لا المنتحرين لاعتقادى ان الذى يهون الموت على هؤلاء هو جبنهم عن معاودة الدرس والا فاين الشجاعة عند من يهرب من مزاولة الواجب ويرضى ان يترك والديه يتضوران على فراقه . أما من خلا من هذا الجبن بين المنتحرين فانما ينقاد بفطرة التقليد الى الانتحار لا بخوفه من الفضيحة والعار (المؤلف)

« ان مثَل المعلم الذي لا يحبُّ تلميذه مثَل من استأجر حقلاً الى حين ليزرعهُ فهو يحاول ان ينتفع منــهُ ما استطاع ولا يهمُّه اصلاحه . اما المعلم الذي يحبّ تلميذه فمثَله مثَل من اشترى حقلاً وصار ملكاً له فيكون بالطبع موضوع عنايتــه ويحرص على اصلاحه ويخصُّه بكل شيْ حسن »

وأجلُّ خدمة تؤديها المعلمة للفتاة وبالتالي للأمة بأسرها هي ان تنزع من عقلها ما اكسبها اياه محيطها من التصوُّر انها انما جعلت لتشوق الرائين بلطفها وابتسامها ورشاقة كلامها وانتظام هيئتها وحسن هندامها وان تغرس بدلاً من هذا التصوُّر اليقين التام بان اللطف والبشر وحسن الهيئة ولياقة الظاهر انما هي من مقتضيات حسن التربية وموجبات الآداب الراقية والاخلاق الكريمة المرضية . وبانها أرفع وأسمى من ان تكون ألعوبة لإلهاء الناظرين او طرفة لتلذيذ حواسّهم . وبذلك تبثُّ المعلمة في الفتاة روح التطلع الى الغاية السامية التي وُجدت لها المرأة والاهتمام بما عليها من المسؤولية لله ولأمتها ولوطنها

ويجب ايضاً على كل معلمة أن لا تكون جاهلة بما هو جارٍ في بلادها من العوائد المضرَّة ولاسيما ضروب الغش في المعاملات والنفاق والخداع في المعاشرات وأنواع الفخاخ والحبائل الشيطانية التي ينصبها الاشرار للفتاة فمن كانت لها هذه المعرفة يمكنها ان توهّب تلميذاتهــا بتصريحها آونةً وبتلميحها اخرى لملاقاة هذه المفاسد ومقاومة هجماتها

فكم تندهش المتعلمة التي تجهل نقائص جيلها وحبائل عصرها متى خرجت من المدرسة وكم تعروها الحَيرة والفشل والخيبة متى رأت كل ما يصادفها في مستقبل حياتها مخالفاً لما تعلمتهُ في كتبها ومن معلمتها عن بلادها بل ربما أوغلت في الفساد ، وأسفت على ماضي الاجتهاد ، الذي ذهب كلهُ سدى ، وما كسبت منهُ جدا

هذه لمحة عن مسؤولية كل معلمة وبعض ما يجب عليها ان تتصف بهِ من الصفات العمومية ولم أتعرض فيها لأمور كثيرة مثل معلومات المعلمة ونحوها . بيدَ اني لا أرى بدًّا من اضافة أمرين قد وردا في كتاب ارسله في أخريات القرن الماضي وزير معارف فرنسا الى رئيس مدرسة المعلمات الكبرى بتلك البلاد قال : « لا حاجة بي ان ازيدكم وصية بوجوب العناية الخصوصية بامرين ليس في واجبات المعلمة اهم منهما وهما :

الأول — آداب المعلمة وأخلاقها . فان أهم وأجمل ما تتجمّل بهِ المعلمة هو مكارم الاخلاق والكمالات الادبية الحقيقية

الثاني — اوجه التفاتكم الخاصّ الى ذلك القسم من التهذيب النسائي الذي يمتاز بمواضيعه الرقيقة و بفروعه المتشعبة وهو ما يُعبَّر عنهُ بالدراسة الأنثوية »

ومن كلام هذا الوزير تظهر قيمة هذين الأمرين اللذين عليهما مدار هذا الكتاب . أما كونهما أهم ما يجب على المعلمة فذلك لأنها

اذا لم تكن عاملة كما هي عالة لا تكون فقط كالمسنّ الذي يحدُّ ولا يقطع بل تضرُّ بقدوتها اكثر مما تفيد بتعليمها ومعرفتها

وهنا نسأل هل لكثير من معلمي بناتنا ومعلماتهنَّ هذه الصفات وهل هم يراعون هذه المسؤولية ؟ اوَليس جديراً بنا و ببناتنا ان نطالب بهذه الصفات كل من تصدَّى لتعليمهنَّ ونسعى في إيجادها والتشجيع عليها مهما كلفنا ذلك من نفقة ومشقة ؟

***

وخلاصة ما تقدَّم اننا الآن بازاء واجبات كلها مقدَّسة يتحتم علينا اداؤها بل ضروريات هامّة لا يقوم اجتماعنا الاَّ بها ولا وجه يخفف مسؤوليتها او يبرّر سكوتنا عنها وهي :

اولاً — ان ندعو سراتنا وذوي الثروة منا بأرقّ وأشرف ما يمكن من صِيَغ الطلب اللائقة بكرامة السائل والمسؤول ليبذلوا مما توفَّر لديهم ما تحثهم بهِ ضمائرهم في سبيل انتشال فتاتهم المصرية وترقيتها الى ان تندَى اكفّهم ويُقبلوا على تأسيس معاهد ملائمة لتهذيبها ويُحضروا لهذه المعاهد من اوروبا ما يلزمها من الرئيسات والمعلمات المقتدرات

ثانياً — ان ندعو أمّتنا بأسرها الى تأسيس جمعية عمومية ولجان خصوصية تؤلَّف من عقلاء معتدلين يتولّون ترقية شؤون الفتاة المصرية حتى تجاري اخواتها الغربيات في كل ما يُحمد من رقيّ العصر

الحاضر ويكفونا واياها شرَّ التطرُّف والغلطات القديمة والحديثة فى أمر التهذيب

ثالثاً — ان نتعاون جميعاً على اجراء الاصلاح الممكن في الوقت الحاضر بالوسائل التي ذكرناها او بأية وسيلة أخرى يُهتدى اليها ويُتفق عليها الى ان تتم لنا الغاية على الوجه الاكمل لأن الحاجة ماسّة وتستوجب الاسراع واليقظة . ولا يخفى ما في تلبية طلبنا هذا والمبادرة باتمامهِ من الاعانة على التدريج الواجب للاصلاح والتمهيد لنهايته القصوى التي نخشى انها بعد انتظارنا اياها واهمالنا سواها تأتينا في غير حينها فنكون ممن عناهم العلّامة كولتون الانكليزي بقوله « ان الاصلاح عند بعض الناس كالعنب الاسكوتلاندي الذي قلّما يُرى ناضجاً ومتى نضج جاء في غير أوانه »

رابعاً — ان نراعي الاعتدال في كل امرٍ لأن البناء الذي يبنى على هذا الأساس هو كالبيت المبنيّ على الصخر يدوم ثابتاً لا يتزعزع بل الاعتدال هو التربة الجيدة التي اذا زُرعت فيها بذور التهذيب « تعطي ثمراً بعض مئة وآخر ستين وآخر ثلاثين » . وغني عن البيان ان الاعتدال هو ابو الحذر والتدريج اللذين يستلزمهما كل اصلاح بل هو ابو وسائل الرقيّ جميعها كما تقدَّم

فيا مصر بناتك عِرضكِ وجواهر إكليلك ودعائم رقيّك فعنايتك باصلاح تهذيبهنَّ وتربيتهنَّ التربية الكاملة المبنية على أساس الاعتدال

لكِ فيها غاية الصون والشرف والعكس بالعكس

ويا ايها المتولون تهذيب الفتاة المصرية المسؤولون عن مسيرها ومصيرها بما أقامكم الله فيهِ من نسبةٍ او مركز كسراةٍ وأساتذة ووالدين لكم فيما بيّناه من عيوب التهذيب ووجوب اصلاحها حقائق راهنة لها مصير خطير . إما الى أوج السعادة او لحضيض الشقاء . وجميعها تناديكم عن لسان الفتاة نداء السائل الأعوز المتوسل بجاهكم وعلمكم ومروءتكم وحنانكم ان تبلغوا بفتاتكم الغاية الحسنى . وان تمدُّوها بما يقيها سوء العقبى ما دمتم في مكان الامكان . فعساها ان تجد منكم من يلبّي نداها وينيلها مناها بأقرب سبيل ، والاّ فحسبها الله ونعم الوكيل

الفصل السادس

وسيلة الوسائل وغاية الغايات

التقوى نافعة لكل شيء اذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة
(اتيم ٤:٨)

يا منيل الفتاة علماً لكي تصـــبح ذخراً لنسلها والقرين
ليس بالعلم وحده يتسنى لك هذا هيهات دون الدين
(*)

بقي علينا من حاجات الفتاة أمرٌ ليس فيما أسلفناه ما يدانيهِ في اهميتهِ وخطورتهِ . فهو القوة العظمى التي تتزن بهـا العقول والعلوم والأقوال والأعمال . فلا يقوم اعتدال الاّ بهِ ولا ينتمي رقيّ متين الاّ اليهِ ولا تُبنى فضيلة حقيقية الاّ عليهِ . هو الذي لما تنكّر له الغرب أوشك تمدُّنهُ ان يكون توحشاً . ولما احتقره الشرق وعدّه عاراً ، انقلب حياؤه قحةً وأدبهُ رياءً واستهاراً ، فشمّرت فيه الفضائل عن ساق ، وآذنت بالانطلاق ، بل هو الذي نشأ عن عدم الاحتفال بهِ في مدارس البنين والبنات ما هو فاشٍ فيها من ضعف أدبي ومبادئ عاطلة . ولست مطيلاً تشوُّف القارئ الى معرفة هذا الأمر المجيد (ان لم يكن قد عرفهُ من العنوان ، او من ذكر أوصافه الحسان .) الاّ ريثما نأتي

على السلسلة القصيرة التالية ونبلغ آخرها وهي : — لا رقيّ صحيح بدون تهذيب . ولا تهذيب صحيح بدون اعتدال . ولا اعتدال صحيح بدون دين

أقول والأسف ملء الفؤاد ، على ما آلت اليه آداب البلاد ، اني بلغت من بحثي الى نقطة استوجب على ذكرها الرجم — ولو بالغيب — من المولعين بالافكار العصرية لأنهم لا يعتقدون وجود وسط بين خطتهم وخطة المحافظين على العوائد القديمة . فمن قرأ منهم الفصول المتقدمة وتردَّد في اني رجعيٌّ مثل هؤلاء او عصري مثلهم لا يكاد يقع بصره على هذا الفصل حتى يجزم برجعيتي ومحو اسمي من جريدة التمدن الحديث والرقيّ العصري

ولكني اتوخّى في تعرّضي لهذه الحقيقة مرضاة الحق وأُلبّي فيه نداء الضمير القائل لي ان سخط قوم عليَّ لاجلالي ما لا يلائم مشربهم في هذا الأمر المهمّ أيسر خطباً من سكوتي عنهُ في أحوج المواضع لذكره قال لي عاذلي . وقد خال خطباً مرَّ بي . لولا الدين ما كان مَرَّا
قلتُ كم ردَّ الدين لي المرَّ حلواً كلما ردَّ الدهر لي الحلوَ مُرَّا

(*)

على انه لا يزال يوجد بين المصريين كثيرون يتألمون من تفشّي عدم التدين بيننا ويخشون عواقبه الوخيمة لبلادهم وعائلاتهم فحسبي اشتراك هؤلاء العقلاء معي في شعور واحد وعليه قد استخرت

الله في ان انبّه هنا لهذا الأمر الخطير بطريق الاجمال ، معتقداً انهُ للتهذيب والحرية وللرقيّ والمدنية الالف والياء والكلّ في الكلّ . وهو للنساء والرجال ، محطّ الرحال ومنتهى الآمال

لو سألنا الذين خُلبت عقولهم ببهرج الرقيّ المادي ما هو الرقيّ وكيف يكون لأجابونا ان الأمة الراقية هي التي استجمعت لها اللوازم العمرانية جسمية وعقلية فأصبحت تباري الأمم بسككها الحديدية ، وعماراتها البحرية ، وآلاتها البخارية ، وانوارها الكهربائية ، واسلاكها البرقية ، ومراكبها الهوائية ، ومدارسها الكلية ، ومعاملها الصناعية ، ومبانيها الفاخرة ، واموالها الزاخرة ، وتجارتها النافعة ، ومتاحفها الواسعة ، ومكاتبها الجامعة ، وتُنافس الأمم بالتأنق في زيّها ، وحليّها ، وفراشها ، ورياشها ، ومطاعمها ، وولائمها ، وتفاخر بعلمائها ، وشعرائها ، وادبائها ، وخطبائها ، فلا يكاد أحد يسمع هذا الوصف الاَّ اعتقد ان هذا هو الرقيّ الصحيح . أليست الشجرة تعرف من ثمارها ؟

ولكن من تأمل مليًّا في هذه المزايا لا يرى فيها الاّ الرقيّ السطحي والتمدن المادّي فقط اما الرقيّ المتين والتمدن الكامل فهو ما كان أساسه تهذيب النفس والقلب قبل كل شيء . لأنك مهما بالغت في تهذيب الناشئ بالعلوم والفنون وأهملت تربيتهُ النفسية لم تزدْه شيئاً عن صغار المتوحشين . وهكذا اذا فعلت بأمّة متوحشة فهذّبت قواها الجسدية والعقلية وجعلتها تسبح في بحر من النعيم والرفاهية ولم تتعمد منها تهذيب

القلب والنفس فلا تزال ترى في تلك الأمـة التوحش بأكمل معانيهِ بيدَ انهُ توحش يرفل في لباس من حرير ويركب عربة مذهبة ويسكن القصور الشامخة الفاخرة بدلاً من الاكواخ الحقيرة . والفرق والحالة هذه بين ما ظهر وبطن ، لا يخفى على المتأمل الفطن

ولسائل يسأل ألا توجد آداب وفضائل نفسية صحيحة خلواً من الدين ؟ فالجواب كلاً لأن مَثَل من اعتمد في الآداب والفضائل على نصائح العلماء والحكماء او على ما يدلُّه وجدانه وفَصَلها عن الدين الذي يطهرها من الشوائب ، ويجريها في مجراها الواجب ، كمثل من عمد الى أنابيب المياه التي تستمد الماء من نهر عذب كالنيل وتوصلها الى المساكن فقطعها عن ذلك النهر وسلَّطها على الصحراء . ومثل من أراد العمل بأوامر الدين ومناهيهِ وأنكر واضعها كمَثَل من أطاع شرائع بلاده واحتقر ملكها الذي سنَّ تلك الشرائع

ولهذا السبب أجمع الفلاسفة من عهد افلاطون الى الوقت الحاضر وكذا كبار اللادريين المتأخرين مثل رينان وسنت بوف وغيرهما على وجوب اتصال الدين بالآداب والاخلاق وجعلهما باباً واحداً في التعليم . وعلى هذا الاعتبار والترتيب جرت الشريعة الفرنساوية منذ سنة ١٨٣٣ (انظر كتاب فن التعليم لأوجين رندو صحيفة ١٣٤ — ١٣٦) . ولعلَّ قاسم بك امين نظر الى هذا المبدأ بقوله في كتابهِ المرأة الجديدة : « ان الأدب والدين يرجعان الى شيء واحد »

الفرق عظيم جداً بين من يقول شرفي ينهاني عن فعل هذه الرزيلة ويقضي عليَّ بتلك الفضيلة (على فرض ان نقطة الشرف معيّنة عند هذا القائل وليست موضوع خلاف دائم من الوجهة العلمية المحضة) وبين من يؤمن بالخالق ويؤثر رضاه باتّباع وصاياه ويراه حاضراً معهُ سواء كان في خلوتهِ او مع الناس ناظراً الى كل ما يفعله او يفكر فيهِ من حسن وقبيح قائلاً مع الشاعر

اذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ ولكن قُل عليَّ رقيبُ

قال عالم كبير من المصريين في مقالةٍ لهُ كتبها لاقناع أولى الأمر في مصر بالعناية بالتربية الدينية :

« ان أنفس المصريين أُشربت الانقياد الى الدين حتى صار طبعاً فيها فكل من طلب اصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعهُ فيها فلا ينبت ويضيع تعبه ويخفق سعيه . ومن لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على اصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم »

وقال احد كبار المصريين في خطاب ألقاه من عهد قريب ما يأتي :

« ولا نزاع في ان امتزاج العلم الديني النقي بالتعليم النافع العصري ينشأ عنهُ نهضة علمية ينبثُّ أثرها في طبقات الأمة وتستمد فيهِ الافكار بما يُصلح ويقوّم المعوجّ من الصفات والاخلاق . وما يردع النفوس

عن غيّها ويصرفها عن اهوائها مثل أوامر الدين ولا تستقيم المعاملات الدنيوية على قاعدة التناصف بالقوانين الوضعيـة وحدها ما لم تكن مؤزرة بالقوانين السماوية . آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر ومحذّرة من سخط الله وعقاب الآخرة . وخشية الله في الخلوة أفعل في النفس وأرهب لها من رؤية السيف مسلولاً في يد الجلاّد لإنزال العقاب بها على رؤوس الاشهاد »

وجاء في مقتطف شهر دسمبر ٩١٠ ما يأتي :

« ولا عبرة بثبوت العمران الآن بين الاقوام الذين شاع التعطيل (اي انكار صفات الله تعالى) عندهم لأنهم تربوا تربية دينية فرَسخ في نفوسهم عمل الواجب وكراهة الكذب والاعتداء على الغير ونحو ذلك من الشرور ولكن اذا نُزع مبدأ الحلال والحرام الديني تعذّر وضع مبدإٍ آخر يقوم مقامه ويرسخ رسوخه ولذلك يوجس المفكرون شرًّا مما تصير اليـهِ حال اوروبا وأمريكا في أواخر هذا القرن اذا انتشر التعطيل فيهما . هذا فضلاً عن ان التعطيل غير معقول لذاته ففرضه خطأٌ علمياً كما هو ضررٌ اجتماعياً والمجاهرة بهِ تفضي الى المضارّ على نوع الانسان »

ولا يظنَّنَّ القارىء اننا نريد الحطّ من قدر العلوم والمعارف بتعجيزنا اياها فيما يختصُّ باكتساب الآداب الصحيحة بل نحن نعتقد ان العلوم أشعّـة نور الله في الانسان وعون له على الدين الذي هو

غاية الغايات كما قال عنها الشاعر :

ففيها جلاءٌ للقلوب من العمى وعونٌ على الدين الذي أمره غنُم

وانما الذي نريد تقريره هو ان العلم قوة هائلة ووجودها في يد الانسان بدون الدين الذي ينظم سير هذه القوة ويضبطها ويُجريها في أغراضها التي وضعت لها داعية كل خراب ودمار ولقد أصاب احد علماء الغربيين في قوله « ان المتمدن الخبيث شرٌّ من المتوحش لأن خبثه مروَّق ومصفّى ولأنهُ متوحش متسلح بأسلحة الرقيّ المادي . ومثله قول الشاعر العربي :

اذا ما اقتنى العلمَ ذو شرَّةٍ تضاعفَ ما ذُمَّ من مخبرِهْ

وصادفَ من علمهِ قوَّةً يصول بها الشرّ في جوهرِهْ

بين أنواع النبات نباتة سامّة تدعى السيكران وهي تستعمل طبياً استعمال الافيون وتتهافت الطيور على التقاط حبّها ومتى اكلت منهُ ماتت في الحال الاَّ طائراً صغير الحجم يسمى بالخطّاف فهذا الحبُّ يغذيهِ ويمرئهُ لأن اوردة هذا الطائر دقيقة جداً لا تدَع بخار هذا الحبّ يمرُّ الى القلب الاَّ ملطفاً ضعيف التأثير ولذا لا يصيبهُ منهُ ما يصيب غيرَهُ من الطيور

فالعلم لأهل الدين بمثابة السيكران للخطاف فهو لا يضرُّهم شيئاً بل يستفيدون منهُ فوائد لا تقوَّم أما من لا دين لهم يقيهم من اضرار العلم فبالعلم يهلكون ولا يسلم الغير من ضررهم . وما أصدق الوحي في

قوله « العلم ينفخ ولكن المحبة تبني » وما المحبة هنا الاّ روح الدين ولبُّهُ على ان الباحث في العلم اذا أنعم النظر وتثبت مما يبحث فيهِ لا لمجرَّد توسيع مداركه ونيل غاياته الدنيوية فقط بل ارادة الوقوف ايضاً على مصادر الكائنات وعلة كيانها لا يلبث ان يرى يد الخالق سبحانهُ وتعالى بادية في كل بحث وهذا ما شهد بهِ العلماء المحققون في كل زمان ومكان قال اللورد باكون الفيلسوف الانكليزي الشهير « المعرفة السطحية تبعث على الشك والالحاد أما المعرفة الصحيحة فترجع بالمخلوق الى خالقهِ » فما اصدق المثل السائر « وكفى بالشك جهلاً »

« وكفى بالشك جهلاً »

ما رأينا راسخاً في العلم الاَّ ... بلباس الدين والتقوى تحلَّى
مذ جلا ألحاظَهُ العلمُ رأى ... في سماء العلم شمس الدين أجلى
وسناها ضاء في ابحاثهِ ... كلها حتى غدا للعلم كُلاَّ
فاذا ما قيل هل من ملحدٍ ... قد حوَى علماً صحيحاً قيل كلاَّ
انما علم ذوي الالحادِ مَوْ ... ج سراب من سعى خلفه ضلاَّ
ادَّعَوْا علماً ولكن في يقيـ ... ـنهِ شكُّوا « وكفى بالشك جهلا »

(*)

قد حدث في اوائل السنة الماضية ما أدهش الدوائر العلمية في الاقطار الغربية بل في العالم بأسره وذلك ان العلاَّمة المستر ألفرد ولس احد اكبر اساطين المذهب الدروييني والذي كان رفيق دروين في مباحثهِ

وعديله فى علمهِ ومثيله في عقيدتهِ قد ألّف كتاباً من عهد قريب أقرَّ فيهِ بصحة الوحي وقدرة الخالق وكفَّر عما سكت عنهُ هذا المذهب في الماضي من هذا القبيل، او مال بهِ في الرأي عن سواء السبيل. ودونك ما جاء في مجلة المجلات الانكليزية عن هذا الخبر نقلاً عن مقتطف شهر مارس سنة ١٩١١ :

« لو قلتَ لرجال العلم منذ اربعين سنة ان شريك دروين في اكتشاف ناموس النشوء والارتقاء يؤلف كتاباً يقيم فيهِ أقطع الأدلة وأصرحها على ألوهية الخالق وأزليته وعنايته التامة بمخلوقاته لهزأوا بك وقالوا هل يخرج من الناصرة شيء صالح ؟ ولكن خرج المسيح من الناصرة وصدر من عقل « ولس » كتاب عالم الاحياء » (١)

---

(١) نعم ان هذا ليس مقام اقامة الدليل على وجود الخالق وصدق وحيه لانه قد وضعت لذلك كتب مخصوصة كافلة باقناع كل مرتاب فليراجعها من كان كذلك ولكن يهمنا فيما نحن بصدده من التهذيب الحاضر ان نعرف الاسباب التى تحمل البعض على مناوأة الدين حتى ينتسى لكل طالب مخلص مقاومتها والتحذر منها سيما وان الكفر قد انتشر الآن فى كل انحاء هذه البلاد وهو يفتك فتكاً ذريعاً فى نفوس الكثيرين ولا راث لها ولا معين . اما الاسباب التى تبعث الناشئة وغيرهم على كراهتهم للدين فأهمها ما يأتى :

(١) تفشى الكفر فى الغرب وانتقاله الينا منه بطرق كثيرة وتهافتنا على محاكاة الغربيين فيه

وقد ثبت بالاختبار ان للدين فضلاً عظيماً في تقدم الشعوب ورقيها وان عدمهُ علة تأخرها وانحطاطها وبذلك شهد ملوك العالم وعظماؤه وساسته وعلماؤه : فمن ذلك ان ملك الزنجبار زار بلاد الانكليز في عهد الملكة فكتوريا فأذهله ما رآه في بلادها من التقدم الباهر فسأل الملكة عن اسبابه فتناولت الكتاب وقالت « هذا هو سرّ رقيّ الانكليز » . وقال مشياڤلّي الفيلسوف الايطالي « ان التدين هو سرّ

---

(٢) ميل الانسان الفطرى الى الفساد واستثقاله الفضيلة التى يأمر بها الدين

(٣) الاقبال على قراءة الروايات الغربية المشحونة بالازدراء بالدين وغيرها من مؤلفات الملحدين والاعراض عما رد به المؤمنون الثقات على هذه المؤلفات

(٤) عدم الاطلاع على الكتب المنزلة واهمال قادة الدين وغيرهم من ذوى التأثير واجب الحض على قراءتها

فيتضح مما مر ان الناشئة يدرسون دعوى احد الفريقين وهو فريق الشك والالحاد ويهملون درس دعوى فريق الدين فيميلون بالطبع الى جانب الاول ويعرضون عن الثانى وفى هذا من عدم الانصاف مالا يخفى على اللبيب . فلو انصف المرتاب وعنى بمطالعة ما فى الدين من اصول وردود عناية الحكم العادل المتعين عليه درس أقوال الخصمين واقبل عليه بروح الاستفادة والاسترشاد لا بروح التعنت والعناد لانكشف له بنور البحث الحق الصراح ، ومال الى جانب الدين وما فيه من الصلاح .

رقيّ الممالك وعدمهُ علة انحطاطها »

ان ما اشتهر عن غلادستون من التدين لا حاجة معهُ الى ايراد اعتقاده في الدين وتأثيره . ولكن قلما كان يُظن ان بسمارك باقعة السياسة وأبا الدهاء يحذو حذوَ غلادستون بأن يقول قولهُ ويطري الدين وفعلهُ . ولإثبات ذلك يكفينا ايراد فقرة واحدة من كلامٍ له مطوّل عن الدين وارد في الجزء الثاني من تاريخ الشيخ محمد عبده وهو قوله : « اسلبوني الايمان بالله تسلبوني محبتي لوطني » وقد علق الشيخ على هذا وغيره من أقوال بسمارك الضافية عن الدين بقوله : « ان الاعتقاد بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما بسمارك الى ما لم يُدركه فيه مُفاخر ولم يكثره مُكاثر »

وما هذا الاّ انموذج لشهادات الوف من أفاضل الناس بما اختبروه من فعل الدين في رقيّ الأمم

ومعلوم ان فعل الدين في رقيّ البلاد ما هو الاّ نتيجة فعله اولاً في الافراد فرقيّ الأمة كلمة ينطوي تحتها كل ما ادّى اليها من الأعمال والأوصاف التي يأتيها ويتصف بها كل فرد من مجموع الأمة حسبما اكسبه التهذيب الديني من الاستقامة والشجاعة ومحبة الغير والطاعة لشرائع البلاد وغير ذلك مما يؤدي الى نماء العمران وحسن حال الهيئة الاجتماعية ، والحرية الحقيقية على اختلاف انواعها ، والسعادة العائلية ، وزيادة قوة الشعب الادبية ، وبالجملة كل ما يقوم بهِ الرقيّ

الحقيقي . وهذا ما حدا بالملحدين أنفسهم الى الاقرار بأنهم لا يتمنون لابناء جنسهم او لاولادهم ما هم عليه من عدم التدين لعلمهم بمصيره المخالف لهذه الحقيقة الاجتماعية المشهود لصحتها :

قال هكسلي أحد جبابرة الملحدين وكبير علماء القرن الماضي : « لقد طالما اعتقدت أفضلية التهذيب العلمي المحض المجرَّد من الدين ولكني اعترف بما لحقني من الحيرة الشديدة لما لم أرَ وسيلة أفضل من الكتب المنزلة لبثّ الشعور الديني الذي هو دعامة سلوك الانسان . فهي الكتب التي تنزهت آدابهـا عن كل ما يشين آداب الوثنيين والرومانيين وغيرهم والتي تهدي الانسان الى التجمل بالانسانية الحقّة ويعرف منها جزاء الخير والشر بأسهل سبيل »

وقالت احـدى السيدات الانكليزيات للمستر هيوم المشهور بفلسفته المخالفة للوحي « ارجوك ان تجيبني بصراحة على سؤال عنّ لي وهو : أتحب ان يكون خدمك وذووك من المؤمنين بالله او ممن يعتقدون اعتقادك ؟ » فاجاب « انما أحب ان يكونوا من المؤمنين بالله » وقد رأى الفيلسوف هربرت سبنسر ضرورة التدين للافراد وحتى يوفق بين هذه الضرورة ومبادئه المخالفة لما جاء في الكتب المنزلة اشار في كتابه عن التربية بأن ينعم الطالب النظر في اعمال الطبيعة وان يقرن هـذا الانعام بالممارسة والعمل وصرَّح بأن درس الطبيعة بهذه الكيفية هو عبادة عملية وهي أوفى من كل عبادة في اظهار عظمة

الخالق وأدعاها الى تسبيحهِ

فالأمة التي تقرن العلم بالدين هي الأمة الراقيـة حقاً فاذا كان لها زينة الرقي المادي مع الآداب النفسية الحقيقية زادَ رقيُّها بهاءً وجمعت من الحُسنين ، ما تطمئن له النفس وتقرُّ بهِ العين

حتى تصادف اترُجًّا يطيب معاً حملاً ونوْراً فطاب العود والورقُ

أما الأمة التي تقتصر على العلم ولا تجعل للدين محلاً في تهذيب بنيها و بناتها فهي تداوي الظاهر وتترك الباطن سقيماً ومثلها كمثل الجرح الذي يندمل على فساد فلا بدَّ ان ينبعث ولو بعد حين

وان الجرح ينفر بعد حينٍ اذا كان البنـاء على فسادِ

فالأجدر بالشرقي ألاّ يغترَّ بما للتمدن الغربي من المظاهر الحسّية الباهرة بل يوجه عنايته الى اقتباس ما عند الغربيين من دواعي الرقيّ الحقيقي كالفضائل النفسية والكمالات الادبية فهذه اولى باهتمامه وأضمن لسعادته ولسروره ، والاّ ترك لبَّ الرقي وا كتفى بقشوره

ولا يخفى ان تعليم الدين لا يُعتدَّ بهِ في مدارس البنات وان وُجد بها فوجوده صوريٌّ ولا يتولاّه من يحدث بهِ في قلوب المتعلمات التأثير الواجب الذي يدوم معهنَّ بعد خروجهنَّ من معاهد التعليم . وحرمان الفتاة من التمتع ببركات الدين هو ابلغ ما يمكن تصوُّره من الظلم والقسوة وذلك بالنظر لما تجنيهِ بتدينها من الفوائد الخاصة بجنسها وما تدَّخره من القوة والتعزية والارشاد التي تفتقر اليها بنيتها الضئيلة

واعباؤها الثقيلة اشدّ الافتقار . وبالنظر لما يترتب على هذا الحرمان من شقائها وتعاستها في كل ادوار حياتها

أوَ ليست هي التي تُحدق بها التجارب ، وتترامى عليها من كل صوبٍ وجانب ، اقلُّها ما تجرُّها عليهـا اناثتها وجمال طلعتها من جهةٍ وجشع الرجال ودوافع لذاتهم الجسمية من الجهة الاخرى ؟

أوَ ليست هي التي اذا زلّت بها القدم مرة في حياتها انثلم صيتها وقضت ايامهـا في الذلّ والمهانة جزاء تلك المرّة واصبحت « مثل الزجاجة كسرها لا يجبرُ » فلا يسمح لها الوسط العائشة فيهِ مهما كان رقيُّهُ وتسامحه ان ترفع رأسها الى ان تُودَع رمسَها ؟

أوَ ليست هي التي تُلقى على عاتقها الضعيف اعباء الزوجية والأمومة التي لا تكاد تحصى ولا تحمل ، ومع ذلك تُطالَب بحسن القيام بهـا جميعها على المنوال الاكمل ؟

أوَ ليست هي التي قضت عليهـا عوائد بلادها ان تقترن بمن قد لا يلائمها سنًّا واخلاقاً وعلماً فيتقاضاها هو وذووه الطاعة والخضوع لكل أمر فتضطرّ للاذعان خشية ان تُعدَّ ناشزاً عاصية فتشين بذلك سمعتها وتكدر حياة والديها ؟

ويعوزنا الوقت اذا استقرينا كل الشؤون التي تزيد فيها النساء عن الرجال افتقاراً لهبات الدين ومرهمِهِ الشافي فلا مشاحَّة ان لها فيه ينبوع تعزية لا ينضب وكنز طهارة لا نفاد لهُ بل هو حصنها الحصين

الذي تلجأ اليــه في كل ضيق ومرض وتجربة وحزن ويأس . قال ڤكتور هيجو : « اعتقاد الناس ان هذه الدنيا هي منتهى حياتهم مما يزيد في آلام المصائب والهموم وينشئ اليأس ويميت الفضيلة ويحيي الرذيلة » . وقال العلاّمة جيزو الفرنساوي : « اذا لم يكن العلم في المدارس مقروناً بالدين تخرَّج منها المتعلمون مجرَّدين من الفضائل »

وعليه يجب ان يُعطى لهذا الدرس المحلّ الأول في مدارس البنات ابتدائيةً كانت او كلية وبأن يُنتقى لتعليمه فيها من كان مقتدراً ليعلّم بقدوته و بعلمه . وان يُخصص له وقت كافٍ لشرح ما يُختار من آيات الكتاب التعليمية وفصوله المناسبة لحالة الفتاة . وان تُنشّط الفتاة بالجوائز لاستظهار الآيات الذهبية النافعة لها . وان يطلب منها ان تشرح ما فهمته من معناها الى غير ذلك من وسائل التحسين والترغيب المؤدّية الى رسوخ مبادئ الدين وظهور فضله ودوام تأثيره

فليتأمل اولياء أمر الفتاة والذين يهمهم مستقبلها ويودّون سعادتها في كيف ينيلونها هذه المنحة السنية من السبيل الذي تتوفر فيهِ معتدلةً خالصة من شوائب الافراط والتفريط لتسعد بها في حياتها وتورثها من بعدها بنيها و بناتها . وليعلم من تسبب في حرمانها من الدين انهُ قد حرمها ونسلها من خيرٍ لا يُقوَّم ولا يُعوَّض وجنى بذلك الحرمان عليها وعلى نفسه وأمته أي جناية ، وعلى الله التوفيق ومنه واليه الهداية

رواية
الفتاة العصرية

وهي ارجوزة تنطوي على نيف وثلثمائة وثلاثين بيتاً
في اثنتين وعشرينه شذرة [١]

الشذرة الاولى

﴿ الغاية من هذه الرواية ﴾

من أغرب النوادر العصريه ... عن نهضة [٢] النساء للحرّيه
ما قد جرى لأُسرة [٣] شهيره ... بالغرب في الأزمنة الأخيره
وقالهُ لي صاحبٌ رحّاله [٤] ... عهدتُ [٥] منهُ الصدقَ فيما قالَه

---

(١) الشذرة : الخرزة التي تُفصل بها الجواهر المنظومة (٢) النهضة : اليقظة او التنبُّه لأمرٍ ما وهي أخص بمسائل الرقيّ منها بغيرها (٣) عائلة
(٤) كثير الاسفار (٥) عرفتُ

أرويهِ لا تفكهةً [١] لكَ فقط ... بل لترى ايضاً عواقب الشطط [٢]
فسيرةُ الأنام من قديمِ ... كم ارشدتْ للمنهج القويمِ
بكشفها كوامنَ [٣] الأسرارِ ... وقرنها [٤] النصحَ بالاختبارِ
لكنني اكتفيتُ بالايماءِ [٥] ... والوصفِ عن صراحة [٦] الأسماءِ
تشهيرُنا [٧] للناس غيرُ لائقِ ... بنا ونحن أضعف الخلائقِ
فكم لنا من عيبٍ اجتماعيْ ... لم تُجدِ [٨] في اصلاحهِ المساعي

الشذرة الثانية

﴿ عائلة كريمة ﴾

في ساحلٍ سادَت [٩] بهِ السكينه ... واشتهرت قلاعهُ الحصينه
يُعزى [١٠] لشعبٍ فاق كلَّ حيِّ ... في حلبة [١١] العمران [١٢] والرُّقيِّ

---

(١) مصدر فكّهَ اي أطرف وأبهج بمُلَح الحديث (٢) البعد عن الحق او تجاوز الحدّ (٣) جمع كامن اي مخفيّ (٤) أي جمعها (٥) بالاشارة (٦) بيان وانكشاف (٧) مِن شهّرهُ بالأمر: أشاعهُ عنهُ (٨) من أجدى يجدي أي نفع وأفاد (٩) عمّت وانتشرت (١٠) يُنسب او ينتمي (١١) مجال السباق (١٢) العمران : حسن حال البلاد وتمدنها ونجاح أعمالها . والرقيّ : الارتقاء

لله [١] قصرٌ شكلهُ يُحبُّ ... قد حفَّهُ [٢] روض أريضٌ [٣] رحب

كأنهُ والزهرُ في الروضِ انفتحْ ... شمس الضحى من حولها قوس قزح

ثوى [٤] بهِ كهلٌ [٥] كريمُ المحتدِ [٦] ... عميدُ [٧] قومهِ وشيخ البلدِ

ذو ثروةٍ كبرى وعلمٍ أكبرا ... وخُلُقٍ كالندِّ [٨] لا بل أعطرا

كانت لهُ حليلة [٩] يهواها ... لحسنها النادر مع تقواها

لو مَلَكٌ من السما رآها ... لقالَ لا يشبهني إلاَّها

عاجلها الردى [١٠] فعاش أرملا [١١] ... لم يبغِ [١٢] عنها بزواجٍ بَدَلا

من هذهِ قد جاءهُ ابنتانِ ... ذاتا [١٣] جمالٍ فائقٍ فتَّانِ

مزدانتان [١٤] بالسجايا [١٥] العذبة ... بل بذكاءٍ مفرطٍ ودُربه [١٦]

فبهما الأرملُ طاب نفسا ... وعن فراق زوجهِ تأسى [١٧]

---

(١) اللاّم في لله للتعجب من هذا القصر (٢) أحاط بهِ (٣) كثير الخضرة وحسن المنظر (٤) أقام بهِ (٥) من كان عمره بين الثلاثين والخمسين (٦) الأصل والعنصر (٧) سيد قومه (٨) شجر رائحته ذكية (٩) زوجة (١٠) الموت (١١) من ماتت زوجته (١٢) لم يطلب (١٣) مثنى ذات اي صاحبتا (١٤) مزيّنتان . وهو افتعل من زان يزين ومطاوع زيَّن (١٥) بالخصال والصفات (١٦) الدُربة : التعوُّد على العمل وحسن تأديتهِ (١٧) تعزَّى . والزوج يأتي بمعنى البعل والزوجة

الشذرة الثالثة

﴿ جارة عصرية ﴾

عاش الجميع في هدوءٍ كاملِ ... ممتّعين بالرفاه[١] العائلي
حتى منُوا[٢] اثناء ذا الهدوّ ... بجارةٍ شديدةِ العتوّ[٣]
عصريةٍ تأتمّ[٤] بالرجالِ ... في زيّها[٥] وسائر الأحوالِ
طلعتها وضيئةٌ[٦] مستحسَنه ... وعمرها فوق الثلاثين سنه
بكرٌ قضت في الدرس والتفرُّج ... طولَ حياتها ولم تزوَّجِ
وافت[٧] ومعها أغربُ المتاعِ[٨] ... منهُ عتيقة[٩] من الأفاعي[١٠]
قيل اشترتها من حواة المدُنِ ... مذ بضع اعوامٍ بأغلى ثمنِ
وأدوات للوغى[١١] والبطش[١٢] ... وللرياضة وصيد الوحشِ
وجملة من أجمل الرياشِ[١٣] ... وأفخر الأثاث[١٤] والفراشِ

---

(١) طيب العيش والسعادة (٢) ابتلوا (٣) الاستكبار ومجاوزة الحدّ
(٤) تقتدي وتتشبه (٥) ملبوسها او هيئتهُ (٦) مليحة حسنة
(٧) أتت او حضرت (٨) كل ما يقتنى من ملبوس وفراش وغيره الاّ الذهب والفضة (٩) عجوز (١٠) جمع أفعى وهي الحية (١١) الحرب
(١٢) الفتك والهجوم بشدّة (١٣) اللباس الفاخر (١٤) متاع البيت

لأنها كانت فتاةً موسرَه[١] من أسرةٍ كبيرة معتبرَه

الشذرة الرابعة

﴿ حقوق النساء (المترجلات) ﴾

مهما يكن في الذوق من تخالُف لا بدَّ للجارين من تعارُفِ
فسارت العائلة السعيده لكي تزورَ الجارة الجديده
فقابل الاختين عند البابِ حاجبها[٢] بالبشر والترحابِ
راح الى مولاتهِ باسميهما[٣] وعاد يحمل الرضى اليهما[٤]
مذ رأتا عندَ الدخول الأفعى وهيَ بدهليز المكان تسعى[٥]
ولولتا[٦] فجاءت العصريه وانتهرت[٧] عن جارتيها الحيه
بعد التعارف والاحتفاء[٨] أفضنَ[٩] في حرية النساء
فقالت العصريةُ : الرجالُ تعدَّوا الاطوار واستطالوا[١٠]

---

(١) غنية . من أيسر يوسِر اي صار غنياً (٢) خادمها اي تابع الجارة الجديدة (٣) أي قدَّم لسيدته بطاقتين مكتوب على كل منهما اسم صاحبتها (٤) اي اخبرهما باستعداد مولاتهِ وسرورها لقبول زيارتهما (٥) انظر صحيفة ٤٧ من الحديث العام (٦) رفعتا صوتهما بالصياح (٧) زجرت (٨) المبالغة في الاكرام (٩) اندفعنَ . من أفاض في الحديث اندفع وأطال فيهِ (١٠) تطاولوا اي تعدّوا . والأطوار : الحدود

واستلبوا المرأةَ كلَّ مكرمةٍ[١] حتى أصاروها[٢] أذلَّ من أمَه[٣]

ألم يئن[٤] ان تطلبَ التساوي من كل ظالمٍ لها مناوي[٥]

أليست المرأة صنوَ[٦] الرجلِ ومثلهُ كفأً[٧] لأسمى عملِ

لِمْ فُطمت[٨] عن درّة[٩] المعالي لِمْ أُلجمت عن مرتع[١٠] الأعمالِ

لِمْ في انتخابٍ صوتها لا يُسمعُ ولا لها حزبٌ ولا مجتمعُ

لِمْ لا تراها للحصون بانيه أو لحروب قومها معانيه[١١]

لِمْ لا تُرى بارعةً في الشرعِ عالمةً منهُ بكل فرعِ

راسخةً[١٢] في الجبر والمساحهْ والكيميا والنجم والملاحهْ

أليسَ من حقوقها اللوازمِ[١٣] المامُها[١٤] برأي كل عالمِ

---

(١) ما تُكرم بهِ أو لأجلهِ (٢) صيَّروها وهي أفعل من صار بمعنى فعَل (٣) مؤنث عبد . اي رقيقة مملوكة (٤) يحين . من آن يئين وحذفت الياء تخلصاً من التقاء الساكنين بعد لم (٥) مُعادٍ ومخاصم . اسم فاعل من ناوَأ (٦) مثيل او شبيه . اذا خرجت نخلتان من اصل واحد فكل منهما صنوٌ وهما صنوان (٧) قادرة على القيام بالعمل (٨) مُنعت . وبمعناها لفظة أُلجمت في الشطر الثاني (٩) لبَن (١٠) مكان الرتع . والرتع الاقامة في المكان الخصب (١١) مُزاولة او مباشرة . اسم فاعل للمؤنث من عانى يعاني (١٢) متثبتة او متمكنة من العلوم المذكورة (١٣) اي الواجبة . وهي جمع لازمة وجمع لازم ايضاً لغير العاقل (١٤) وقوفها او معرفتها

وأن تُضيف كلَّ خلٍّ تألفه[١] يجهلهُ قرينها ام يعرفهُ
وأن تعاطى[٢] علناً ما تبغي من جعةٍ[٣] أو عرقٍ أو تبغ[٤]
كلُّ فتاةٍ حرَّةٍ مُخيَّره وما لمخلوقٍ عليها سيطرَه[٥]
هذا هو الحقُّ الذي يرضاهُ كل امرءٍ تكملت نهاهُ[٦]
وهل يعيبُ الوردَ او يذمُّهُ انَّ سقيمَ الشمِّ لا يشمُّهُ
هنا الفتاة أنهتِ الخطابا وانتظرتْ أن تسمعَ الجوابا
والتفتت لعودها[٧] تملاهُ من تبغ بفرةَ[٨] الذي تهواهُ
وأشعلتهُ وبدَت تدخّنُ حتى ادلهمَّ[٩] بالدُّخان المسكنُ
وأترعت إناءها[١٠] بالجعةِ وشربتهُ كلهُ في جُرعةِ[١١]
فاندهشت زائرتاها جدًّا وما استطاعتا عليها ردًّا
الاَّ بقولٍ مبهمٍ ومطلقِ[١٢] تقضي بهِ[١٣] آداب شعبٍ مرتقي

---

(١) تأنس بهِ وتوَدُّهُ (٢) تتناول . اصله تتعاطى وحذف هذه التاء جائز في الشعر (٣) البيرة او نبيذ الشعير (٤) الدخان الذي يُدخَّن بهِ (٥) تسلُّط او رقابة (٦) جمع نُهيَة اي العقل . وسمي بها لانهُ ينهى عن القبيح (٧) وهو «البيبه» المعروفة (٨) بفرة بلدة في تركيا اسيا شهيرة بزرع التبغ (٩) أظلَمَ (١٠) ملأت قدحها (١١) بلْعة او الدفعة الواحدة من الشرب (١٢) اي غير معيَّن بهِ مدحٌ او ذمّ (١٣) توجبهُ

وعادتا عاقدتين النيَّه على اجتناب الجارة العصريَّه

السنرة الخامسة

﴿ حبُّك الشيء يعمي ويصمُّ[١] ﴾

هذي مبادي الجارة الجديدَه وكلُّها تظنُّها سديده
وافَتْ لذا الساحل كي تبثَّها[٢] في أهلهِ سمينَها وغثَّها[٣]
اذ جعلتْ برأيها تنادي في كل دارٍ حولَها وَنادي
تعمَّدت[٤] منازلَ الأعيانِ وكلّ ذي وجاهةٍ وشانِ[٥]
وطلبتْ منهم بكل جرأةِ تعضيدَها[٦] في رفع شأنِ المرأةِ
واختصَّتِ[٧] العميدَ بالتودُّدْ واكثرَت لدارهِ التردُّدْ
لمَّا رأت اوصافَهُ المكمَّلَهْ وما لَهُ من همةٍ ومنزلَهْ
هل يختفي الصيت الجميل الصالحُ أو يكتم المسك الفتيق[٨] الفائحُ

---

(١) يصيّر المرء اصمّ اي لا يسمع . ومعنى المثل ظاهر ومثله « ان الهوى شريك العمى » (٢) تذيعها وتنشرها (٣) السمين : الجيد . والغثّ : الردىء (٤) قصدَت او توخَّت (٥) الوجاهة : الجاه والقدر . والشان : الأمر العظيم . والمعنى انها قصدت كل ذي قدر واعتبار (٦) مساعدتها ومعاونتها (٧) خصَّتهُ وفضَّلتهُ (٨) العبِق . وهو فعيل من فتق المسك اي استخرج رائحته

سرعانَ[١] ما راق[٢] لهمبداها وقال للنـاسِ اسمعوا نِداهـا
وقبلَ ميلهِ الى المبادي مالَ لمن كانت بها تنادي
ثمَّ غدا يزورهـا في دارِهـا لم ينقطع يوماً عن ازديارِها[٣]
وان تعذَّر[٤] اللقا بالصدفهْ كاد لفرط الشوق يلقى حتفه[٥]
وجفنهُ[٦] في ليلهِ تأرَّقا[٧] ودمعهُ في خدّهِ ترقرقا[٨]
فصدقتْ تسمية « العميدِ » عليهِ في حبٍّ وفي تسويدِ[٩]
وخاف ان يكون فيما أبدى[١٠] من الغرام قد تعدَّى الحدَّا
فقال ما لي الآنَ من علاجِ أقي[١١] بهِ عِرضي[١٢] سوى الزواجِ

---

(١) اسم فعل يفيد التعجب من السرعة . تقول سرعان ما فعلتَ كذا اي ما أسرع فعلك اياه (٢) أعجبهُ وسرَّه (٣) زيارتها . وهو مصدر افتعل من زار يزورُ . ومثله ازدان وازدجر وازدحم وازدرى (٤) كان غير ممكن (٥) موتهُ (٦) الجفن معروف وهو هنا بمعنى العين (٧) سَهر . من أرِق اي ذهب عنهُ النوم (٨) سال (٩) لأن لفظة العميد معناهـا شديد الوجد وسيّد القوم . والتسويد هو السيادة والرئاسة . والمعنى انهُ اذا ذهب الى بيتها واتفق انهُ لم يجدها سهر ليلهُ وسال دمعـه وصدقت عليهِ التسمية (١٠) أظهر (١١) أصُون وأستر (١٢) العرض هو ما يلزم الانسان الحرص على صيانتهِ من نفسهِ وذويهِ

النزرة السادسة

﴿ الخطوة الأولى ﴾

﴿ او قبل الرماء تُملأ الكنائن [١] ﴾

وكان لأبنتيهِ خاطبانِ ... كلاهما من نخبةِ [٢] الفتيانِ
قد طالما راما الزواجَ حالا ... وصادَفا التسويفَ والمطالا [٣]
عنَّ لهُ [٤] لو زوَّج ابنتيهِ ... ثم بَنى زواجهُ عليهِ [٥]
أدلى بعذرهِ [٦] الى جيرانهِ ... فلا يلومونهُ في اقترانهِ
لذا رأى لا بدَّ منهُ [٧] أوَّلا ... وفي زواجهِ عليهِ عوَّلا [٨]
فقال لأبنتيهِ هلاَّ قلتُما ... لِمْ تمطلانِ في زواجٍ حُتِّما [٩]

---

(١) الرِماء : المراماة بالسهام مصدر رامى يرامى . والكنائن جمع كنانة وهي الجعبة اي الجراب الذي توضع فيهِ السهام . وهو مثَل يقال لمن اراد ان يستعدّ لملاقاة حادث قبل حدوثهِ (٢) خيرة او صفوة (٣) المماطلة . والتسويف هو التأجيل والتأخير (٤) لاحَ له (٥) اي انهُ لو ابتدأ بزواج ابنتيه اولاً ثم جعل هذا الزواج حجةً لزواجه هو باعتبار انهُ لا بدَّ له من معين ومؤنس ينوب منابهما معهُ (٦) هيَّأ عذره وأحضرهُ . يقال أدلى فلان بحجته اي احضرها واحتجَّ بها (٧) اي لابدَّ من زواج ابنتيه (٨) اعتمد واتكل (٩) أُوجب اي صار محتوماً لا بد منهُ

ودَدْتُ لو أراكما بعيني ... في عصمة[١] الزواج قبل حيني[٢]
حاشا كما ان ترضيا الحاحي ... عليكما في ما بهِ ارتياحي[٣]
إخلاصهُ[٤] والصدق أرجعاهُ ... عن كتمهِ الأمرَ الذي نواهُ[٥]
لكنهُ استحيا من التصريحِ ... وقال لاجئاً الى التلميحِ[٦]
لا تخشيا مُكثي[٧] هنا وحيدا ... فالله لا يتركني فريدا
وكانت الكبرى بما عناهُ[٨] ... تدري ويخشى قلبها عقباهُ[٩]
لعلمها بأنَّ لا ملاءمه[١٠] ... بين أبيها والفتاةِ العارمه[١١]
واتفقت مع الخطيبينِ على ... ان يصبرا طوعاً[١٢] ولا يستعجلا
اذ أطلعتهما[١٣] على الحكايهْ ... من البدآءةِ الى النهايهْ
ووعداها الجدَّ والمساعده ... في كل ما تعود منهُ الفائده

---

(١) حماية ومنعة (٢) وفاتي او موتي (٣) سروري وراحتي . يريد ان محبتهما له تسوقهما طبعاً الى المبادرة بعمل ما فيه راحته دون ان تضطرَّاه الى الطلب او الالحاح (٤) اتصافه بترك الرياء والغش (٥) وهو التأهل بالفتاة العصرية (٦) ذكر الشيء المقصود بطريقة غير صريحة . والتصريح عكس ذلك (٧) مكوثي و بقائي (٨) اراده وقصده (٩) نتيجته (١٠) موافقة (١١) الشديدة او الصارمة (١٢) عن رضى وطيب نفس (١٣) عرَّفتهما بها

فكم يقي اتحادُ فكر العائله افرادَها شرّ بلايا هائله[١]

السّدرة السابعة

﴿ دفاع[٢] ذوات القناع[٣] ﴾

لذا أجابت يا أبي تأنى فمن تأنى نالَ ما تمنى
فكم بالاستعجالِ من ندامهْ وليس في الصبر سوى السلامهْ
ومَن تَدُمْ[٤] تخدمُ من ربّاها أرضتْ بذا ضميرَها واللّها
امّا خطيبانا فلما فكّرا قد رأيا من الهدى أن يصبرا
فانما الزواجُ يُحتاطُ[٥] لهُ وكلُّ ما سواهُ لن يعدلهُ[٦]
كم أعقب السرعةَ[٧] في الزواجِ من معضلٍ[٨] عزَّ[٩] على العلاج
فلم يَرُقهُ[١٠] قولها وانما قد التجا الى السكوت مُرغما[١١]

---

(١) مخيفة . والمعنى ان اتحاد العائلة في الفكر والسعي يحمي أفرادها من اضرار عظيمة (٢) الدفاع : المحاماة والانتصار . وهو مصدر دافع يدافع (٣) ما تغطي بهِ المرأة رأسها . وذوات القناع هنَّ النساء (٤) تدوم وتبقى . حذفت منهُ الواو لئلاّ يلتقي ساكنان الواو والميم (٥) يُستعدُّ لهُ (٦) يساويهِ (٧) تبعها وجاء بعدها (٨) مشكل عسير الحلّ . يقال اعضل الداءُ الطبيبَ اي اعياه فلم يقدر على مداواتهِ (٩) قوي وصعب (١٠) لم يُرضهِ او لم يسرُّه (١١) على كرهٍ منهُ

لأنهُ على الزواج صممَّا (١) بمن غدا في حبِّها متيَّما (٢)
ولم يجد لنجحهِ وسيلهْ يختارُها غيرَ اتباعِ الحيلهْ
فراح يبني فوق جرُف هاري (٣) تدبيره في الليل والنهارِ
أجلْ . فأينَ حيلةُ المفتونِ (٤) من بعض ما للغيدِ (٥) من فنونِ
أليس في الأنام يُضربُ المثَلْ بما لهنَّ من غرائب الحيَلْ
فكم ومقصد ابنتيهِ حسنُ (٦) يحلّ بل يحلو بهِ التفننُ
لذاك أفضى (٧) بهما التدبيرُ لحيلةٍ ليس لها نظيرُ
أضحت لديهما كأمرٍ موجبِ (٨) مع مابها من قسوةٍ (٩) على الأبِ
وقالتا غايتها تسرُّهُ فانَّ أنفع الدوا أمرُّهُ

---

(١) عزم على الأمر ولم يردعهُ عنهُ رادع كأنهُ صار اصمّ (٢) مستعبَداً
(٣) الجرف : الجانب الذي اكلهُ الماء من حاشية النهر . وهارٍ : متهدّم واصله هار يهور فهو هائر وهارٍ ايضاً على القلب كما في شائك السلاح وشاكي السلاح (٤) الذي استمالهُ الحبُّ وولّههُ اي حيَّره (٥) جمع غيداء اي لينة الاعطاف ويراد بالغيد النساء عموماً (٦) كم هنا خبرية تفيد التكثير والمعنى فكم بالحري او فما بالك وقصدهما حسن (٧) ادّى او انتهى الى
(٨) اي لازم لا بدَّ منهُ (٩) قساوة اوشدَّة وهي مصدر قسا يقسو فهو قاسٍ وهم قساة

فكم مرارةٍ حلَت عقباهـا وحلوةٍ كاس الردى تلاها[١]
وكم ظلامٍ قد تلاهُ نورُ وغُمةٍ أعقبهـــا سرورُ

الشذرة الثامنة

﴿ الغراب والثعلب ﴾

فاختصَّتا[٢] الجـارةَ بالمديحِ بمسمع[٣] من الأب الجريحِ[٤]
فقالت الكبرى: سناها باهرُ[٥] وفضلهـا على الغواني[٦] ظاهرُ
وعلمها مثل الرياضِ زاهرُ[٧] وقلبهـا مثل السماء طاهرُ
وقالتِ الصغرى : وهذا كلُّهُ مع نسبٍ عالي الذُرى[٨] يظلُّهُ

---

(١) تبعها . ومثلها [أعقبَها] في البيت التالي (٢) خصَّتاها وقد مرَّت في الشذرة الخامسة (٣) اي بحيث يسمع والدها ذلك المديح (٤) المجروح قلبه حبًّا (٥) سناها : ضياؤها وقد استعير للحسن والملاحة . وباهر : منير وساطع (٦) جمع غانية . وهي في الأصل المرأة التي غنيت بحسنها عن الزينة ويراد بها هنا النساء عموماً (٧) اي مُشرق ومثله الازهر يستعاران لاشراق العلم ومعاهده كما في الجامع الازهر وايضاً في قولنا :
كم أزهرت برياض العلم مدرسةٌ من فوقها نشر التوفيق أعلامَهْ (*)
(٨) جمع ذروة وهي المكان المرتفع

ومنهجٍ[١] في الظرف لا يملُّهُ[٢] ... الاَّ غبيٌّ[٣] ذوقهُ يُضلُّهُ[٤]
فكان ذا لجرحهِ مُسكّنا[٥] ... وبالرضى من ابنتيهِ مؤذنا[٦]
فهشَّ[٧] في وجهيهما وقالا ... خُذا الفتاةَ لكما مثالا
لأنها راقية الأفكارِ ... حميدة الأوصاف والأطوارِ
تلقَّت البنتان ذي الاشارَهْ ... بالبشر[٨] كي تجددا الزيارَهْ
وسارتا الى التي تهذّبُ ... وقلبُ كلٍّ منهما مضطربُ[٩]
واستفتتاها[١٠] المرَّةَ الأخيرَه ... في النقَط العصرية الخطيرَه[١١]
لتنسجا الكيد على منوالها[١٢] ... وترجعا[١٣] اللومَ الى مقالها
فسُرَّتِ الجارةُ بالهدايهْ ... واستبشرت بالنجح في النهايهْ
ثم انبرَت تشرح كلَّ مسأله ... وذللتْ صعابَ كلِّ مُعضله[١٤]

---

(١) طريقة (٢) لا يسأمهُ ولا يضجر منهُ (٣) الجاهل القليل الفطنة (٤) يُبعدهُ عن الصواب (٥) مخففاً للألم (٦) مُعلماً ومشعراً (٧) أظهر السرور (٨) بالسرور والارتياح (٩) مرتبك او منزعج (١٠) سألتاها ان تفتيهما اي تحكم لهما في المسائل (١١) المهمة ذات الشأن (١٢) لتسيرا وتتصرفا في حيلتهما المدبَّرة على طريقتها (١٣) من أرجع اي أعاد (١٤) أي سهَّلت صعوبات كل مشكلة

تذليلَ استاذٍ خبيرٍ مقتدِرْ قامَ لمبدإٍ جديدٍ ينتصرْ (١)
فعادتا والارتياح (٢) بادي (٣) عليهما والقلب في حدادِ (٤)
اذ همَّتا بمقصدٍ ذي رَيبه (٥) رُبَّ اذًى يعقبهُ او خيبه
في ليلها كبراهما لم تنمِ لفرط ما كان بها من ألمِ
وكان مضجع (٦) العميد يَحتجِبْ (٧) عنها بحاجزٍ رقيق قد نُصب
فسحَّ (٨) دمعها وزاد الحزنُ اذ سمعتهُ ساهراً يئنُّ (٩)
انينَ صبٍّ (١٠) حائرٍ ولهانِ (١١) أصبح من هواهُ في هوانِ (١٢)

الشذرة التاسعة

﴿ في سبيل العلم ﴾

وكان كلُّ ما اليهِ يُفتقَرْ (١٣) للبدء في درس العلوم قد حضَر

---

(١) يدافع او يحامي عنهُ (٢) السرور (٣) ظاهر . من بدا يبدو اي ظهر (٤) الحداد : الحزن او لبس السواد لموت قريب (٥) اي نوتا وعزمتا (٦) موضع الاضّجاع اي الرقاد (٧) يستتر او ينفصل (٨) سال غزيراً (٩) يتأوَّه من جرى ألمٍ والاسم الأنين وسيأتي (١٠) الأنين : الاسم من أنَّ يئنُّ . والصبّ : العاشق الشديد الولَع (١١) شديد الحزن (١٢) ذُلّ وضعف (١٣) يُحتاج اليهِ

ومذ بدا فجرُ النهار التالي كلتاهما قامت بلا امهالِ (١)
وصنعتْ كبراهما التجارب (٢) في الكيمياء شأنَ (٣) كل طالبْ
وأهرَقت (٤) عمداً (٥) لدى الختام حِمضاً (٦) على مائدة الطعامِ
فأتلفتْ بصبغهِ (٧) الغطاء وأفسدتْ بريحهِ (٨) الهواء
وكان فات موعدُ الفطورِ وأقبل الوالد في فتورِ (٩)
اذ عثرتْ رجلهُ في الطريقِ بغيلمٍ ضخمٍ من الرُّقوقِ (١٠)
هذا عدا ما شامَهُ (١١) بالأمسِ من ضبةٍ (١٢) وقردةٍ ونمسِ (١٣)

---

(١) بطء وتأنٍ (٢) العمليات التي يراد بها معرفة خواصّ الاجسام والموادّ الكيماوية (٣) طبع أو حال (٤) صبَّت او سكبت (٥) قصداً لا خطأً ولا بالصدفة (٦) سائل كيماوي (٧) مادّته الملوّنة (٨) رائحته (٩) عدم نشاط وضعف همة (١٠) الغيلم : ذكَر السلحفاة البرية و [ضخم] كبير الحجم و [الرقوق] جمع رَقّ وهو نوع من السلاحف البرية الكبيرة الحجم . أما السلحفاة البحرية فيقال لها الأطوم (١١) نظرَه ورآهُ . والاصل شام البرق اي نظر اليهِ ليعرف أين يقصد ويُمطر (١٢) أنثى الضبّ وهو حيوان صغير على هيئة فرخ التمساح ذنبه كثير العُقَد (١٣) حيوان قصير اليدين والرجلين طويل الذنَب يصيد الحيات ويأكلها ويكثر وجوده بمزارع مصر الواقعة على شواطىء النيل

فقالت الكبرى له مبتسمهْ يا أبتِ ما أصدقَ المعلّمه
حيث تقول لذّة العقولِ بالعلمِ تُنسي لذّة المأكولِ
وَدَأْبُنا (١) لا نُدخلُ الخدّاما في الصبح حتى نطلب الطعاما
لذا الفطورُ وقتهُ تأخّرْ وقدرأيتَ اليومَ ما يُستنكرْ (٢)
ما كاد يستوضحْ (٣) ما قالتهُ لهْ حتى أتتهُ اختُها مُهرْولهْ (٤)
رافعةً بكل كفٍّ رايه تديرها بالرفق والعنايه
قالت أبي انظر كم من الملاحه في لغةِ الأبعادِ والملاحه
ألا تُسرُّ ان اكون ماهرَه فيها وأن أُديرَ يوماً باخرَه (٥)
فزاد دهشهُ وظن ما رأى عتاهةً (٦) أو من غرائب الرُّؤى (٧)
ولم يُفق (٨) من دهشهِ حتى ذُعرْ (٩) وراعهُ (١٠) استقراؤُه (١١) ماقد ذكرْ
فقالت الكبرى نجدّْ (١٢) يا أبي في طلب العلم فلا تستغربِ
ولا تخفْ من عدم النجاحِ وعندنا سيدة النصّاحِ (١٣)

---

(١) عادتنا (٢) يُعاب ويستغرب (٣) يطلب وضوح الشيء ويفحصهُ
(٤) مسرعةً في مشيتها (٥) سفينة تجارية (٦) جنوناً (٧) الأحلام.
جمع رؤيا اي منام (٨) من أفاق اي انتبه من غفلتهِ (٩) خاف
(١٠) أفزعهُ وهالهُ (١١) استقراء الأمر: تتبعهُ لمعرفة أحواله
(١٢) نجتهد (١٣) جمع ناصح للمذكر وهو الذي يُخلص النصيحة

أعني بها جارتَنا العزيزه بها اهتدينا ليس بالغريزَه (١)
لم يستمع ذا القولَ حتى أُفحما (٢) وقد رأى السكوتَ عنهُ أسلما

العشرة العاشرة

﴿ اختم بالطين ما دام رطباً (٣) ﴾

وحبَّذا (٤) لو حصرت بنتاهُ كيدَهما في العلم لا سواهُ
بل قضتا سحابة (٥) النهارِ في شرب تبغٍ واحتسا عقارِ (٦)
وفي سؤال الوالد المسكينِ عن أجود الاصناف للتدخين (٧)
بحيث لا يُنقص او يزيدُ عما تراه الجارة الودودُ (٨)
وأن يقول الحقَّ لا يحابي (٩) في حكمه عن أجوَدِ الشرابِ
فهل يرى تعاطيَ الروم النقي (١٠) أفضل أم إدمان (١١) شرب العرقِ

---

(١) الطبيعة او القريحة (٢) أسكتتهُ حجتها (٣) مثَل يقال لانتهاز الفرصة عند سنوحها . لأن الطين اذا جفَّ لا يعود يصلح لختم شيءٍ (٤) يا ليتَ . وأصله حبَّ ذا اي هو حبيب (٥) طول (٦) الاحتساء : الشرب . والعقار : الخمر (٧) شرب الدخان (٨) الكثيرة الودّ وهو فعول بمعنى فاعل يستوي فيهِ المذكر والمؤنث (٩) لا ينحرف عن العدل (١٠) اي عرَق السكَّر الغير الممزوج بالماء (١١) مداومة او اعتياد

اذ كلفت[١] كبراهما بالأوّل[٢] لفضله[٣] وعنهُ لم تحوّل[٤]
وأيقنت صغراهما بالتجربه ان الأخيرَ خيرَ كلّ الأشربه
ودامتا نحوَ فؤادِ الوالدِ تصوّبانِ[٥] أسهم المكائدِ
حتى تداعى[٦] ركنُ ما بناهُ من قصدهِ كما تمنّاهُ
لا سيما بحادثٍ مستنكرِ توفرت[٧] فيهِ دواعي[٨] الظفرِ
حيثُ دَعت كلتاهما خطيبها وكان الاتفاق أن يُجيبها[٩]
الى وليمةٍ بها يرادُ تمكين ما قام بهِ الوداد[١٠]
ومجلسٍ يتوق[١١] كل خاطبِ اليه قاصرٍ[١٢] على الأقاربِ
وقالتا من جاءنا غداً غدا أنجح من راح وأحظى من غدا[١٣]

---

(١) اي أولعت بهِ وأحبتهُ حباً شديداً (٢) اي الروم (٣) لمزيته او فائدته (٤) لم تعدل او تنصرف عنهُ . وحذفت من اوّله التاء كما حذفت من تتعاطى فيما مرَّ (٥) تسدّدان . من صوَّب اي (نشَّن) (٦) تهادَم او تساقَط (٧) اجتمعت وتهيَّأت (٨) اسباب وهي جمع داعٍ (٩) يردّ لها الجواب بالايجاب اي بالقبول (١٠) اي تقوية المودّة بما بما تقوم بهِ كالمعاشرة وغيرها (١١) يشتاق ويصبو اليهِ (١٢) لا يحوي الاّ الأقارب (١٣) احظى : أكثر حظوةً وفوزاً . وغداً الاولى : اليوم الذي بعد يومك . والثانية بمعنى صار . والثالثة بمعنى انطلق

وانما ابوهما لم يسمعِ بدعوة الأنس ولا لهـا دُعي
فاجتمع الاحبابُ في الميعادِ وعمَّت البهجةُ ذاكَ النادي
واشترك الجميع بالسواء في الشرب والتدخين والغناء
وزال الاحتشام[١] بين الآلِ واكثروا الضحك بصوتٍ عالي

الشذرة الحادية عشرة

﴿ لم يبقَ في قوس التصبُّر منزعُ[٢] ﴾

فأقبل العميدُ حين غفله[٣] وقد هـداهُ لمكان الحفله[٤]
ما قد تعالى فيهِ من صياحِ وزاد عن حدٍّ له مباحِ
أقام عند الباب وهو يرصدُ[٥] ظنَّ يرى ولا يراهُ أحدُ
فشاهد ابنتيـهِ في رداء[٦] يليق بالرجال لا النساء

---

(١) الحياء (٢) من نزَع في القوس اي مدَّها وجذب وترها . وجاء في أساس البلاغة بمـادة (تَنِق) « أتأَقَ القوسَ ملأها [نزْعاً] وهو ان لا يدع موترُها متنفّساً من شدَّة ما وترَها وربما أصبحت وقد انقطع وترها » . والشذرة مثَل يُضرب لمن فرغ صبره ولم تبقَ لديهِ منهُ بقيـة (٣) اي على حين فجأة (٤) الاجتماع . وهي اسم المرَّة من حفل القوم اي اجتمعوا ومثله احتفل (٥) يراقب (٦) ثوب . ويراد بهِ توسعاً كل ما يُلبس

وسمع الكبرى تقول : اشربُ نَخْب[١] فتى يُنشدنا ويُطرب
نشائدَ[٢] الاصلاح والحريهْ لنا وكلِّ غادةٍ عصريه
ذوقوا مداماً[٣] طال عندي كونُها[٤] يصفرُّ من خوف المزاج[٥] لونُها
ما العمر ما يطول بالحسابِ بل ما انقضى في الأنس[٦] بالأحبابِ
وقالت الصغرى: ومن أجادا[٧] أُهـدهِ من تبغيَ ما أرادا[٨]
وفوق[٩] شرب نخبهِ سأتحفهْ[١٠] بضبَّةٍ يألَفُها وتألَفُهْ[١١]
ولتنسَنا الخيرات ان نسينا نخب التي بعلمها هُدينا[١٢]
ودام شرب النخب والأنشادُ حتى تلاقى السكر والرقادُ

الشذرة الثانية عشرة

﴿ ذكر جريرة وكشف سريرة[١٣] ﴾

فذهبَ العميد وهو مسرعُ لدارِ من تُعزى لهاذي البدعُ[١٤]

---

(١) ما يُشرب من الخمر لصحة صاحب او عشير (٢) جمع نشيد وهو الشعر الذي يُنشد (٣) خمراً (٤) بقاؤها (٥) الاختلاط . مصدر مزج اي خلط (٦) السرور بالاجتماع وهو ضدُّ الوحشة (٧) أحسن في انشادهِ (٨) اي أعطيه هدية من دخاني (٩) وزيادة عن (١٠) أُهديهِ (١١) يهواها وتهواه (١٢) اهتدينا (١٣) الجريرة : الجريمة والذنب . والسريرة : دخيلة المرء ونيَّتهُ (١٤) جمع بدعة وهي كل ما أحدث جديداً

تلك التي قد أسرتْ فؤادَهُ ... وملكت بحسنها قيادَهُ (١)

ولم يكد يقرئها سلامه (٢) ... حتى بدا يشكو لها آلامه

أخبرها بما أتتْ (٣) بنتاهُ ... من كل فعلٍ ذو الحجى يأباه (٤)

وقال مجهشاً (٥) برغم منهُ ... فرّطتِ (٦) في عرضي (٧) ولم اصنهُ (٨)

وساءني قولهما أتيتِ ... ما تأتيانِ (٩) وبهِ أوصيتِ

ان كان ذا حقاً فلا قطينا (١٠) ... في الحيّ (١١) يرضى ما تعلّمينا

أجابت الفتاةُ وهي باسمهْ ... اني بنهضة ابنتيك عالمه

ذا مشربي فما انا مستغربَهْ ... فعلهما بل بهِ طرًّا (١٢) مُعجبَهْ

في كل ذنبٍ تُعذَر الرجالُ ... وعثرة (١٣) النساء لا تُقال (١٤)

فأن تُردْ يوماً من الأيام ... احدى النسا أطّراح (١٥) الاحتشام (١٦)

---

(١) القياد : ما تقاد بهِ الدابة من حبل ونحوه ومثله المِقوَد . والمعنى انها ملكت زمامه تقوده كيف شاءت (٢) يحيّيها . من أقرأ فلاناً السلام أبلغهُ اياه (٣) فعلتْ (٤) الحجى : العقل . ويأباه : لا يرضاه (٥) متهيئاً للبكاء (٦) قصّرتُ وتهاونت (٧) شرفي وما يلزمني صيانتهُ من أهلي وقد تقدم شرحه (٨) لم أحفظه (٩) اي كدّرني قولهما فعلتِ ما تفعلان هما ، اي ابنتاه (١٠) ساكناً او قاطناً (١١) محلّة القوم ويراد بها هنا البلدة جميعها (١٢) جميعاً (١٣) زلّة او سقطة (١٤) لا يُصفح عنها . من أقال يُقيل اي عفا وصفح (١٥) نبْذ او ترك (١٦) الحياء

كيما تُريح النفس بالمسامَره[١] والشرب والمزاح والمقامَره
عاملةً بقول أهل الفضلِ في المزح انَّهُ جلآءُ العقل[٢]
وانَّ بعض الشرب والخلاعه لا بدَّ منهُ لأولي[٣] البراعـه
وكثرةُ الحياء والسكونِ مجلبةٌ[٤] للسقم والجنونِ
قلتم تعدَّت الفتاةُ الحدَّا واستوجبت شرعاً بذاك الحدَّا[٥]
وجُلت[٦] بالعار ما بين النسا وذنبها لم يكُ يوماً ينتسى
فمن لهُ قلبٌ ولا يُساء من ذِلَّة تُسامُها النساء[٧]
قد آن أن تُرخي[٨] رجالُ الأمَّه لنا الى النهاية الأزمَّه[٩]

السُدرة الثالثة عشرة

﴿ فصل الخطاب والعود الى الصواب ﴾

فامتعض[١٠] العميدُ من أقوالها ولم يعُد يطمعُ في وصالها

---

(١) المحادثة (٢) اي صقل العقل او ازالة صدأ الهمّ عنهُ (٣) ذوي البراعة اي اصحابها (٤) ما يدعو او يؤدي الى السقم (٥) الحدّ الاول : الحاجز . والثاني : عقوبة الشرع (٦) اي علاها العـار او تغطَّت بهِ (٧) تكلَّفها النساء (٨) أرخى الزمام للفرس : طوَّله له (٩) جمع زمام وهو المقود (١٠) غضِب من أقوالها وشقَّت عليهِ

ونالهُ[١] من حسرةٍ وغمٍّ ما نال فرعونَ بوسط اليمِّ[٢]
قام وقد تكلّف التبسُّما ثمَّ انحنى امامَها تهكُّما[٣]
قال أخابَ اللهُ سعيي[٤] قبل ما اعضُّ كفيَّ عليهِ نَدَما
حمداً لهُ لأنَّهُ أبدى لي[٥] ما فيهِ خيري وصلاحُ حالي
رأيتُ كيف استنسر البُغاثُ[٦] وكيف قد ترجَّل الإناثُ[٧]
وعاد توًّا[٨] مسرعاً لقصرهِ كي يتلافى[٩] ما مضى من أمرهِ
واستحضرَ ابنتيهِ حالما وَصل ثمَّ اقرَّ بالذي منهُ حصل
قال مشيتُ والهوى[١٠] دليلي فحادَ بي[١١] عن جدَدِ[١٢] السبيل
والدهر يُدني[١٣] المرءَ ثم يُبعدُهْ يُشقيهِ[١٤] تارةً وطوراً يُسعدُهْ
وكنتُ وارداً موارد الرَدَى[١٥] لولا أبانَ[١٦] اللهُ لي نهج[١٧] الهدَى

---

(١) لحِقَهُ (٢) البحر (٣) استهزاءً وسخريةً (٤) أحبط سعيي او لم يُنلني مطلوبي (٥) أظهر لي (٦) البغاث : طائر أصغر من الرخم بطيء الطيران . واستنسر : صار كالنسر في القوة ومعناه ان الطائر الضعيف أصبح نسراً (٧) صرنَ رجالاً (٨) مباشرةً لا يلوي على شيء (٩) يتدارك (١٠) ميل النفس وشهوتها (١١) مال وانحرف بي (١٢) مستوي الطريق وأوسطها (١٣) يقرّب (١٤) يجعله شقياً تعساً (١٥) اي كنتُ سالكاً طريق الهلاك . والأصل في وَرَدَ الوصول الى الماء . والمورد موضع الوصول اليهِ (١٦) أظهر (١٧) طريق او سبيل

فسامحاني في الذي فعلتُ فانني إياكما أضللتُ[١]
والآن اذ بانت لنا النهايه وقد عرفنا علّة الغوايه
أعطيكما الخيار[٢] في تركي انا او تركِ من تسبّبت في ذا العنا[٣]
مادمت حياً لن يكون لي صِلَه[٤] بمرأةٍ ان لم تكن معتدله

الشذرة الرابعة عشرة

﴿ تسامُح[٥] الاعتدال وتصافُح الآل ﴾

فقالت الكبرى : أترضى يا أبي انّا نناوي[٦] جارةً لم تُذنبِ
فانما اختارت لنا ما آثرت[٧] لنفسها بل بهِ دهراً فاخرت
والعدل يأبى[٨] انّنا نشناها[٩] من بعدما نُعرض[١٠] عن مبداها
فقال : مبداها أُنبذا لا غيرُ فليس في قطع الصلات[١١] خيرُ
عودا معي لنهج الاعتدالِ فهو حليفٌ[١٢] السعد والإقبال

---

(١) أوقعتكما في الضلال (٢) الاختيار (٣) التعب (٤) علاقة او اتصال (٥) تساهل (٦) نعادي (٧) فضّلتْ (٨) لا يرضى (٩) نُبغضها او نكرهها (١٠) ننبذهُ ونُضرب عنهُ (١١) العلائق . جمع صلة وهي من وَصل يصل اي جمع وَرَبط (١٢) قرين ورفيق

فحيث لا اعتدال لا فضيله ... ما في تطرُّفٍ [١] سوى الرذيله
فاعتنقت أباهما البنتان ... وانسَجَمت [٢] مدامع الاجفان
من فرط ما سرَّهما المآلُ [٣] ... وقالتا : يا أيُّها المفضالُ
نحن اليكَ من يديك أطوعُ [٤] ... واننا بما أمرتَ نصدعُ [٥]

الشذرة الخامسة عشرة

﴿ تعيين صادَف اهلهُ [٦] ﴾

وشاع ذاك اليوم في المساء ... قربُ ارتحال [٧] الجارة الحسناء
قيل ببابانٍ أقيمت مدرسهْ ... على أجدِّ منزعٍ [٨] مؤسَّسهْ
تعلّم البنات كالرجالِ ... حرّيةَ الاقوال والافعال
وقد أتى [٩] مؤسسي ذي الجامعه ... ان الفتاة لهمُ مشايِعه [١٠]

---

(١) التطرف : التناهي ومجاوزة الحدود (٢) سالت وانصبَّت (٣) النتيجة
(٤) اسم التفضيل من طَوْع . والمعنى نحن اكثر طاعةً لكَ من يديك
(٥) نعمل . ويقال صدع بالحق اي تكلم بهِ (٦) اي مَن هو صالح
ومستحقٌّ له . يقال تهنئةً لمن نال وظيفة ومثله أُعطي القوسَ باريها (٧) سَفَر
او رحيل (٨) أحدث أسلوب او طريقة (٩) بلغ . تقول أتاه الخبر
واتصل بهِ ونميَ اليهِ اي بلغهُ (١٠) متابِعة في الرأي او المشرب

وانّها خبيرة بالمبدا [١] وفي الرآسة [٢] تفيدُ جدّا
أما مع الرجال في الدفاعِ عن جنسها فتشبه الافاعي
فأوفدوا [٣] وفداً [٤] لكي يُعلمَها حاجتهم لها ويستقدمَها [٥]
ما أبلغ الوفدُ لها الرساله وما أتمَّ بالرجا أقواله
حتى رأتها [٦] غاية المأمولِ وصرّحت [٧] للوفد بالقبول
قالت وقفت [٨] عن رضىً حياتي بأسرها [٩] لخدمة الفتاةِ
ما لاح قبل اليوم لي من فرق في خدمتي بالغرب او بالشرق
والحقُّ انَّ الشرقَ بي أحقُّ حيث الزواج للنساء رقُّ [١٠]
ألا اُحملوا لأولياء الأمرِ [١١] عنّي الرضى ولو بدون أجرِ [١٢]

---

(١) مبدأ الترجل . او هو التناهي على الاطلاق (٢) مصدر رَؤُس او رأس اي صار رئيساً . وتكتب الهمزة في المصدر على صورة الياء او الألف (رئاسة ورآسة) (٣) أرسَلوا (٤) الوفد : القوم الموفَدون اي المرسَلون (٥) يطلب قدومها اليهِ (٦) اي رأت الرسالة واعتبرتها (٧) أجابت اجابة صريحة لا ابهام فيها (٨) خصَّصتُ . اي جعلت حياتي وقفاً لخدمة الفتاة (٩) جميعها (١٠) عبودية . والمعنى ان الشرق أولى بخدمتها ففيهِ النساء مستعبدات وسوف تسعى عند وصولها اليهِ في تحريرهنَّ (١١) الذين بيدهم أمر الجامعة المذكورة (١٢) اي اني أرضى بخدمتهم ولو مجاناً بدون اجرة

النزرة السادسة عشرة

﴿ على الطائر الميمون[١] وكشف ظنون[٢] ﴾

فأقبل الجيران للوداعِ ... لدى سماع الخبر المشاعِ[٣]
ومعهمُ العميد وابنتاه ... فقالت الكبرى رعاكِ[٤] الله
نودّ لو دمنا هنا نراكِ ... لكن نبدّي ما بهِ رضاكِ
ذو الفضل يلقى السعدَ حيث يمّماْ ... وأين[٦] سار حقُّه ان يُكرَما
فقالتِ الجارةُ اني شاكرَه ... لكِ وان كنتِ الودودَ الماكره
لا تحسبيني أجهل المكيدَه ... لساعتي[٧] وان تكن فريده
او انني أُبغض من تبقى على ... قديمها دونَ ارتقاء للعلى

---

(١) يقال للمسافر : « على الطائر الميمون » اي سِرْ موفّقاً وأصله ان العرب كانوا يزجرون الطائر فاذا كان طيرانه عن اليمين تفاءلوا بهِ ، وان كان عن اليسار تطيَّروا منهُ (٢) جمع ظنّ . وهو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض . والمعنى اظهار ما اعتقد كل من الفريقين في الآخر (٣) المُذاع . من أشاع الخبرَ أي أذاعهُ (٤) حَفِظَكِ الله (٥) قصدَ او توجَّه (٦) مثل أينما . وكلتاهما من الجوازم (٧) اي لهذه الساعة . وفي ذلك اشارة الى انها بقيت حيناً تجهل المكيدة

بل لكما أبقى على الوداد ثابتةً في القرب والبعاد
اما أبوكما فما[١] احتاجُ منهُ هو الإخاء لا الزواجُ
لو قال لي اياكِ جئتُ[٢] خاطبا لقلت لا أرضاكَ الاَّ صاحبا
اني أرى الزواجَ في الحقيقه أسراً فلا ترضى بهِ طليقه[٣]
فكم عذابٍ للفتاةِ منهُ وراحةٍ في الامتناع عنهُ
لولاه ما عاشت مع الظُّلاَّمِ[٤] معيشةَ الذلِّ والاستسلام[٥]
فقالت الصغرى : خُلقت عالمه ترهّبي ما شئتِ[٦] وامضي سالمه
لكنَّ مهما نلتِ بالترهُّبِ لا تطمعي في نشر هذا المذهب[٧]
فأغرب المحال في المطالبْ ان تجعلي كل النسا رواهب[٨]
فامضي حماكِ الله من كل خطرْ وكاتبينا بعد وعثاء[٩] السفر
وبعد ما انتهى الوداع وانقضى سارت الى حيث حدا بها[١٠] القضا

(١) « ما » هنا موصولة بمعنى الذي (٢) اياكِ مفعول مقدَّم اي جئتكِ
(٣) حُرَّة غير مقيدة بشيء (٤) جمع ظالم (٥) الانقياد والامتثال
(٦) اي دومي ما شئتِ غيرَ ذات بعلٍ فهذا يناسب علةَ مثلكِ (٧) اي مذهب الامتناع المطلق عن الزواج بين النساء (٨) جمع راهبة (٩) مشقَّةً وتعب (١٠) ساقها . من حدا الإبل ساقها وغنَّى لها لتسير . والمعنى سارت فتاة العصر الى المكان الذي وجَّهها القضاء اليهِ

الشذرة السابعة عشرة

﴿ لولا ﴾

وما[١] رَوَت عن نفسها الفتاةُ حكى[٢] الذي فاهت[٣] بهِ الرواة
قالوا و « لولا » جعلُها الحرّيه سَبَباً[٤] لكانت بالثنا حريَّه[٥]
لكنَّ هبْها[٦] عفّةَ الازارِ[٧] مخلصةَ القصد[٨] والاختيار
لكل مبدا سائبٍ[٩] قصاصهُ فلا يقي صاحبَهُ اخلاصُهُ[١٠]
لا بدَّ انَّ سَورة[١١] الإفراطِ تطرحهُ في هوَّة[١٢] الأغلاطِ
هل يستطيع صاحب التناهي مهما احتمى[١٣] عفاً[١٤] عن المناهي[١٥]

---

(١) ما موصولة بمعنى الذي (٢) أشبهَ (٣) تلفظتْ بهِ وقالتهُ (٤) هملاً . من سابت الدابة مرَّت حيث شاءت (٥) جديرة وخليقة (٦) إفرِض انها (٧) طاهرة الثوب اي عفيفة (٨) اي ان قصدها مجرَّد من الرياء والغشّ (٩) السائب من الحيوان المهمَل كما مرَّ ، والمبدأ السائب هو المطلق الذي لا حدَّ له يوقف عنده . والنسبة اليهِ — السائبية — ويراد بها الحرية المطلقة المتناهية (١٠) اي ان اخلاص صاحب هذا المبدأ لا يحميهِ من القصاص المقترن بهِ (١١) حدَّة (١٢) هاوية او حضيض (١٣) اي مهما امتنع عنها واجتنبها (١٤) تعففاً وامتناعاً (١٥) المحرَّمات

وقيـل « لولا » حيلة البنتينِ لمـا بدا[١] قطُّ لذي عينينِ
ما شامهُ العميدُ من مبداها ودام بعد نأيهـا[٢] يهواها
بل دام كَلْمٌ[٣] حبّهِ لا يؤسى[٤] وغمّهُ من هجرها لا يُنسى

الشذرة الثامنة عشرة

﴿ إسكات شريكين في المكيدة[٥] ﴾

وبعد ما سارت فتاة العصرِ الى مقرّهـا بنحو شهرِ
زار العميـدَ خاطبا اُبنتيـهِ وكرّرا شكواهما اليهِ
قالا : شريعـة الزواج طاهرَهْ غايتهـا العفاف والمصاهرَهْ[٦]
حتّامَ[٧] نستعطف[٨] بالرجاء ولا نرى منكم سوى الارجاء[٩]
خابت مساعينا مع التضرُّعِ[١٠] نكيبة المشط برأس الأصلع[١١]

---

(١) اللام واقعة في جواب لولا و [ما] نافية و [بدا] ظهر (٢) بُعدها ورحيلها (٣) جُرح (٤) لا يداوَى ولا يبرأ (٥) ان خوف ابنتي العميد من ان مماطلتهما قد تضطرُّ خطيبيهما الى الوشاية بهما الى أبيهما أدّاهما الى ان يُسكتا هذين الخطيبين بامضاء عقد الزواج (٦) القرابة بالنسب وهي مصدر صاهر . والصِّهر زوج الابنة او الأخت (٧) الى متى ؟ (٨) نستميل (٩) التأجيل والتأخير (١٠) التذلُّل (١١) مَن سقَط شعر رأسه

هلاَّ تكلمتَ بخيرٍ عنَّا لمن علينا بالوفاء ضنَّا[1]
على بلوغ سؤلنا[2] أعنَّا[3] لتربحَ الشكر الجزيل منَّا
فأبلغ العميدَ ذا العتابا حالاً وعاد يحمل الجوابا
من ابنتيهِ بالقبول تُمَّا بعد قليلٍ الزواجُ تمَّا

الشذرة التاسعة عشرة

السعادة العائلية

وبعد ما استراح راوي السيره حيناً روى الحوادث الأخيره
قال انقطعت عنهمُ أعواما وعُدت كيما أعلم الختاما
فسرتُ من مثوايَ ذات يومِ ضحىً لكي أرى عميد القومِ
عجبتُ اذ عند دخولي الدارا أبصرت ثمَّ صبيةً[4] صغارا
في طربٍ او مرَح[5] او جذَل[6] في لعبٍ او ضحكٍ متّصلِ[7]
أشبه بالأملاك منهم بالبشرْ تطيب نفس من رآهم وتُسر

---

(١) بَخُلَ علينا (٢) مطلوبنا او حاجتنا (٣) مِن أعان اي ساعِدْنا
(٤) جمع صبيّ وهو دون الفتى سنًّا (٥) شدة الفرح والنشاط
(٦) السرور والفرح (٧) متواصل غير منقطع

سألت: مَن هم؟ فأجاب الحاجبْ ... هم للعميدِ أقربُ الأقاربْ
لهم زياراتٌ هنا مطرَّده[١] ... اذ هم لهُ من ابنتيهِ حفَدَه[٢]
قد حضروا ووالدوهم معهم ... أليومَ اذ دعاهمُ أجمعهم
إثرَ[٣] اعتماد ولدٍ له ذكر ... ذي طلعةٍ غرآءَ[٤] تُشبه القمر
من زوجةٍ كريمة الأخلاقِ ... طيّبةِ العنصر والاعراقِ[٥]
تُعزى[٦] لأُسرةِ الفقيدة التي ... كانت له عوناً[٧] وخيرَ زوجةِ
أكرمْ بها بديلةً[٨] جليلهْ ... بين النساء ما لها عديلهْ[٩]

الشذرة العشرون

﴿ المرأة الفاضلة او أمُّ السعادة العائلية ﴾

سمعتُ ذا وسرتُ مع وصيفِ[١٠] ... حتى أتيتُ قاعة الضيوفِ
حيث رأيت الكلَّ في ابتهاجِ ... بشملهم وغبطةِ[١١] الزواجِ

---

(١) متتابعة ومتوالية (٢) جمع حفيد وهو ولد الولد (٣) عقب
(٤) حسناء . مؤنث أغرّ (٥) جمع عِرق وهو الأصل . ومنهُ قول الشاعر : والعرق دسَّاس من الطرفين (٦) تُنسب (٧) مُعينة
(٨) البديل : مَن أخلف احداً وحلَّ محله (٩) نظيرَة ومثيلة . والمعنى أنعمْ بها زوجة حلّت محلّ الأولى (١٠) غلام (١١) سعادة

فقلت هذه فرصة سعيده أعرف فيها الزوجة الجديده
ومذ عرَفتُها طفقتُ أُثني (١) وبحُلاها (٢) زوجَها أُهنّي
رأيتُ ذاتاً جلّ ربّي جمعا بها جمال الخَلق والخُلق معا
تُصلحُ بالتدبير ما تأوَّد (٣) وبهِ تفري (٤) كل باب مُوصد (٥)
عن مثلها أقدمُ كلّ الكتبِ قال مقالاً مُلهماً (٦) لم يكذب
«طوبى (٧) لمن يحظى (٨) بزوجٍ مثلِها هل يُلفَينَّ (٩) شبهُها في فضلِها»
« قيمتها فوق اللآلئ كلّها تقرُّ بالحياةِ (١٠) عينُ بعلِها »
«يُزهى (١١) بتقواها ووفر (١٢) عقلها يغبطه (١٣) كل الورى من أجلها»
«يُعرف باسمها وطيب اصلها (١٤) سديدةُ التدبير في منزلها »
«لا ينطفي ليلاً سراج رَحلها (١٥) تكسو جميع أهلها بشغلها »

---

(١) اي شرعتُ امدح (٢) بصفاتها الحميدة (٣) تعوَّج (٤) تَشقُّ أو تَفتح (٥) مُقفَل (٦) مُوحَى بهِ (٧) هنيئاً لمن (٨) يفوز ويسعد (٩) يُوجد . من ألفى يلفي اي وَجد (١٠) تُسَرُّ بها (١١) يُعجب ويفتخر بتقواها وبقية صفاتها وهو بهذا المعنى مبنيٌّ للمجهول ومثله عُني بالأمر . وتُتجت الشاة [صحاح] (١٢) سعة وكبر (١٣) اي يتمنى مثل نعمته دون ان يطلب زوالها عنهُ (١٤) اي يكون مشهوراً بفضلها فيقال عنهُ بعل فلانة لا فلان باسمه هو (١٥) منزلها

« تأسوهمُ (١) بقولها وفعلها يفتخرون كلُّهم بنُبلها (٢) »
« فائمةٌ بفرضها ونفلها (٣) مورثةٌ (٤) صلاحها لنسلها »
« آمنةٌ صروف (٥) مستقبلها لا سنَةٌ تروعها (٦) بمَحلها (٧) »
« تغذو (٨) الفقير من شهي آكلها تعولهُ كأنَّهُ من أهلها »

الشذرة الحادية والعشرون

﴿ مُداعبٌ (٩) لا يرحم ومذنبٌ لم يأثم (١٠) ﴾

﴿ ومغلوبٌ لم يندم ﴾

وقيل لي : هيا اقترح (١١) شرابا وكنت معهم عادةً دعّابا (١٢)
فقلت: كنت اشتهي الروم النقي وتارةً أشربُ بعض العرَق
ومنذ عامٍ عنهما انتهيتُ (١٣) وبالزُّلال السائغ (١٤) استغنيتُ
ثمَّ ظللتُ (١٥) ناظراً بعيني عقيبَ قولي ذا للابنتين

(١) تعزّيهم (٢) بنجابتها وفضلها (٣) النفل هو ما زاد عن الواجب المفروض (٤) تاركةً لأولادها ميراثاً (٥) نوائب او حدثان . جمع صَرف (٦) تخيفها (٧) بجدبها او قلة خصبها (٨) تغذّي وتطعم (٩) ملاعب او ممازح (١٠) لم يُذنب (١١) أُطلُبْ . وهيا اسم فعل بمعنى أسرع (١٢) كثير الممازحة (١٣) كففتُ عنهما (١٤) الماء الزلال : العذب الصافي . والسائغ : الهنيُّ (١٥) دُمتُ او بقيتُ

لكي أراني هل أصبتُ المرمى (١) او سببٌ ما قد أطاش (٢) السهما
فاحمرَّ منهما المحيَّا بالعجلْ وأحنتا الرأس لتُخفيا الخجلْ
فقلت في نفسي من فرط الجذلْ مرحى (٣) فذا جزاء اصحاب الحيَل
امَّا أبوهما فلي تبسَّما وحمَد المولى على ما أنعما
قال هدانا الله فضلاً منهُ للاعتدال بعدَ حدنا (٤) عنهُ
وقد علمنا اليوم باختبارِ صدق مقالٍ في الأنام ساري (٥)
اذا أردتَ الأمن من عثارِ (٦) فسلْ عن الجيران قبل الدارِ
ما كشَر (٧) الإفراط عن أنيابهِ وسادَ (٨) الاَّ اسودَّت الدنيا بهِ
جزى ابنتيَّ الله خيراً عني لولاهما ما ذُقتُ طعم الأمنِ
ذا قالهُ وهمَّ بالقيامِ (٩) وكلُّنا معهُ الى الطعامِ

(١) الرماية (٢) أمال او أبعد السهم عن اصابة الغرض (٣) مَرْحَى : كلمة تعجُّب واستحسان تقال للرامي اذا أصاب الغرض. وعكسها « بَرحَى » والمعنى انهُ سُرَّ بخجلهما عند ذكره نوعي الخمر اللذين كانت تدَّعي كل منهما انها تهوى احدهما انظر البيت الأخير من صحيفة ١٨٩ (٤) اي بعد ما ملنا وانحرفنا عنهُ . من حاد يحيد اي انحرف . وحذف « ما » قبل الفعل جائز في الشعر (٥) سائر جاري . والأصل في السُرى السير ليلاً (٦) العثار : السقوط والزلل (٧) كشَف عن أسنانهِ وأظهرها (٨) وعمَّ (٩) تهيَّأ للقيام

ثمَّ رحلتُ فارحاً بالعاقبه ولا تزال بيننا المكاتبه
واليوم منهم جاءني البريدُ (١) ينبئُ انهم كما أريد (٢)

الشذرة الثانية والعشرون

﴿ فاُختر لنفسك ما يحلو ﴾

فقلت للراوي الشريف المبدإ شنَّفت (٣) مسمعي بهذا النبإ
وانما قد لاحَ لي سؤالُ هو المُنى (٤) يا ايها المفضالُ (٥)
هلاَّ ختمتَ ما رويتَ ناصحا (٦) قال: رأيت النصح فيه جارحاً (٧)
وعند ما أراد ان يُزايلا (٨) قام مصافحاً (٩) ملياً (١٠) قائلا
هو التناهي مبدأٌ محبَّبُ (١١) لأهلهِ وذمُّه يُستصعبُ
لذا زففتُ (١٢) هذه الروايه في طيّها (١٣) الصواب والغوايه (١٤)

---

(١) البوسطة او الرسول (٢) يعلمني انهم بخيرٍ كما ابغي (٣) أطربتَ سمعي (٤) جمع مُنية اي البغية او ما يتمناه الانسان (٥) الكثير الفضل (٦) اي تكرَّم في الختام بابداء فكرك الخصوصي على سبيل النصيحة (٧) مؤلماً لأصحاب التناهي (٨) يبرح او يفارق (٩) مسلّماً بيدهِ (١٠) وقتاً طويلاً . اي مودّعاً وداع التودُّد والصداقة (١١) محبوب وعزيز (١٢) اهديتُها كما تُهدَى العروس لبعلها (١٣) ضِمنها (١٤) ضدُّ الصواب

لكل مُفرطٍ بلا تعقيبِ [١] مني بترغيبٍ ولا تثريبِ [٢]
لا يسمعنْ مني بالانتهاء قدكَ اتَّئبْ اريتَ في الغلواء [٣]
بل أترُكُ الحكمَ لهُ فان يُردْ يجدَّ في غلوائهِ او يقتصد [٤]
فكل منهجٍ لهُ عواقبُ تُثيب [٥] ناهجيهِ او تعاقبُ
وعاقلٌ مَن بالحوادث اعتبرْ فكم عظاتٍ [٦] بالغاتٍ [٧] في السيَر
من لم يحاذر قبلَ وضعهِ القدمْ يعثرْ ويندمْ حيث لا يُجدي [٨] الندم
والنار لم تحرق سوى واطيها [٩] والخمر لم تُسكر سوى حاسيها [١٠]

---

(١) اي بدون ذكر شئ من عندي في عقبها (٢) ملام (٣) قدكَ كفاك و [اتَّئبْ] استحي و [أريتَ] أفرطتَ و [الغُلواء] الغلوّ ونشاط الشباب . والشطرة من مطلع قصيدة لأبي تمام وهو من ابتدا آتهِ في تأنيب العذّال . و بقية المطلع « كم تعذلون وأنتمُ شجرائى » (٤) يعتدل (٥) تُكافئ (٦) جمع عِظة . من وَعظ اي نصح (٧) مُؤثّرة (٨) لا ينفع (٩) دائسها او واضع قدمه عليها . من وَطأ اي داس (١٠) شاربها : مِن حسا المرَق اى شَربهُ شيئاً فشيئاً

تنبيه — قد فاتني ان أذكر في بدآءة الحديث العام ان القسم الفكاهيّ منهُ قد بُنيَ على حوادث حصلت فعلاً مع أناسٍ هم أحياء يُرزقون ؟

المؤلف

فهرست

صحيفة

٣ مقدمة

حديث عامر

او

نقد في منام

صحيفة

٨ كلمة للقارئ

١١ الانتقاد والاعتدال

١٢ بواعث النقد الصحيح واسلوبه

١٣ الوسيلة والغرض والجوهر والعرض

١٥ « ورضى البرية غاية لا تُدرك »

١٥ « إرمِ خبزك على وجه الماء »

١٦ مزايا الشعر

١٧ الاعتدال في الشعر والتطرف فيهِ

صحيفة

١٨ شِعار الشاعر

١٩ الارتياح للشيء الحسن من مكتسبات التهذيب العقلي

٢٠ الاعتدال في ذكر الحب وعواطفهِ

٢١ الرجعية والعصرية

٢٢ فُكاهة في كراهة

٢٤ العنكبوت والنحلة

٢٥ خطبة أدبية

صحيفة	
٢٦	آفتنا وحاجتنا
٢٦	حذارِ من الخطر الساري
٢٨	رأي أبي العلاء المعرّي في الرقيّ والاعتدال
٢٩	الكمال الانساني وميزانه
٣٠	مظاهر الاعتدال في الطبيعة وغيرها
٣٣	المنهج القويم ، في اختيار النافع من كل عصري وقديم
٣٤	الوسط الذهبيّ
٣٥	جزاء الاعتدال والتناهي
٣٦	« ماذا تعملون في آخرتها »
٣٩	الحكم بالرجعية والعصرية
٤٠	الترجل والاعتدال
٤١	الترجل في الشرق والمؤديات اليه
٤٢	الترجل والعزوبة
٤٣	الزواج والاعتدال
٤٤	الترجل والدين
٤٥	روايات الترجل

صحيفة	
٤٧	رجوع انصار المغالاة الى محجّة الاعتدال
٤٧	المترجلات والحيّات
٤٩	الاعتدال والحجاب
٥٠	تعديل الحجاب
٥٣	التربية النفسية والروايات الغرامية
٥٦	تبرُّج النساء
٥٦	عدوى الأدب
٥٧	راح الادباء وشعار الاطباء
٥٨	ناقد ناقم
٦٠	البساطة والنظافة والنظام
٦٠	ملكة الانكليز والتبرج
٦٢	وضع العربة امام الحصان
٦٣	محضر خير
٦٤	في سبيل حبّ الوطن والأمة
٦٦	حتى في الحلم !
٦٦	قيمة الانسان
٦٧	تنبُّه ودعاء

بحث

في تهذيب البنات الحاضر

الفصل الاول

التمدن والحرية والفتاة

صحيفة		صحيفة	
٧٠	مقابلة بين مظاهر التمدن في الشرق والغرب	٧٣	منح الحرية المطلقة للفتاة
٧١	الحرية والتهذيب في الشرق والغرب	٧٤	لمن يُساق الحديث
٧٢	الحرية الكاذبة والحرية الصحيحة	٧٥	نفوذ الابنة
		٧٦	الأميرة نظلي هانم
		٧٨	مبادئ النهضة النسائية في مصر

الفصل الثانى

التأنث والترجل

صحيفة		صحيفة	
٨٠	نبوءة ابن هاني عن التأنث والترجل	٨٢	الشبّان المتبرّجون
٨١	صورتان مدهشتان	٨٣	تحرُّش الشبّان بالنساء
٨١	يزيد بن مزيد وأبناء عمهِ	٨٤	محيط الشبّان ومسؤوليتهُ

صحيفة
٨٥ معاملة الحكومات للمتحرشين بالنساء
٨٦ الفتاة الفرعونية والترجل
٨٦ الفتاة العربية والترجل
٨٧ رواية الطبراني عن فتاة مترجّلة
٨٧ الأمازون او أبعد الترجل القديم
٨٨ رواية اديسون عن أقرب الترجل القديم
٨٩ الترجل العصري
٨٩ أمثلة الترجل العصري في البلاد المتمدنة
صحيفة
٩٢ مقاومة بعض اليابانيات للترجل
٩٣ الترجل في مصر
٩٤ مَن يُعذَر ومَن يُعذَل بازآء الترجل
٩٥ أهمية عمل الفتاة وسموّ غايتهِ
٩٦ التفاوت والتساوي بين الرجل والمرأة
٩٧ الفرق طبيعيٌّ بين الرجل والمرأة
٩٧ آراء الملوك والعلماء والساسة والحكومات والشركات في الترجل العصري

الفصل الثالث

رأي الفيلسوف جول سيمون في تهذيب البنات

صحيفة
١٠٢ آراء الغربيين في حقوق الفتاة وتهذيبها
١٠٣ رأي جول سيمون في تهذيب البنات
١٠٤ الغاية التي تهذَّب الفتاة لأجلها
١٠٥ ايضاح إبهام
١٠٦ منزلة الرجل من المرأة
صحيفة
١٠٧ اشتغال النساء بالأعمال العمومية والدينية
١٠٨ لا حرَج على من اشتغلت بالأعمال الاعتيادية لسدّ عوَزها
١٠٩ تكلُّم المرأة في اماكن العبادة
١١٠ اشتغال الفتاة بدرس الفلسفة
١١١ اضرار تشبّث النساء بالعقليات

الفصل الرابع

عيوب تهذيب البنات الحاضر

صحيفة		صحيفة	
١١٢	الوالدون وتهذيب البنات	١٢٠	من هم معلمو الفتاة
١١٣	عدد المتعلمات من الأمة المصرية	١٢١	فضل تعليم النساء للفتاة
١١٣	عدم مراعاة وظائف الفتاة في تهذيبها	١٢٢	معلمات الفتاة في عهد الدولة العباسية
١١٤	ماذا يراد من تهذيب الفتاة	١٢٣	تعليم الفتاة لوكريشيا للمصريين في الجيل الرابع
١١٤	قصور برامج تهذيب البنات	١٢٤	جاذبة المحاكاة — اضرارها وفوائدها
١١٦	برامج كليات البنات في امريكا	١٢٦	علاقة المحاكاة بالتربية
١١٧	رأي الكونتس دوفليرمون في الفتاة الأمريكية	١٢٧	ميل الانسان الفطري الى الزيغ والشر
١١٨	قصور الكتب المستعملة لتهذيب الفتاة	١٢٨	تربية الرجال المحضة للفتاة
١١٩	وجوب وقوف الفتاة على معلومات الرجل	١٣٠	الحجاب والمؤثرات الرجلية
١١٩	رأي الفيلسوف رسكن فيما يجب تعليمه للفتاة	١٣٠	تأثير حُسن تربية الفتاة على الحجاب وغيره

الفصل الخامس

الاصلاح : وجوبه ووجوهه

صحيفة		صحيفة	
١٣٢	العظماء المحتقَرون	١٤١	تأسيس جمعية عمومية لترقية الفتاة
١٣٤	الفتاة أحوج من الفتى الى التهذيب	١٤١	تأليف لجان عنصرية لترقية الفتاة
١٣٧	وسائل اصلاح تهذيب الفتاة	١٤٢	عمل اللجان العنصرية
١٣٧	كليات البنات ومدارسهنّ الابتدائية	١٤٣	بروغرام تعليم الفتاة
١٣٨	كيفية الحصول على مديرات الكليات ومعلماتها	١٤٥	الكتب المدرسية للفتاة
١٣٩	رأي ضيا باشا وسرور بك في ارسال البعثات الى اوروبا	١٤٦	مدارس البنات الابتدائية العادية والابتدائية العليا
١٤٠	التدريج والحذر	١٤٧	مسؤولية التعليم وسبيل القيام بها
		١٤٩	الكتب المعدّة لارشاد المعلمات
		١٥٣	خلاصة الفصل

الفصل السادس

وسيلة الوسائل وغاية الغايات

صحيفة		صحيفة	
١٥٦	الحاجة الكبرى والقوة العظمى	١٦٢	العلم قوّة هائلة
١٥٨	الرقيّ الصحيح	١٦٢	السَيْكَران والخطّاف
١٥٩	علاقة الآداب بالدين	١٦٣	« وكفى بالشكّ جهلا »

صحيفة
١٦٥ فعل الدين في رقيّ الممالك والشعوب
١٦٦ بسمارك والدّين
١٦٧ اقرار كبار الملحدين بفضل الدين على الرقيّ
١٦٨ الظاهر والمستور واللبُّ والقشور
١٦٨ الدين في مدارس البنات
١٦٩ حاجة الفتاة الى الدين

رواية
الفتاة العصرية

صحيفة
١٧١ الشذرة الأولى : الغاية من هذه الرواية
١٧٢ الشذرة الثانية : عائلة كريمة
١٧٤ الشذرة الثالثة : جارة عصرية
١٧٥ الشذرة الرابعة : حقوق النساء (المترجلات)
١٧٨ الشذرة الخامسة « حُبُّك الشيء يُعمي ويصمّ »
١٨٠ الشذرة السادسة: الخطوة الاولى او « قبل الرماء تُملأ الكنائن »
١٨٢ الشذرة السابعة : دفاع ذوات القناع
١٨٤ الشذرة الثامنة : الغراب والثعلب
١٨٧ الشذرة التاسعة : في سبيل العلم
١٨٩ الشذرة العاشرة : « اختم بالطين ما دام رطباً »

صحيفة

١٩١ الشذرة الحادية عشرة : « ولم يبقَ في قوس التصبُّر منزعُ »

١٩٢ الشذرة الثانيـة عشرة : ذكر جريرة وكشف سريرة

١٩٤ الشذرة الثالثة عشرة : فصل الخطاب والعَود الى الصواب

١٩٦ الشذرة الرابعة عشرة : تسامُح الاعتدال وتصافُح الآل

١٩٧ الشذرة الخامسة عشرة : تعيين صادف أهلهُ

١٩٩ الشذرة السادسة عشرة : «على الطائر الميمون» وكشف ظنون

صحيفة

٢٠١ الشذرة السابعة عشرة : «لولا»

٢٠٢ الشذرة الثامنة عشرة : إسكات شريكين في المكيدة

٢٠٣ الشذرة التاسعة عشرة : السعادة العائلية

٢٠٤ الشذرة العشرون : « المرأة الفاضلة مَن يجدُها »

٢٠٦ الشذرة الحـادية والعشرون : مُداعب لا يرحم ، ومُذنب لم يأثم ، ومغلوب لم يندم

٢٠٨ الشذرة الثانيـة والعشرون : « فاختر لنفسك ما يحلو »

اصلاح ما ورد في طبع هذا الكتاب

من الأغلاط

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٥	٤	في كل جديد	من كل جديد
٤٣	٣	وآخرون	وآخرين
٤٧	٢	٨٩٨	١٨٩٨
٥٥	١٣	والتبرج	والزواج
٥٩	١٩	ان معالجتها	ان تعمُّد معالجتها
٦٣	٧	يلزم عند	يلزم عنه
١١١	١١	الفتاة	البنات
١٢٧	٢	لمعاشرتها	بمعاشرتها
١٢٧	٢٠	هم	عندهم
١٧٨	٨	جرِأةِ	جُرأةِ
٢٧٨	١١	الفتيقِ	الفتيقُ
١٨٨	١٤	تجارية	بخارية
١٩٠	٢	خيرَ	خيرُ
١٩١	٦	لم يبقَ	ولم يبق

- JUN 197[illegible]

BJ
1658
A7
Q9
v.1

I 14735544
B 13025661

BJ
1658
.A7
Q89
1912